اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

• د. نعمات أحمد فؤاد

شخصية مصر

الطبعة الخامسة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

شـــخصية قاهــرة
وروح آســـــرة
وعطـــاء لا يضـــن
ووفـــاء لا يمن
ورجـــاء لا يخيب
تمضـــــى الدول
ويذهب أصحابها
وتظل مصر الباقية
شخصيتها هى ٠٠هى
لا تتبـــــدل
ولا تتبـــــدد
ولا تحـــول ٠

إهـداء

الى مصر التى يعمر حبها قلبى

ويضىء تاريخها دربى

ويشرف باسمها اسمى

مصرية من مصر

وبمصر

ولمصر

د . نعمات احمد فؤاد

مقدمة

فى سنة ١٩٦٨ والنفس المصرية يمزقها العذاب والألم وفقدان الثقة كتبت كتابى (شخصية مصر) يقول للهزيمة : لا ... يقولها من منطلق عطاء مصر للانسان والأديان والقيم على مسار تاريخها كله .

و « لا » من طبيعتها أن تكون صرخة رفض تخرج لساعتها والا ضعف تأثيرها اذا تأخر توقيتها . ومن أجل هذا كان كتابى ١٩٦٨ خطوطا عريضة .. نتائج مركزة لدراسة مكثفة دون تطبيق أو شرح لأن الانسان المصري فى محنته وقتئذ ، كانت روحه المطحونة بحاجة الى مدد من ثقة ينتعها من العسر والقسر والقهر ، ويرفعها من الحضيض الى جديد من الأمل يردها الى الحياة ، ويمدها بالعزم .

وهنا تتوخى الكتابة والكتب أن تكون جرعة ناجعة لا دراسة موسعة .

واليوم وقد عبر الانسان المصرى الهزيمة ، وقرعينا ووجدانا ، واستقر مكانا وكيانا ، وارتفع روحا وانسانا ، أعيد كتاب شخصية مصر فى صورة أخرى تتمسك بكل معنى فى الكتاب الأول ، ومع هذا كتبته من جديد من حيث المنهج واسلوب التناول والكم والكيف .

كأنى أكتبه لأول مرة من انتفاضة وافاضة وتعميق لخطوط معينة ، وتطبيق لحادثات دالة ، وتحقيق لرؤى جديدة فى تسع سنوات عشتها فى هذا الموضوع وعاشها الموضوع داخلى حتى ملأ على كيانى وكيف كتاباتى كلها منذ ذلك اليوم الذي مادت بنا ، فيه ، الأرض ، وخاصة

كتابى (اعيدوا كتابة التاريخ) الذى حرصت على تضمين بعض فصوله ، لنفاده ، ولأهميتها هنا كاهميتها هناك مثل فصل (الأقباط والمسلمون) ٠

ان الأمم بعامة والأمم العريقة بخاصـــة ، فى أوج مجدها أو تأزم محنها ، بحاجة من وقت الى آخر ان تتمهل قليلا لتتبين حقيقة موقفها على هدى من ماضـــيها ، وواقع من حاضرها حتى لايصـــيبها الغـــرور فتهوى او يتملكها الأسى أو اليأس فتفنى أو تنطفىء أو تتزايل شخصيتها وهنا يكمن الخطر الأكبر ٠٠ لهذا يتحتم التعرف الى شخصية الأمة فى اعقاب كل مرحلة من مراحل تاريخها وبعد كل اضـــافة جـــديدة الى مذخورها .. ولا يتحتم ان تكون الاضافة كسـبا او انتصارا فقد تضيف المحنة الى الأمة العريقة ما لا تضيفه الانتصارات ، من تماسك وصلابة، واصرار ، ووقدة شعور ، ورغبة استعلاء ، وقدرة على العمل ، وبصر ببواطن الضعف ، ونفاذ الى مواطن القوة .

والماضى فى الأمم العريقة ليس للنسيان او العدم او حتى التشدق الأجوف به ، ولكنه سجل للتجارب والانتصارات أصـــلح مايمكن لأن يكون قاعدة انطلاق اشد قوة ومضاء .

وقد فطن الشعب المصرى الى وجوب استبطان ذاته من حـين الى آخر ، وخاصة فى هذا القرن ، فكتب الاستاذ صبحى وحيدة ، كتابه (فى اصول المســألة المصرية) ، وكتب الأستاذ حافظ رمضان كتـــابه : (ابو الهول قال لى) ، وكتب الدكتور حسين فوزى كتابه (ســندباد مصر) .. وكلها تحكى قصة الشعب المصرى مـع أعدائه وموقفه منهم فهى صفحات مليئة روية من تاريخ هذا الشعب ومقاومته الموصولة .. كما كتب الدكتور جمال حمدان عن شخصية مصر (دراسة فى عبقرية المكان .)

ولكنى اقف هذا الكتاب على «شـــخصية» الشـــعب المصرى .. (شخصية مصر) وعطائها الحضارى الباقى على طول العصـــور .. كل العصور .. عصور القوة وعصور الضعف السياسى بما لايترك مجـــالا للشك فى ان مصر اكدت شخصيتها من خلال الفن والعلم والروح والطابع مثلما اكدتها من خلال المقاومة الســافرة . وكثيرا ما فاق صنيعها فى الأولى عملها فى الثانية .

ومن عجيب أمر الشعب المصرى أن شخصيته القادرة عملت عملها فى ازماته ونكباته مالم تعمله شخصية اخرى لأمة من الأمم .

وهذا بعض الجديد فى الكتاب .

ونحن حين نعيش قصة مصر وما ادت فاننا لانأتى جديداً من كتابة الكاتبين فقد سبقتنا الامم الواعية الى بلورة شخصيتها بالقلم . فعلت هذا من الشرق الهند والصين ، ومن الغرب انجلترا وفرنسا والمانيا بل فعلته امريكا على يد «لنجفلو» و «أمرسن» على حداثة عهدها بالتاريخ والحضارة .

وبين يدى الآن من كتب الشخصية كتاب Portrait of England وهو مختارات من أقوال الكتاب والشعراء فيها
(An anthology) by Christian Mawson

وكتاب The Story of England by Arthur Bryant

وكتاب (الشخصية الامريكية) الفه د. و . بروجانD.W. Brogan الذى كتب فى هذا الاتجاه كتابين آخرين هما :
The English People (1943)

وكتاب French Personalities and Problems

ومن كتب الشخصية كتاب فاليرى Valari عن فرنسا فى ترجمته الانجليزية : Reflections on the World Today الذى تكلم فيه ،فى حب ،عن فرنسامحللا الشخصية الفرنسية وعمل البيئة فى الأمة وظاهرة التكامل فى فرنسا والهارمونى فى الطبيعة الفرنسية بين السهول والجبال .. كما تكلم عن سيادة اللغة الفرنسية وعن باريس وكيف تمثل الروح الفرنسية والطابع الفرنسى والذوق الفرنسى .

وتحت عينى من بين الكتب التى عالجت شخصية أقوامها كتاب The German Mind and Outlook الذى يحلل الشخصية الالمانية متناولا بيئة المانيا الجغرافية والعهود السياسة فى المانيا ومزايا اللغة الألمانية ونعرة الجنس الآرى وامتيازه وافكار نيتشه وفلسفة شبلنجر وفلسفة توماس مان وكاستنر وفلسفة النازية . وحين تحدث هذا الكتاب عن المانيا تحدث لودفج Ludwig عن (الالمان) فى كتابه : The German ففى هذا الكتاب كتب لودفج تاريخ الالمان فى ألفى سنة مفسرا الاعمال والاحداث من خلال الشخصية الالمانية واسلوبها فى الشعور ، والروح الالمانية التى تعرضت بقسوة للتصدع والشقاق وظلت كما هى خلال العصور .

وكتاب My India My West لمؤلف Krishnalal Schridharani تحدث فيه مؤلفه عن الهند قديما وحديثا .. تحدث فيه عن غاندى ونهرو وتاجور .. تحدث عن معركة الهند .. عن جيرانها .. وعن اصدقائها .

ومن اعمق الكتب واكثرها متعة فى موضوع الشخصية كتاب My Country and My People تحدث فيه الكاتب الصينى عن العقلية الصينية من حيث الذكاء والمنطق والخيال . وتكلم عن الخلق الصينى بما فيه من صفات الصبر والرضا والفكاهة .

تكلم عن ايديولوجية الحياة وانسانية الصين والدين عندهم ..

وتكلم عن المراة ، والبيت والزواج ، ومثالية الانوثة وتعليم البنات، والحب والدماثة .

تكلم عن الحياة الاجتماعية والسياسية .. عن الحياة الاسرية .. عن الطبقات الاجتماعية .. عن عالم المرأة وعالم الرجل .

تكلم عن الحياة الأدبية والحياة الجامعية والحياة الفنية .

تكلم فى اصالة وعذوبة عن فن الحياة .. نعمة الحياة .

ثم تكلم فى نهاية الكتاب عن الحرب اليابانية الصينية وعن مستقبل الصين .

هذا مع نقد للحياة الامريكية وايديولوجيتها وعاداتها بالقياس الى الحياة الشرقية فى لماحية وحكمة وتعاطف الصينى الذى استقى من ثقافة العنصرين .

وهكذا يكتبون عن اوطانهم بلا عقد ولا خوف أو اتهام بالاقليمية كأن الاقليمية فى حد ذاتها جريمة .. او كأن الانسان لايستطيع أن يتعاون مع جيرانه الا اذا أنكر نفسه أو أفناها مجاملة أو مسايرة أو غير هذا من مقاصد بقصد أو غير قصد .

ونحن بعد المحن بحاجة الى : اعادة بناء الشخصية المصرية عن طريق :

اعادة تفسير التاريخ فان التبعية والذيلية فى فهم التاريخ اسر علينا أن نتحرر منه .. لابد من تفسير جديد من اجل أمل .. من اجل مستقبل جديد .

To: www.al-mostafa.com

ان التاريخ داخلنا لانه نسيج شخصيتنا ونحن حين نقرؤه ، انما نتعرف الى شخصياته داخلنا او نتعرف الى انفسنا ذاتها .. ومن هنا يجب أن يكون تدريس التاريخ (فنا) ويكون تلقيه رحلة فى الحياة ماضيها وانجازاتها .. لا نقف عند مآسيه وحدها التى هى فشل الانسان ولكن عند افراحه أيضا فهى حصاد السنين .

كان فرويد يرى فى الحلم دلالة على الماضى .

حين كان يونج يرى فى الحلم دلالة على المستقبل .

ورؤية المعنى فى التاريخ دلالة على المستقبل ونوعيته من خلال الماضى ..

ان وعى التاريخ ليس اجترار الماضى .. انها **معاصرة واستجماع** لانطلاق .

أن العالم فى معمله الذى يقاوم المجاعة التى تهدد العالم يؤدى صلاة استسقاء عصرية .

اليست معاصرة **معمقة** ان يعى الانسان التاريخ ؟

يجب أن ندرس مع العلوم ، تاريخ العلوم ونربطها بالانسان ... اثرها فيه ، وخلفيتها وراءه ... وهو ما لم نفعله فى المدرسة المصرية والعربية الى اليوم .

هل هناك مسئول واحد عن الصدع الذى حدث فى الشخصية المصرية ؟

المدرسة المصرية آفة من آفات الشخصية المصرية .

والمراة المصرية مسئولة بالدرجة الاولى عما نحن فيه ، انها مسئولة حتى عن اخطاء الرجل المصرى لأنه كان ابنا لها يوما ما ، فلم تشكله الا على هذه الصورة .

كيف تعلم المدرسة المصرية اليوم ، التاريخ ؟ ماذا تقول ؟ مدائح ملوكية كالأدب العربى .... هل نعرف او يعرف أولادنا شيئا عن **دور الشعب فى صنع التاريخ** : اعفيكم من الجواب فانى أعرفه .. لقد حدثونا وأفاضوا عن أبطال الحروب أى الذين قتلوا أكثر ... ، والملوك الكرام الذين رعوا العلم والعلماء ... رعاة العلم هؤلاء صادروا أيضا

الراى الحر ، ورموا أصحابه فى غيابات السجون .. بل حرقوا قـرى بأكملها لتنزل على رأيهم .

لا تأتمنوا القاب التاريخ فكم من « مأمون » فيه غير مأمون ...

ولامر ما فضـل أرسـطو ، الشـعر ، على التاريخ .. ان كذبه التخيلى ، هو على الأقل رؤية بعيدة ولا يقصد بها التحريف والتحيف .

ولأننا نلقن تاريخ مصر ولا نقرؤه ، اضعنا المفتاح .

هل نعرف ونحس ضمير مصر ؟

مصر الجغرافيا : الارض والنيل والصحراء .

مصر التاريخ : الزمن والاحداث والناس .

أما مصر المعنى فازوريس واخناتون وأنطونيوس وذو النـون وابن الفارض .

هؤلاء هم ضمير مصر .. معالم من معالمها ...

والمدرسة المصرية تبتدىء وتعيد فى الفخر والمدح .. فى الحفريات . وعندما ثرنا على الأزهر فى فترة تجمده ، أخذنا بالتعليم الحديث تاركين الجذور فطلع لنا ومنـا جيل (زينه) جيـل زهرية يذبل سريعا لأنـه لايضرب فى باطن الارض .

الآن نروم تكاملا بين جيلين اى ارتبـاطا بين الثقـافة القـديمة والحديثة فى محاولة اعادة بناء الشـخصية المصرية فى صـورة جديدة قديمة عفية وفتية .. ثرية وسرية .

ان التحـرير المعنوى غير احياء التـراث فان مجهود العلماء على اختلاف جنسياتهم اكبر من جهود أصحاب التراث انفسـهم .

التحـرير المعنـوى مع اسـتيعاب التراث يعين على اعـادة بناء الشخصية وحمل امانة التاريخ والمضى بالماضى خطوة الى الأمام . فمصر الحضارة + مصر المسيحية + مصر الاسلامية + الحرية جهاد يستضىء بوحى هذه القيم الأربعة ليولـد الجـديد فى عمليـة نـزوع الى المثل الأعلى ...

يتمثل هذا فى المسلة والمئذنة . فالمسـلة اسـتقامة صريحة حين خلصت لهم الحياة فى واديهم . فلما ولدت المئذنة القاهرية فى ظلال سيوف

الحروب الصليبية بدت للعين فى عمارتها مجاهده من المربع الى المثمن الى الاسطوانة الى الخلوص الأخير الذى ينتهى بالهلال رمز الأمل والنماء والميلاد .

ما احوجنا الى قراءة التراث قراءة جديدة .

كان جيته يقول (انت لا ترث حقا ميراثك الا اذا كسبته من جديد) ....

السنا فقراء مع اننا نملك اغنى تراث فى الدنيا لأننا لانعرفه ... لا نعيشه ؟

ليس عندنا حلم ثقافى على الرغم من وجود الجامعات وتعددها . فالتراث ، حفظه فى مفهومنا ، معناه تجميعه وتشوينه مع أن الحفاظ عليه يعنى **تفهمه وذكره واستلهامه** . ان حياة العلم مذاكرته ... يروى الغزالى أن احد الصحابه قال يوم مات عمر .. اليوم مات $\frac{9}{10}$ العلم ولم يكتب عمر كتابا ولم يكن استاذا فى جامعة ولكن العلم سكن قلبه حين كانت عنده الرؤية الاسلامية الحقيقية .

وبعض التراث ، التقاليد .

والتقاليد ليست التقليد ولا هى منه . وليست الجمود كما يفهمها العامة ... والعامة هنا هم فقراء الفكر . ولكن التقاليد عند الخاصة ، وهم هنا اثرياء الفكر لا المال ، **وثبات الاجيال وعطاؤها** .. انها منطلق لكل جديد متطور نام .

ان **الشخصية** ان لم تكن متجددة نامية غدت قاعدة وقيدا .

والذكى والوطنى معا من يعرف كيف يتواصل مع التقاليد الأصيلة .. مع التراث الحقيقى فى جوهره ... ثم الانطلاق منها عفيا قويا ... مصريا جديرا بهذا الاسم الكريم .

تكوين مصر

- النــــيل
- الإنسان والمكان "مصر والزراعة"
- علمت الزراعة المصري كيف يصنع

النيل

مصر ذات البحرين وبنت القارتين فهى صدر أفريقيا ، وهى بسينا طرف فى آسيا . وهى بساحلها الشمالى تطل على أوربا . حين تتلمس روسيا منفذا على البحر، يقف البحر الأحمر على يمين مصر ويقف البحر الابيض فى شمالها ويتربع النيل فى قلبها حبها الكبير وحبنا الكبير .

« فلته جغرافية » .

هذه مصر قلب العالم جغرافيا ، وقبلته تاريخيا وحضاريا .

وتجاوب الانسان المصرى مع المكان والزمان .

كان عليه الكثير ليفعله .

وادرك هذا منذ البداية بذكاء فطرى وفطرة ملهمه .

بدأ .

قبل التاريخ .

وكانت رحلة طويلة مثيرة .

اكثر من عقدة واكثر من بطل فيها .

وتعددت الفصول ومازالت احداثها تجرى وتؤثر فى العالم كله ...

الآن كالأمس .

والى آخر الزمان .

ان رحلة مصر الطويلة بدات قبل بناء الأهرام بألوف السنين . نستطيع فى المتحف المصرى أن نتابع هذه الرحلة خطوة خطوة ..

هناك فى المتحف ، لا فى الكتب ، نستطيع أن نرى تاريخ مصر وهو ينسج خيطا خيطا . هذا التاريخ يبدأ من قاعة العصر الحجرى حيث نجد الأوانى الجميلة المتعددة دليل تعدد وجوه الاستعمال وهى دلالة حضارية .

ونجد وسائل الحياة اليومية مصنوعة فى دقة وجمال . نجد ابرة الخياطة .. ونجد الودع يستعمل نقودا ونجد الخرز ألوانا وعقودا . .... نجد وسائل الزينه .. نجد المشط ينتهى أعلاه على شكل غزاله !

اذن ارتفعت مصر فى هـذا العصر السحيق ، على الضرورة وتجاوزتها الى مرحلة الترف والتأنق الحضارى .

وسبق هذا بالطبع ألوف السنين فى عملية تحضير وسعى . ان السعى الحضارى المحسوب لمصر أو الذى يجب أن يحسب لها يبلغ عشرين ألف سنة .

بدأت رحلة مصر الحضارية فى الصحراء قبل العصر الحجرى حين كانت الصحراء مسقط الأمطار ... ثم انتقل العمار الى الوادى بعد ان جفت الصحراء ... فشب الصراع بين سيت واوزوريس . اى بين الجدب والخصب أو بين الحق والباطل .

على هذا المكان ، نشأت ، قبل مينا ، ملحمه تاريخية من الجهاد الحضارى رائعة . لقد تضافر النيل والانسان المصرى على اخراج هذه الملحمة . فهناك دالات انهار ولكن الأنهار ودالاتها فى غير مصر لم تخلق الحضارة بمستوى هذا الخلق .

وأهم من هذا **لم تتواصل فيها الحضارة بغير انقطاع** كما حدث فى مصر .

حضر النيل ، المسرح ، للحضارة .

ووعى الانسان المصرى الدرس ومضمونه قيمتان كبيرتان :

* الكل فى واحد اى التعاون

** العمل أى الكفاح لدرء خطر الفيضان .

هنا فى هذا المكان جمع الانسان المصرى نفسه فى وحدة حضارية مستمعا الى نداء النيل الذى جمع نفسه من أنهار .

ومن هنا ندرك سر مصر الذى يكمن فى **الادارة والتوحد** • الادارة

التى ضبطت النهر ، والتوحد الذى صنع منا امة تزرع وتبنى وتخلق الحضارة .

ولهذا تتاخر مصر عندما تتفرق أو تسوء الادارة فيها .

واستمع المصرى الى نداء النيل مرة أخرى حين رآه يكون الدلتا عاما بعد عام .كان أمامه البحر فأخذ يرسب فيه ،وفى اصرار ،فيتراجع البحر كل عام حتى وقف عند موقعه الحالى .

واستوعب المصرى الدرس ووعاه .

وأصبح العمل الدؤوب ، علامة عليه .

واصبح الصبر قدرة لديه .

والايمان الراسخ رصيد فى قلبه ، وكنز مكنون .

وهذا سر امتصاصه للمحن .

وقهره للصعب

واستعلائه على الاحداث .

ووثوقه بالله .

ويقينه فى النصر .. فى النهاية .

قبل الهرم بل قبل مينا ، كانت مصر تشبه منطقة بحر الجبل وبحر الزراف اللتين حدثونا عنهما فى الجغرافيا .

حولت مصر المستنقعات واحراش البردى الى جنة خضراء . وهو **منجز حضارى لا يقل عن بناء الأهرام** فى دلالته على طاقة القدرة والارادة والبناء .. ولكن **مصر من كثرة معجزاتها . غدت المعجزات فيها بلا علامة** .. بلا مفاجأة .

***

« مصر هبة النيل » .

ثلاث كلمات تتردد كثيرا على الألسنه ، وعلى صفحات الكتب منذ قالها هيرودوت .

لقد أعطى النيل لمصر الكثير .. وعلمها الكثير ولكن **مصر هبة النيل وهبة الانسان المصرى** وثمرة جهوده الموصوله الطموح . فهناك انهار

اخرى لم تقم فى وديانها ما قام فى مصر من حضارة متفوقة متالقه باقية على الأيام . اقولها واكررها .

لقد استجاب الانسان المصرى لصرامة التحدى .. تلك الاستجابة التى اضـفت على تاريخ مصر وشخصـيتها دلالتها الحقيقية حتى قال الدارسون فى اكبار :

(اذن البيئة ليست السبب الوحيد الذى تتولد عنه الحضارة) .

انها همة الانسان المصرى .

النيل والأرض .

لقد ملأ النهر العظيم دنيا المصريين ٠٠ عرفوه منعما يحيى الأنفس والثمرات ٠٠٠ رأوه فضـة مذابة بين الجانبين ، وراوه جنات خضراء على الضـفتين ، وراوه ذهبا براقا فى حقولهم قمحا وشـعيرا وخيرات اخرى .

تمثلوه فى الزهر ، وسـمعوه فى الطير فجنوا بحبه حتى عبدوه ، او عبدوا الاله من خلاله فكانت صلاة اخناتون حمدا عميقا لله يحـدث بنعمة النيل .

لقد ازدهى أحد الفراعنة الاعجاب والعجب فهتف مزهوا يعلن فى كهنته حدود مصر ، وقد رسمها متصورا النيل **فالأرض المشمولة بفيضه هى مصر** . وكل انسان يشرب منه تحت جزر الفنتين انما هو مصرى .

وأحبوا حياتهم معه فكرهوا الموت . وانكروا ان يحول بينهم وبين النيل فقالوا بالبعث والخلود والحياة الأخرى . ورسخت هذه العقيدة فى نفوسهم فراحوا ينقشون على جدران مقابرهم صور العيش فى واديه من مناظر الزرع والحصاد والرعى والصيد والمراكب والأزهار والعطور وكل ما وهبه النيل الوهوب ، مصر .

واقترن فى اذهانهم عقيدة الحياة الأخرى بالثواب والعقاب والجنة والنار ... والخير والشر ....

والاحساس بهذا كله هو بعينه **الضمير** .

علمهم النيل ، الـدين . فالمصرى يتضرع يوم الحسـاب فتكون وسيلته الشافعة انه لم يقطع (قناة) فى ممرها ، ولم يخالف نظام الرى، ولم يتلف الاراضى الزراعية . ويعد نفسه سعيدا لأنه قاس الفيضـان الذى يجعل مصر مخصبة بمحض الهبة الالهية .

ركزنا النيل حوله فعلمنا جمع الشمل . ان مصر (نيلية التركيز والاستقطاب) .

ولعل شعورنا العميق بوجوب التجمع والتوحد عند خطر فيضان النيل **هو سر الحيوية المصرية** التى تستيقظ فجأة عند الخطر حين لا تدل الدلائل على هذه اليقظة قبل وقوعها .

علمهم النيل القياس والحساب ففى سبيل تقسيم الحقول على جانبى النيل بالقنوات ، اخترعوا القدم والذراع بل اخترعوا النظام العشرى .

ومن اجل النيل **اقاموا المراصد والحواجز والسدود** بل كتبوا .

ولما علمهم النيل الكتابة ، تعلموا التلوين .

وغرين النيل قام منه اول بناء كان اساسا لفن العمارة الذى تطور مع العصور واستبدل بالغرين ، الحجر والمواد الأخرى .

ومن غرير النيل **قامت صناعة الفخار** الذى تطور مع الزمن واتخذ مكانه بين التحف الجميلة .

واتخذ المثال المصرى ، النيل ، وسيلة لنقل الأحجار الضخمة وبخاصة الجرانيت الذى شيدت منه آثار ضخمة .

وعلى النيل **قامت الاساطير المصرية القديمة** واهمها اسطورة ايزيس وأوزوريس .

واثر النيل فى الادب المصرى قديمه وحديثه فعليه ومنه وحوله دار الكثير من الحكم والأمثال والأغانى والمواويل والقصص بل **أوحى النيل الى غير المصريين فى اللغات الأخرى .**

لقد ذكر النيل فى القرآن وحده فى مقام الفخر وذكر وحده بلفظة الجمع (الأنهار) ولم يطلق على نهر اسم البحر غيره . وهو تكريم وتشريف . (اليس لى ملك مصر وهذه **الأنهار** تجرى من تحتى أفلا تبصرون) .

علمهم التطلع الى السماء ومراقبة الأفلاك واذ قرنوا بشائر الفيضان بظهور لنجمه الشعرى اليمانية فى غربه السماء المصرية ، كان هذا **نواة علمهم بالفلك .**

من اجله قسموا الزمن الى أيام وشهور .

وقسموا السنة الى ثلاثة فصول : **الجمال** وهو الفيضان ولهذا كانت بداية السنة عندهم ١١ سبتمبر والنيل من الفيضان ملك .. **والخير** والعطاء وهو البذر والحياة **أى الحصاد** الجنى .. ووضعوا **التقويم الشمسى** واهدوه للدنيا . ولا تزال تسير عليه الى اليوم .

وتعلمت مصر من النيل الوفاء حين رأته يقبل عليها كل عام محملا بالخير فى موعد رصدته . ومنذ ذلك التاريخ ووفاؤها الأكبر للنيل حتى اذا اضطرت سنوحى ظروفه للرحيل عنه . ووافته ، فى البعد ، الدنيا بحلاها وغناها فلم تغن عنه شيئا . ويطرق فى سهمه اذ يغشاه ذكرى حبيبة ، ويرهق قلبه اذ يتجسم له الحرمان منها فى الحياة وبعد الحياة (فهو يخشى) أن يموت بعيدا عن مصر فيدفن فى غير ترابها ، ويغسل بغير مائها ، ويكفن فى غير نسيجها فباب الجنة لا يفتح له الاعند ضفاف النهر ، ورفاته مصيرها التلف والبلى اذا لم يغسل بماء النهر ، وأكفانه لن تكون من لباس أهل الجنة الا اذا كان نسيجها من الكتان الذى ينبت على ماء النهر .)

حتى البحر لا يرقى فى عين مصر ، عند المقارنة ، الى مقام النيل ... وهى لا تفعل هذا من باب الشعر وخيال العاطفة ولكن شاعرها القديم يقوله عالما بما فى أعماق البحر من كنوز .

(انه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس) .

يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحا ، وبالصحراء التى لا تؤوى طيرا ...

(وما دام الناس لا يأكلون اللازورد الحر ، فالشعير أحسن) .

فى بساطة وعمق .. فى صدق وحق أحبوه ونحبه من بعدهم ...

احب المصريون مصر النيل الى الحد الذى سموها (عين الله) ونحن نسميها (كنانة الله) . وكان المصريون القدماء يعتقدون أنها فى اعزاز الله لها ، فى كفة ، وسائر العالم فى الكفة الأخرى ولهذا **خلق نيلا لها وحدها** . ثم خلق نيلا آخر لسائر البلاد الاجنبية كما جاء فى نشيد اخناتون :

أنت الذى يعطى الحياة (ايضا) لكل البلاد الاجنبية البعيدة .

لانك خلقت نيلا فى السماء (المقصود المطر)

لينزل من اجلهم ويحدث امواجا فوق الجبال ،

مثل امواج البحر .
لتروى حقولهم التى فى قراهم .
ما اجمل اعمالك يارب الأبدية .
فالنيل الذى فى السماء خلقته للأجانب .
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام .
اما النيل (الحقيقى) فانه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .

بل بلغ اعتدادهم بمصرهم ونيلهم حدا جعل البطل تحوتمس صاحب اول امبراطورية فى التاريخ يقول بعد أن انتصر فى موقعة (مجدو) وقد راى دجله والفرات عند منبعيهما فى الشمال :

(المياه التى تجرى فى اتجاه خاطىء)

ان البطل يجرى نيله من الجنوب الى الشمال فكل ما عداه خاطىء .

انه زهو البطولة وعز الانتماء .

حتى الشمس فى عين المصريين لا تكون دائما فى غير مصر ، مثلها فى مصر توهجا ووضاءة كما حكوا عن الرحالة المصريين .

ومن الطريف اننا اليوم ، فى حياتنا اليومية ، اذا اردنا تهوين شىء او تصغيره قلنا على سبيل السخرية (يعنى هو البحر هيجرى مقبل) لأن النيل يجرى شمالا .

فتغيير النيل مجراه هو الوحيد ، الحادث الذى يهزنا . أما ماعداه فامره سهل .

انه تفكيرنا او احساسنا به منذ عهد تحوتمس الى يومنا هذا .

وتعلمت مصر من النيل **التعاون والنظام** عندما انتظمنا على شاطئه لاقامة الجسور عليه أو تكاتفنا فى الفيضانات العالية لدرء الخطر عن الوادى . والفلاحون يسمون (السخرة) من أجله (العونه) . والتشريع المصرى ينص على أن النيل اذا بلغ أربعة وعشرين ذراعا أصبح لزاما على كل مصرى من أى طبقة **العمل** على حماية البلاد من فيضه .

وتعلمت مصر من النيل نظام الحكم فان وجوده تطلب حكومه قويه لتنظيم الرى .

لقد كيف النيل تخطيط المدينة المصرية فاذا تتبعنا الخرائط

التفصيلية للمدن المصرية النهرية ، وجدنا اغلبها كما يقول الدكتور جمال حمدان (يجنح الى الاستطالة ، احيانا الى حد الانسياح والتفلطح ، لكى تفيد الى اقصى حد من الجبهه المائية على النيل . وهذا امر بديهى ، ولا شذوذ عنه الا نادرا ولظروف محلية خاصة ، غير ان الذى ليس ملحوظا بنفس الدرجه ان محور تلك الاستطاله يوجه فى معظم الاحيان بحسب اتجاه النهر فى موضع المدينة المعنية . وبعبارة اخرى فان توجيه امتداد مدننا يتحدد بموقعها من زهرة اللوتس الكبيرة التى هى شكل النهر ، حتى ليمكننا ان نتنبأ باتجاه امتداد أى منها بمجرد موقعها عليه) .

ولم يعط النيل ، مصر ، الماء ، فحسب بل اعطاها الارض أيضا بما يحمله معه من الطمى كل عام ويرسبه على جانبيه .

واذ فتح الانسان المصرى عينه وعقله على النهر المتدفق والارض السمراء ، لاح له خاطر ظل يخايله طيلة أشهر الفيضان حتى اذا انحسر الماء ، بدأ يزرع .. فبدأت صفحة جديدة .

الانسان والمكان
مصر والزراعة

فى بداية العصر الحجرى الحديث عرف أهالى مرمدة بنى سلامة والفيوم الزراعة فكانوا **اول زراع فى التاريخ** .

زرع الانسان المصرى فمر **بتجربة** .

بذر وسقى .. ثم جنى المحصول فحقق **الوفرة** .

وتعلم من هذا الكثير :

عرف ان **الجزاء على قدر الكفاح** والعمل لا الكسل .

وتعلم من الزراعة ، **التركيز** . ان التجذير فى عالم النبات اى ثبات الجذر وتمكينه لنفسه فى مكانه فيستوى على سوقه ويعجب الزراع .

اشارة لمحتها النفس المصرية الى ضرورة **الثبات والتركيز** . ان التقلبات لا تثير المصرى كثيرا . انه هو الباقى وكل العواصف تزول .. وسرعان ما غدا النبات أستاذ النفس المصرية ..

رات مصر النبات متجددا ابدا فالهمها **فكرة الاستمرار** لماذا لا تتجدد النفس المصرية هى الأخرى ؟ وانغرس فى طبع مصر **استمراء العمل** فى اتصال ووصال .

رات مصر النبات لا يرد اذى .. تجرحه فيداوى جرحه وينمو .. تقطعه فينمو من جديد وكأنه غفر الاساءة فتعلمت **السماحة والطيبة والودادة والاستعلاء على المحنة** ، لتحيا ، ...

قد تشقى مصر ولكن تشفى .

وقد تمرض ولكن لا تموت .

تعلمت مصر من الزراعة **الصبر** .

وتعلمت **النضج المشغول على مهل** من البـذر والسـقى وانتظار الثمرة .

تعلمت مصر من الزراعة **الرسم والتلوين** .

وتعلمت مصر من الزراعة **الحرية** لأن الزراعة معنـاها الفـائض الذى يحرر الانسان من معدته ليتفرغ لأعمال أخرى . فهى مرحلة بعد الصيد الذى يغطى يوما واحدا فحسب .

تعلمت مصر من الزراعة ، بمراحلها الشاقة ، **العمل** .

اقتحمت مصر بالزراعة العقبة .

تحررت مصر من الخوف .. ومن الحاجة حين منحهـا النيـل والوادى ، الرخاء المادى فطعم المصريون واطعموا ..

اكتسبوا **الرخاء النفسى .. اقتحموا العقبة** والعقبة هى الحـائل بين الانسان والسعادة اى **العمل** .. وفى اللفظ الذى استخدمته الآية الـكريمة (فلا أقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة . فك رقبـة . أو اطعام فى يوم ذى مسغبة) .

فى اللفظ (اقتحم) معاناة ومجاهدة ومعركة ومن هنا نقدر السفر الطويل الذى قام به القلب المصرى فى عملية خلق الحضارة بما يتطلبه هذا الخلق من حس مرهف ووعى نبيـل ورغبة حميمة فى الانتصـار ، وحنين الى النمو والارتقاء يغدو طبعا وطابعا .

وتتألق شخصية مصر .

شخصية ولوع بالولادة والتوليد .

شـخصية فيها نـزوع الى الملاسـة والسـلاسة فى همس يبلغ بالخفوت قوة التوثيق .

شخصية فيها حنان فى حنايا الأعمدة وعروق النبات ، ونمنمة فى الفن الاسلامى المصرى فاذا بالتشابه والتشابك ليس بينهما فراق او شقاق .

شخصية فى قلبها سعة يوحيها التقسيم .

ودعة يهديها صبر طويل ورحيم .

شخصية فيها ثراء البساطة وزهد الغنى وجلال التواضع من طول العهد بالوفرة والكثرة ..

وسكينة من مسالمة وسلام .

وبالعمل والنمو والسلامية والسماحة تهيأت مصر لأفق المعنى .

اعطتها **الوفرة نعيم الاحساس وطمأنينة الرضا** فشكرت ..
واعطتها الوقت فتأملت ..

ومن احساس الشكر ومداومة التأمل **اهتدت الى المنعم خطوة خطوة** ، من خلال المحسوسات شهدت الصانع فى اعماله .. ثم وصل بها النضج الى **التجريد** كما فعل العظيم اخناتون .. بل أن مصر ، قبل اخناتون ، تصورت الاله فى روعة فائقة ..

واذ تطلعت مصر الى الله ، اشرق عليها نوره وبارك لها فى الرزق وازدهرالوادى وطابت فيه جنات وعيون فتفيأت مصر الظلال واستافت العبير ، وطربت للخرير فغنت وترنمت بل استوحت الشعر ، وانطبعت على النغم اذاغنت أو تكلمت . ومن هنا حبها للطرب والتطريب . ومن هنا عذوبة اللهجة المصرية .

هنا على هذه الأرض نضج **الانسان**

والنضج وعى

والوعى سعى

انه **تحريك القوى فى كل مجال** .

وهذا بعينه ما حدث فى مصر .

من الناس من يتهمون الزراعة بأنها لا تدقق فى الوقت . ولكن مصر الزراعية لو كانت لا تدقق فى الزمن لما أثمرت حضارة مصر هذا الطرح المختلف الألوان من الانجازات الرائعة مما لا يمكن تحقيقه فى استرخاء ووقت ضائع .

عرفت مصر القيم .

ان همس النبات فى نشاته الأولى وما يبثه حوله من أمان ، كان له اثره فى الأنس الرفيق فى الانسان المصرى الذى يصفه الدكتور أحمد

امين من خلال وصفه لابن البلد فى كتابه (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية) .

الانسان المصرى الذى يحب الزينة والمتعة والجمال ... يعيشه، ويوفره لنفسه ما استطاع .. حتى القلة فيها نعناع أخضر .

حتى ماء الشرب فيه ورد .. فهو ماء ورد أو ماء بالورد .

الانسان المصرى يحب الطرب والسماع .. من النعيم الطويل فى الحضارة .

انسان لطيف انيس كالنبات

خصيب كالوادى الأخضر

انسان ابن طبيعته ..

والطبيعة المصرية ليس فيها قسوة .

الطبيعة المصرية لا تعرف الزلازل والبراكين والعواصف .

حتى الصحراء المصرية فيها وداعة تبدد الوحشة .

وسرى لطف الطبيعة المصرية ورقتها الى الانسان المصرى فكان عذبا ودودا كريما لأنه ابن خير يأتى المصريين غدقا ، وهم بما عندهم يغدقون .

ان الحنو والتراحم فى النفس المصرية يتبدى فى الحديث رقة ، وفى الشعر المصرى القديم دماثة وسلاسة ، وفى النمنمة المصرية الاسلامية دقة ، وفى الأسطورة المصرية وفاء وعطاء .. فنجد فيها (القربة) التى يسقى منها صاحبها ولا تفرغ كما تحكى لنا جداتنا .

وابن البلد هذا يسمى (الذوق) وأحيانا يسمونه (ابن الذوق) .

وقد عرف المرحوم قاسم أمين الذوق السليم بأنه الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه الى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ، ويتجنب مالا يناسبه . والمصريون يعتقدون ان مصر أم الدنيا وأم الذوق أيضا ولهذا يقولون :

دا اللى عمل مصر كان فى الأصل حلوانى .

ويقولون : الذوق ما فاتش باب النصر .

ويروون فى هذا قصة طريفة يرويها بدوره الدكتور احمد امين .

تقـول القصة ان رجلا كان اسـمه « الذوق » كان فى منتهى الظرف والكياسة واللباقة .. كريما رقيق الحس والشعور .. غاضبه يوما بعض الناس فعزم على الرحلة من مصر . فلما وصل الى «باب الفتوح» مات هناك وما يزال قبره فى هذا المكان الى الآن .. ويعرف ضريحه « بسيدى الذوق » .

ومن اجل هذا قالوا : الذوق لم يخرج من مصر .
كان يموت فيها حيا
وقدر له أن يموت بها راحلا ..
غلاب هواك يا حبيبه .
يأسر القلب والروح معا .
غلاب .

علم النبات الانسان المصرى صناعة **الحصير** فقد ادرك أن النبات عندما يجف يستطيع أن يقيم منه جدارا أو وثارا

فالحصير نسيج نباتى عرفته مصر قبل التاريخ ويبدو انه منذ ذلك اليوم البعيد ومصر لها (نفس) فى النسيج الذى يعد صناعتها الكبرى اليوم .

علمت الزراعة مصر ، **الامتداد** والاستشراف الى اعلى كنخلة النيل .

وعندما زرعوا استقروا .. وعندما شعروا بالاستقرار عبروا عنه معماريا فى الأعمدة الضخمة الثابتة فى الأرض الممتدة فى السماء كالنخيل حولهم .

ان الفن المصرى فيه رؤية نباتية

فالفنان يجعل أعلى العمود حزاما وكأنه يحزم ادراك المشاهد فى عملية تركيز للتأمل وكأنه يحزم سعف النخلة لتفسخ للرؤية رحابة السماء . اما السقف العريض للعمود فهو يمثل شواشى البوص .

وهذا هو الفرق بين الفن والبدعة . فالخلق الرصين **امتداد واع لأصل عزيز** يراعى الفنان الحفاظ عليه فى شعور حساس بالتواصل والتلاحم فى عملية صيانة للنفس وسلامة نموها .. أما البدعة فهوس مفاجىء .

وعلمت الزراعة مصر ، **الفضيلة** فبدون الوفرة يتهدد الجوع الأخلاق .

ان المجاعة الحديثة مؤشر الى ان الزراعة هى موضوع المستقبل كما كانت موضوع الماضى .

لقد ظمىء الانسان منذ بدء الخليقة الى اثنين :

الحب والرى (أى الماء والطعام) .

وعلى هذا الظمأ ولد الفن خطوطا فى الكهوف ، وتعاويذ للسحر . ونما الفن بنمو الزراعة فتألق فى الاناء ، وتأنق فى الحلى ثم فى وسائل الحياة اليومية .

والأواني المصرية ما قبل الأسرات فيها حس له روعة خاصة .. فيها العطاء الناضج لفن الاناء . فيها القلب البشرى ينبض لم يلحقه بعد ، سأم آخر الحضارات .

الاناء المصرى من باكورة معطيات الزراعة المصرية . وهو مستودع الصمت .. ولهذا يعرف الأدب الشعبى المصرى ، الايجاز مع وفاء المعنى بقوله : (**كلمة ورد غطاها**) مستوحيا الاناء وغطاءه المحكم الذى يرد على القاعدة فى تمام انيق .

وهذا أبلغ من البلاغة المدرسية التى تعرف البلاغة بأنها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) .. وهذا عمل مخبرين لا فن فيه .

يكفي على الخبر ماجور

غطاء آخر محكم من عالم الاناء .

وتعلمت مصر من وادى النبات ، **البذل والعطاء**

— اللقمة الهنية تكفى ميه

— لاقينى ولا تغدينى

عطاء الطعام وعطاء الوجه

وكلاهما يؤلف القلوب ويزرع الحب وينميه لهذا **عاشت مصر عائلة متحابة** .

لا يقول شعب مثـل هذين المثلين الا اذا كان يستشعـــر جو الأسرة ..
يستنشقه هواء يعيش عليه .

هذا هو الشعب المصرى او هذه هى طبيعة البلد ...

اناء واسع للماء الكل يشرب منه هو : **النيل**

ومائده واحده الكل يطعم منها هى : **الوادى**

ـ يا نعيش سوا يا نموت سوا

من تعلقنا بالمركب تعلقا شديدا ، قلنا هـذا المثـل . والمركب فى مصر محبه بما تربط بينها وبين النيل . والمركب لا تتحرك براكب واحد .. ان ركابها جمع يلتقون فى الرحلة والمصير . يصلون ســالمين الى الشاطىء او يغرقون .

وانتقل المثل من المركب الى الحيــاة ففهموا معنى **الوحدة وروح الفريق** ..

وتواصوا وتواصلوا فاستمرت الحضارة المصرية بغير انقطاع لأن العمل كان امانة تربط جيلا بجيل وكأن مصر اسرة واحدة وان تعددت اسرات .

حتى الاناء المصرى يمثل الوحدة . فحين نجـد الاباء الفـارسى عبارة عن صور على الاناء نجد الاناء المصرى هو اللون والرسم . **وحدة** صفة مصر التقليدية .

الاناء والنسيج هواية مصر وفنها منذ العصر الحجرى .

ان الاعجاز معجزته جمع النفس حول مركز

والمصريون القـدماء عرفوا ان يجمعوا أنفسهم جميعا حول مركز لا فرد فحسب .

ان الزعامة لمة الشتات .

تعلمت مصر من الزراعة : **الحب**

فالمصريون احبـوا كل شىء حولهم : النيـــل والمركب والأرض والسماء .. النبات والحيوان فغنى لهم الشجر ، وسهر معهم القمر ، واعطاهم النيل الخير كله .. فعاشوا اى عرفوا **كيف** الحياة لا كمها .. وابدعوا الفن واعطوا بدورهم الحضارة .

احب المصرى القديم الأرض حبا جما حتى جعلت اغانيه شجرة الجميز تنادى المحبين :

(تعالوا الى فانا لا اقول ما ارى ولا احب الثرثرة) هل سمعها حقيقة أو أحبها فشبه له .

وكم فى مصر القديمة من اغان للزراعة والحصاد .

على كل حال لقد علمت شجرة الجميز ، المصرى القديم **الصمت والهدوء** لأن الشجر يعمل وينمو ويعطى عطاءه فى غير ضجيج .

وأقول علمت الزراعة ، **الصمت** ، المصرى القديم ..

حتى فى الغزل يصف المحب حبيبته بقوله : (حلوة الشفتين عندما تنطق بهما لا تنبس بكلمة فضول) .

بينما المصرى الحديث يحدث ضجة كبيرة اذا عمل عملا أو حتى اذا صمت .. ومن الناس من يصمتون بصوت عال .

ان الصمت درس مصر الكبير • ومن الأدب المصرى فى مخاطبة الاله :

انه انت الينبوع العذب
الذى يروى الظمأ فى الصحراء
مفرح **لمن يلوذ بالصمت**

لقد جعل الله الصمت فى المسيحية برهانا على رسالته ومعجزة لعيسى عليه السلام اذ قال (رب اجعل لى آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) .

ان الالهام الفطرى مدد من روح الله .

احببت مصر الأرض حب من يغالى بحبه ويعزو اليها الخير كله .

حين حضر المأمون الى مصر اصرت سيدة فى احدى قرى صعيد مصر ان يزورها فلما فعل قدمت اليه الطعام فى صحاف من الذهب غطاؤها من الذهب ايضا .. فذهل الخليفة وقال لها :

ــ من اين لك هذا ؟

فحنت على الأرض وقبست حفنة من ترابها وقالت : هذا من هذا .

لا ادرى ان كان ضيفها فهم عنها اشارتها الذكية أم لا ولكنها أدت .

ــ انه تراب مصر الذى بورك فيه •

وحين زرعت مصر **احبت الطبيعة ووصلت بين الانســان المصرى وبينها** . احبت ارض الخير فاغلت ثمنها وسجلتها . وفى سقارة حجة مسجلة للارض من الدولة القديمة .

وفى الدولة الحديثة نسختين من حجة واخدة .

والوصف عندهم يحدد القبلى والبحرى والغربى والشرقى .

ان ارضية الهرم مستوية استواء تاما دليل معرفتهم بالمناسيب .

ويتجلى علمهم بعلوم الأرض فى مقاييس النيل .

وتوجــد بين قفط والقصـــير **اقدم خريطة جيولوجية ومعــدنية معروفة فى العالم** تبين الوديان ومواضع الآبار ومواضع مناجم الذهب.

ومن الحب ، العلم .

ان الهتاف وطنية البســطاء ، ولكن الوطنية الحقة علم بالوطن ، واضافة اليه ، ووعى به ، وتجاوب معه فى الشدة والرخاء على السواء .

ان تمثال خفرع المنحوت من الديوريت مأخوذ من منطقة تبعــد عن (ابو سمبل) فى الصحراء الغربية عدة كيلو مترات .

ما دلالة هذا ؟

علم بطبقات الأرض وابعــاد المكان ثم طاقة الارادة على بلوغه ، وطاقة القدرة فى استعماله .

لقــد اســتخرج المصريون القدماء البللور الصخرى وعائلتــه من عقيق يمانى وعين القط واماتست ، وصاغوا منها اجمل انواع الحلى فى العالم مما يعد نموذجا رفيعا الى الآن يســعى اليه للاقتباس منه ، صاغة العالم .

لقد انبتت الزراعة فى النفس المصرية **من المعانى اضعاف ما انبتت من حبوب .**

ان الزراعة هى صناعة العصر القديم .

ومصر الزراعية هى مصر الحضارة . .

وطرحها بعد هــذا فى الصناعة والعلم والفن والادب والدين انما هو فيوض من عالم النبات وعطاء .

وإذ عرفت مصر الزراعة عرفت **الاخضرار والازهار والازدهار** .. عرفت الخصوبة والنبض والقلق الخصب والانتظار لموعود والصبر الواثق .. من نشأة النبت من البذرة الصغيرة بمراحل نموها فى رفق وهوادة ، فأثر هذا الأسلوب فى فهم الحياة ورعاية ادراكه لها . وامرى ذلك الاسلوب : **البساطة .. والاكتمال .. والعمق .. عرفت النضارة** والغضارة والغندره .. **عرفت التفتح والعطاء** .. عرفت العمق كالجذور الضاربة فى الأرض ، **والارتفاع** كالجذوع الصاعدة فى السماء .. **عرفت الأعماق والأشواق** فارتفعت المسلات ثم المآذن استشرافا طموحا مايلبث ان يتجسد على الأرض عمائر ومنائر وعلوما وفنونا وحكمة **حتى الصخر تحول فى يد مصر الى حجر كريم** اذ نقشته ولونته وشحذته بالمعنى والرؤى فخف وشف وكاد يبين .

اتاحت الزراعة لمصر ان تتملى **رقة الفجر وطلعة النهار وفرحة النور** .. واذ تعلو الشمس فى السمت ، ويعمق الصمت، تتعلم النفس المصرية ارتفاع العظيم على اللغو ، وابداع الجميل فى الوهج ، وامتاع الغنى بالقيمة ، واتراع السخى بالعطاء .

اتاحت الزراعة لمصر ان تتملى رقة الفجر يغسل القلب من اتراحه، ويغمره بأفراحه ويهبه النقاء كقطرة ندى ، والهفهفة كنسمة شذا ، والرفرفة كعصفور هم بالتحليق ..

اتاحت الزراعة لمصر ان **تتعلم الكثير** واباحت الزراعة لمصر ان تشهد الصبح اذا تنفس فتسعد بيوم جديد وأمل وليد ورزق ونعمة .. **وتتعلم الحمد على المنة ، والشكر على العطية** . والشكر يستجلب الزيادة وما اكثر ما شكرت مصر بالعمل والصلاة وما اكثر ما زادها الله فضلا وفيوضا وتوفيقا وصدقا وتصديقا .

علمت الزراعة مصر التلوين بالنور والظلال ، والميل كالشمس نحو المغيب ، **والاعتدال** كالشمس فى رابعة النهار ووهج الظهيرة ..

علمت الزراعة مصر **مزج الألوان** كزهر الرياض وأفراح الأصيل.. علمتها **الدبيب** كالنبتة تخرج من الأرض ، **والوجيب** كالخفقة تختلج فى القلب .

علمتها **الهمس** كوشوشة الربيع للازهار ، **واللمس** كبسمة العين للنوار ...

علمتها **الراحة** بعد التعب كما يستريح النهار ويريح بعد يوم

مكدود وعمل مجهود ، **والاستروا حة** بعد الجد كما يستريح الليل والسمار واهل الهوى نسوا مواجعهم وفاتوا مضاجعهم ..

وياتى الفن المصرى فيعبر عن الحركة والسكون .. ويستقيم الخط ويستدير ويتأفق ويتراس . وينساب ويتحفظ وهو فى هذا كله يعبر عن اصحابه صناع النهار كما عبرت عنهم القصة والاسطورة ، والقصيدة والترتيلة ·· ويمد تراث مصر رواقه ·· ويوسع آفاقه حتى تغدو الحضارة له طبعا وطابعا .

وتمر السنون وتتعاقب الفصول الزراعية فيعرف الناس منها العدد بتلقين مصر التى **ابتدعت التقويم** وتغيب عنهم **حكمة** التغيير والتحوير والبقاء والفناء والعارض والدائم ... ويحكم الناس بالكم **وتحتكم مصر الى الكيف** .

وبعد الحضارة المصرية **يرفع** الغرب ناطحات السحاب فاذا بالكم فيها وله تاثيره ، لا يحظى بسحر الدقة الدقيقة فى الترصيع المصرى **وحساسية الاتجاه** فى الهرم وابى الهول ، وانس العمارة فى معابد امنحتب ومساجد مصر الاسلامية بقدر محسوب لأنه اسلوب حياة طويلة **روية بالدين** والتقنين والمعنى .

علمت الزراعة مصر بالمراقبة بدءا من الحبة وانتهاء بالثمرة ان **الحياة الخصبة خط صاعد** وصامد ··· عميق وموجب ··· نشيط ومتفاعل ... حى ودؤوب ... مترابط واصيل ... آخذ ومعطاء ... ودود وولود ··· عامل بنفسه ومتحد مع الكل فى ايقاع متناسق متكامل وبديع ·

علمت الزراعة مصر ان كل هذا **يتم فى صمت مستقر وقرير من احساس كبير بالرضا والمقابل فى النهاية** ، بقدر العمل محسوبا وعادلا، بل كريما مجزيا ومجذلا كسنابل القمح أو عيدان القصب .

لم تعد النفس المصرية **ركيكة** تتوسل بالبدائيات بل **رقيقة** تنشد الزينة وتتحلى وتتعطر .

ان الزراعة علم كبير · كثير من المحاصيل التى نعيش عليها من الفصيلة النجيلية ثم ثقفت واستؤنست .

لقد عرف المصرى الكتان وفى وقت سحيق حين اكتشف اليافا

فى بعض النباتات .. ولكن اغنيتنا المسطحة لا تعطى شيئا لأنها مع الشاطر تروح القناطر ثم لاترى شيئا لان **المدرسة** عندنا **هوايتها التعليب** .. مدرستنا تحشد المعلومات وتحشر القضايا فى العقول الصغيرة بالتلقين المجرد المكرور كما تعلب المصانع السردين بعد أن عزلته عن الحياة فى عرض البحر ...

ان تنفتح المدرسة على الحياة **وتصل النظر بالتفكير والنظرية بالتطبيق** ، تعرف **بهجة الكشف وصفاء المنبع وخبرة التجريب** .

ان تخلص المدرسة من التلقين ، والحكومة من الروتين ، والمجتمع من السلبية والانتهازية والغيبية ، ينبت الامل فى الاصلاح ويكون انباته الزراعة الجديدة التى ننفتح بها على عالم رحيب كما كانت الزراعة القديمة منطلقا وعمارة فى الحقل والعقل معا .

ولكننا افقرنا الفلاح مرتين :

ماديا حين افقرنا الأرض .

ومعنويا حين افقرناه هو بالغبن والتحقير فان النظرة الاجتماعية اليه الموروثة من الأتراك تصمه بالتأخر كما تسم الريف كله بالتخلف والاتكالية .. ولا سبيل الى رفع الفلاح اى رفعنا الا برفع حياته البيتية ليرتفع تفكيره ويرتفع تصرفه بالتالى .

ان المدينة تصرخ من هجرة الريف اليها .. اليس هذا دليلا على انه اكثر ذكاء واكثر نشاطا واكثر طموحا .. حتى طفله نجهض طفولته فلا ملاعب ولا مدارس حضانة ولا عناية صحية كاملة ... مع أن اى نقص فى النمو الفكرى أو الجسمى يندر تعويضه بعد هذا .

لقد ركزنا الاصلاح فى المدينة ونسينا ان الاصلاح يبدا من الريف .. لأن الاصلاحات اذا بدات بالمدينة جذبت الناس خارجها اليها فيزداد الضغط عليها حتى تنوء الاصلاحات المستحدثة ثم تنهار ..

ولكن تحسين الريف يستبقى اهله فيه بل يجتذب اهل المدينة اليه بعض الوقت على الأقل ..

لا سبيل الى رفع الريف الا **بعقد صلات حميمة معه** بدلا من مراكز الخدمة التى تبنى على حافة القرية ومن واجبها أن تنغمس فيها، معه ، من الداخل .

لقد عقدنا الفلاح حتى اصبح يربى ابنه ليبعده عن الزراعة . وكان من الطبيعى ان يعلمه ليمطى الأرض اكثر بوساطة العلم . وكم فى علم الزراعة الحديث من فتوحات .

نحن جعلنا من ريفنا موضوعا للشعر لا للدراسة والعمل . ان حضارتنا زراعية والزراعة اصل الايمان والفضيلة . **ولأمر ما كانت حضارة مصر الزراعية حضارة دينية** نفذت الى المجرد من عدل وحق ومعروف وتوجت هذا كله بالنفاذ الى الوحدانية لأن الموفور عنده الوقت للتفكير وللقيم العليا .

ومن هنا كانت الزراعة **نماء وبناء وأملا محققا .**

ولكننا تجاهلنا معنى الزراعة وقيمة الزارع وغطينا هذا كله باغنية خادعة او مخدوعة ثم لحنا الخداع .. وقلنا (ما حلاها عيشة الفلاح) !!

علمت الزراعة المصرى كيف يصنع

زرع المصرى فابتكر الفاس ، والمنجل ، والمدراة لفصل التبن عن الحب ، والشادوف للرى ورفع الماء الى الأرض العالية ، والبلطة لتنظيف الأرض من الحشائش ، والسكين ، ومجارف ، والحبال لمسح الأرض ، ومكاييل خشبية ، ومضارب ، وآلات النحاس ، والجرار .

كل هذا عثر عليه فى آثار الدولة القديمة .

زرع المصرى فعرف الطهى وتحضير الطعام .

عرف الطحن وصناعة الخبز بل الحلوى .

عرف البناء من الطمى ثم تطور فأصبح من الاجر (الطوب الاحمر) ثم الحجر .

من سعف النخيل صنع السلال والفرابيل ، والحصير ، والشباك للصيد والنعال والفراجين .

جفف الفاكهة وعصرها واستخرج الجعة (البيرة) والنبيذ . واستوحاها مع الأزهار فى الزخارف والرسوم .

عرف الصباغة والدباغة .

عرف التجارة والحرف .

صنع القوارب .

وصنع الأثاث من شجر التوت والبندق والجوز والخروب .

ومن الصفصاف صنعوا (المشن) التى نسميها اليوم (المشنة) .

اما شجرة الجميز فهى عندهم ظل وثمر وخشب ومادة لبنية استخرجوها من لحائها واستخدموها فى علاج بعض الأمراض الجلدية .

ومن الجميزة صنع تمثال شيخ البلد الذى كتب عنه (مسبرو) يقول :

(لو ان معرضا فتح فى مكان ما لتعرض فيه روائع الفن فى العالم كله لكان هذا التمثال واحدا من التماثيل التى ابعث بها اليه تمجيدا للفن المصرى) .

زرع المصرى فاستخرج الزيت من الكتان منذ عصر ما قبل الأسرات لأغراض الغذاء والتدليك ومركبات الروائح العطرية ، وللاضاءة ولزوم الطقوس الدينية فى المعابد .

واستخرج زيت الزيتون واستخدمه علاجا للكبد ودهانا لتقوية الشعر وكذلك فى الاضاءة .

واستخدم زيت الخروع فى الطب والتدليك وعلاج الأورام والبثور

وزيت الخس فى الطعام والتدليك والطب وعرف خواصه فى تقوية الجسم .

واستخرج المصرى من أزهار الحناء زيتا رائحته نفاذة استخدمه فى صناعة العطور وفى التحنيط كما أستخدم الحناء فى تخضيب الأيدى والأظافر والأقدام وصبغ الشعر .

وقلد اليونان والرومان مصر فاتخذوا اكاليلهم الجنائزية من اغصان الحناء المزهرة .

عرف المصرى الدباغة والصباغة .

استخرج العصفر من القرطم واستخدمه فى صباغة المنسوجات الحمراء والصفراء .

واستخدم بذور شجر السنط فى تثبيت الالوان وفى الدباغة .

واستخدم نبات النيلة فى صباغة المنسوجات الزرقاء وفى الحبر .

زرع المصرى فعرف النسيج منذ عهد بعيد فمن مأثورهم ان ايزيس نسجت وغزلت وبيضت .

وحين تطلع الى النسيج اخترع المغزل والمشط والنول والبكرة والمكوك .

وبرع المصرى فى النسيج براعة فائقة فقد عثر فى احد قبور الأسرة الحادية عشرة على اقمشة كتانية ذات طيات (بلسيه) .

وفى أحد قبور طيبة من الأسرة الثامنة عشرة ثلاثة نماذج كتان ذى طيات متعامدة فى غاية الدقة والابداع .

وكان النسيج المصرى يصنع أنسجة موشاة بصور ملونة .

وقد وجد كتان موشى بأسلاك الذهب فى قبر تحتمس الرابع بطيبة . كما وجد كتان عليه شغل ابرة وتطريز فى قبر توت.عنخآمون.

وكتان يشبه الحرير فى الدير البحرى .

وعثر فى سقارة على رداء من الكتان مذهب محلى بمناظر من الأساطير الدينية .

بل عثر فى الصحراء عام ١٩٤٧ على مخلفات من منسوجات وسلال وحبال وأثار نباتية يرجع تاريخها الى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد .

وتبين من فحص المنسوجات أن بعضها **مصنوع من القطن** .

ولم يكتف المصرى بالزراعة على خيرها بل طمح الى غيرها . ان ارض مصر المعطاء عندها اشياء اخرى غير النبات .

شكل المصرى القديم ، الشظية وعرف النحاس واستخرجه من سينا .

وابتكر الأسس كلها التى تقوم عليها صناعة التعدين .

ومتحف العلوم فى لندن ، يشير الى ان **جميع الصناعات تبدا بقدماء المصريين** : النسيج .. الفخار .. الزجاج .

لقد ارسل الملك امنحتب الرابع آخر الأسرة الحادية عشرة ، بعثة من عشرة آلاف نفس للبحث عن المعادن .. ما دلالة هذا ؟

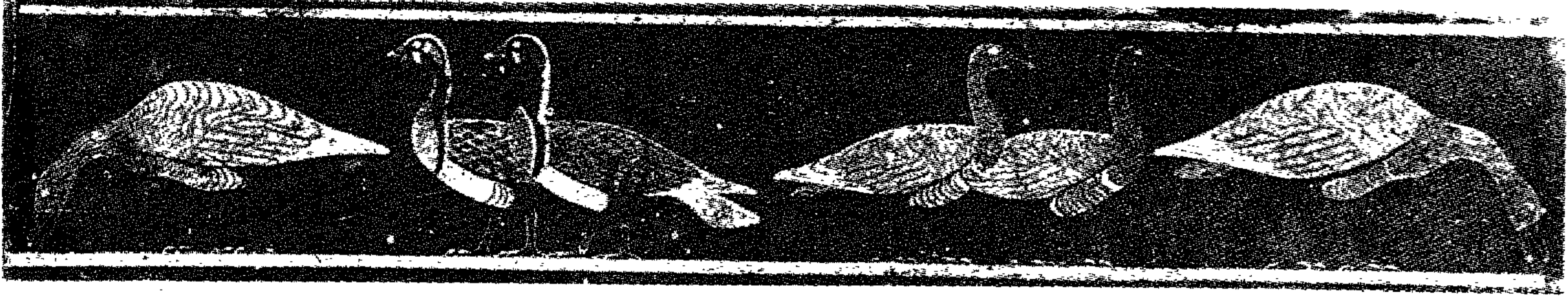
اى ادارة وراء هذا العمل خططت وسيرت ووفرت المؤن والماء والوسائل .

واستخدم الجيش المصرى اقدم سلاح مصنوع من المعدن (النصل العريض المثلث الشكل ، ثم نصل رفيع فى وسطه خط غائر .

استخدم المضرب على هيئة قرص ثم أصبح على هيئة الكمثرى

استخدم الحربة المصنوعة من النحاس .

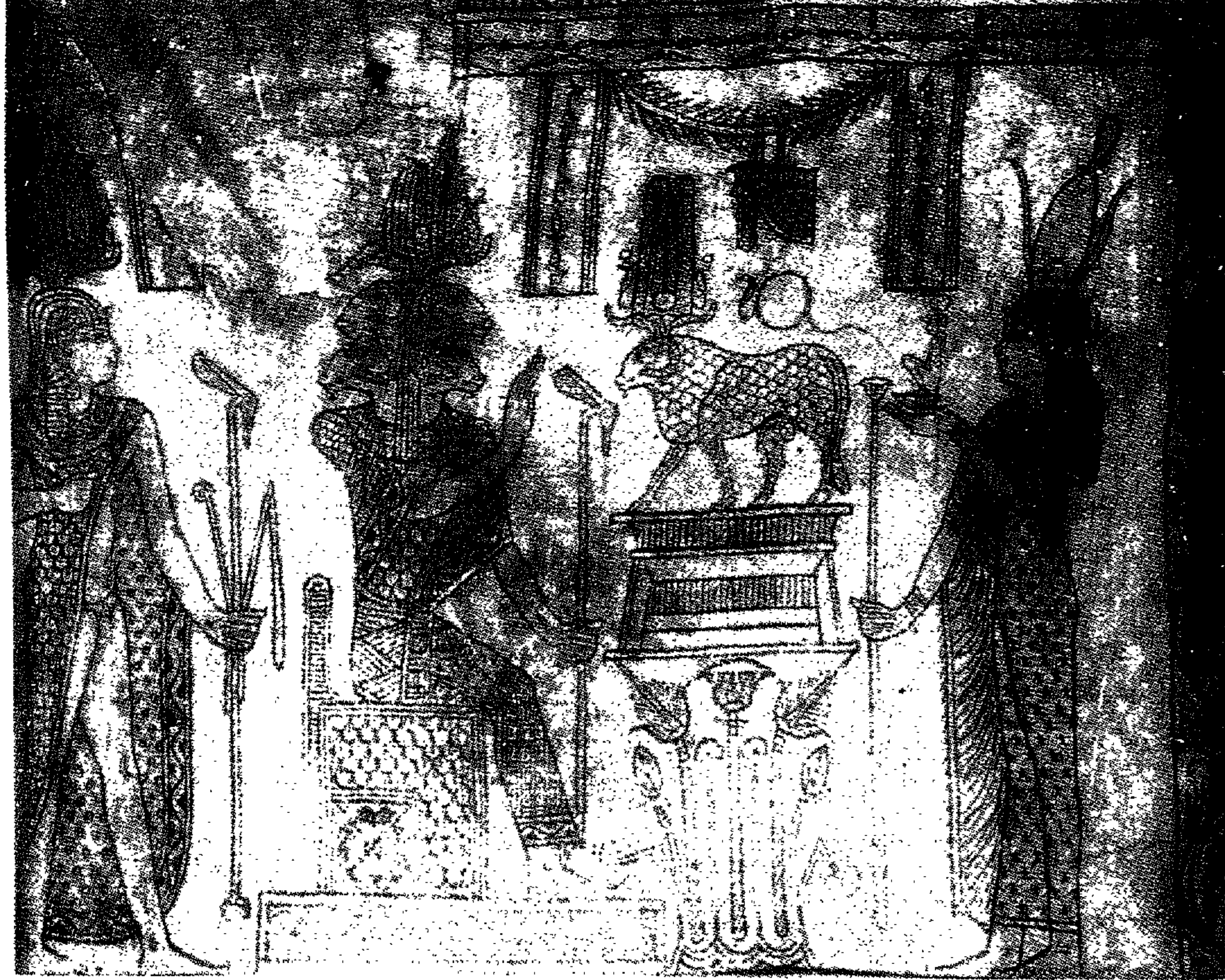
والدبوس المدبب الطرفين .



وز ميدوم ، وهو عبارة عن نقش كان ممثلا باحدى مقابر ميدوم -
الأسرة الرابعة



ثوبان من الخرز



لوحة تصور فن شغل الابرة



سـيدة من الدولة الحديثة ومن خلال
التمثال يرى الزى وتسريحة الشعر التى
كانت ســـائدة فى ذلـك الوقت

والقوس والسهم وعصا الرماية .

ومتى ؟ فى مستهل الأسرة الأولى اى منذ عهد مينا .

واستخدم الجيش المصرى النفير (البوق) لاصدار الأوامر وتوجيه سير القتال .

وابتدع المصريون انواطا وشارات من الذهب لتكريم اصحاب الاعمال البطولية كما ابتدع المصريون بلطة صغيرة من الذهب تهدى لكبار القواد وهى تقابل سيف الشرف فى العصور الحديثة .

***

زرع المصرى فعلمته الزراعة صناعات حضارية مثل صناعة الورق .

وصناعة الطب الذى بلغ فيه شأوا بعيدا حتى بلغ من امر المصريين فى الطب أن حتموا على الطبيب ان يكون قوى الايمان ، طاهر القلب ، حسن السيرة .

ولا يمارس الطب الا الحاصل على شهادة علمية تثبت كفاءته .

وكان الطبيب يعلق على منزله شعار الطب (الكوبرا المقدسة رمز القوة والتمكن .

يقول وارن داوسن .

(ان المصريين يتمتعون بأعلى سمعة فى كفاءتهم الطبية ، ان حكمة المصريين تتمثل فى «الامثال» ، ولكنهم أيضا ذوو مقدرة فى الفلسفة الحقة والعلوم النظرية ، والتجريدات . ويقيننا انهم اناس موهوبون لهم مقدرة فذة فى الانجازات العلمية . . **ان أسس علوم الطب وضعت فى مصر منذ اكثر من خمسين قرنا** بما لا يدع مجالا للشك) .

ويقول ر . و . سلولى :

(لم يعد خافيا ان علوم الاغريق التى عرفتها الدنيا ليست من ابتداعهم ولكن أولئك الذين كان بهم ظمأ الى المعرفة والرحلة فى سبيلها اتوا الى مصر . وعلى هذه الأرض رأوا المصريين فى مواقع العمل ورأوهم ما رأوا .

هنا على هذه الارض وجدوا القواعد الأولى فى الرياضيات والعلوم التى قاموا بنشرها اخذا عنهم .

فمن خلال الاغريق وصل تراث مصر الى باقى العالم .

دخلت مصر على الصناعة ، بقيم الزراعة الرءوم فدبت الروح في الآلة ، هنا لاتغدو صماء جامدة تعدى صاحبها بالجمود والتجمد وجفاف العاطفة فيخرج العمل مرقوما بلا احساس .

اذا دبت الروح في الآلة رف وترهف عطاؤها من استجابة لقلب رهيف يحركها ويستمنحها وهنا يكون العمل **منحة منها ومنحة لها** .

اذا استطاع العامل أن ينفث فى الآلة من روحه خرج العمل يحمل بصمته هو وسره كما تتجاور المشربيات والمرقشات فى الفن الاسلامى ولكل شخصية وهوية وذوق خاص ..

هنا لا تضيع انسانية العامل بين التروس ولا تهدر آدميته كليـة حين تغنى عنه الأزرار والميكنة .

ان تدب الروح فى الآلة معناه أن ترتقى فى استعمالها فلا نغلظ معها ولا نعنف فى تشغيلها ولا نطوحها أذا فرغنا منها ولا نطرحها فى امتهان او تحطيم ..

حين توفر الآلة وقت الانسان وتكفيه الجهد الشاق أو تعينه على الضبط والقياس فهي صديق من حقه الاعزاز ..

المجتمعات المتقدمة تعمل على (**تجذير**) هذه النظرة الى الجماد ولعلنا نرعاها بعد أن نرتفع بالانسان كيانا وكرامة .. ثم بالحيوان كائنا وحياة . كانت مصر قديما تعطى ميدالية للحيوان الممتاز وتصنع عجينة غذائية لتلقيمه .

الصناعة فى مفهومنا الانتاج والرقم ولكن ان نصنع ما يصنعه العالم المتقدم معناه أن نتحرر ونستغنى ونغنى .. **فالكرامة ان تكفى نفسك بنفسك** بدون التطلع الى الغير اشتهاء أو استجداء أو احتذاء . ان الصناعة بعض قيمنا القديمة وهل فنون البناء والاناء والكساء والأثاث والزجاج والحلى والسفن ، الا ، صناعات ابتدعناها وتطورنا بها تطورات هى اضافات رائدة على مسار التاريخ فلا أقل من ان نكون روادا فيها اليوم أو أصحاب شخصية متميزة تأبى المحاكاة او (النسنسة) التى تحدث فى أقفاص القرود ..

الف « الفريد لوكاس » كتابا عن (المواد والصناعات عند قدماء المصريين) فخرج فى ٨٣٦ صفحة كبيرة !

كانت زراعة مصر صناعة عصرها .

وكانت صناعة مصر ، انبثاقة من عالم الزراعة .

مصر
أسلوب
حضاري

- مجتمع متحضّر متسـام
- العـــمل
- أحبّت مصـــر الحـيـاة
- إحساس مصر بالكون الشامل

مجتمع متحضر متسام

كان المصرى القديم يتطلع الى **النيل والحقول** . ولما جاء الاسلام اصبح المصرى المسلم يتطلع الى :

الكوثر .. والجنة .

مستمعا الى نداء الآية الكريمة (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى . ولهم فيها من كل الثمرات، ومغفرة من ربهم) .

النهر والوادى

النيل والنبات مرة اخرى .

لقد شكلت الزراعة فلسفة مصر .

ليست نظريات ولكن :

اسلوب تصرف

وروح تصوف

وفن حياة

وذكاء شخصية .

ان الايمان الصفة الأولى لمصر **فحضارتها منذ البداية دينية** ولهذا، حق وواجب ان يفرد له الحديث .

ما هى فلسفة مصر ؟

النور السماء الماء الحجر

هذه الاربعة هى عناصر الحضارة المصرية وهى فى الوقت نفســه عناصر الشخصية المصرية والفلسفة المصرية مع ولع بالرائع ، وتعلق

بالأعلى ، واستمراء للعمل الجميل يمرى عليها فترتفع الشوامخ من اعمالها معابد ومساجد وفنونا وعلوما وحكمة .

تعلمت مصر من الحجر الصبر ، ومن النور البهجة ، ومن الماء الرقة والعذوبة ، ومن السماء الرحمة والسعة .

تقطع مصر الحجر فينتفى عنها الضعف ويتاكد العزم ، ويستعلن الجسم ، وتولد القيمة .

وحين المولد ينبثق الحنان .

وتحتضن مصر العمل الفنى بالزينة والتحلية والتنمية فى لمس يقارب الهمس وهو على رقته توثيق وتحقيق ..

وتترعه بالراح والراحة فيفيض الرى على الحنايا والمنحنيات تبدو معه الأعمدة فى البنيان كأنها سيقان حية مملوءة بالعصارة النباتية .

ويخضر كل شىء فى وادى النبات .. حتى الحجر وكانه نوع جديد من الشجر .

وحين تشرع مصر فى التقسيم يسرى التنغيم فتغنى القباب والايوانات بالنقوش والنمنمة .. ويحلو الشدو على الترديد والتجويد.

ويتسع الصحن فى المسجد كالبهو فى المعبد فى دعوة للنورالخارجى ان يغمر المكان ، ونداء للنور الداخلى أن يعمر النفس ، فيشف الحس وتتوهج الروح .

روح الوجدان المصرى : البناء . ولهذا نجد ابن البلد عندما يرضى يقول : الله يعمر بيتك .. وعندما يغضب يقول العكس (الله يخرب ..) .

البناء الذى يتمثل فى :

الاناء : انه بناء له جدار واحد يلف ليلتقى أوله بآخره . انه بيت الزهر .

النسيج : فيه روح البناء .. خيط له طول ويكاد لا يكون له عرض فتأتى اليد النساجة أى البناءة وتعمل من هذا الخيط **بناء** له طول وعرض .

الخيط رمز الفرد

فمن مجموع الأفراد يتكون النسيج الاجتماعى .

النيل : يبنى التربة طبقة فوق طبقة .

النبات : يبنى نفسه بالنمو يوما بعد يوم .

تجفيف المستنقعات : بناء أو تمهيد له .

الحكومة : بناء للقانون . . ان العدالة اذا وجدت بناء كبير .

العقد : صفوف صفوف من الخرزة . . بناء مرصوص .

وتشتد الالفة فى مصر بين فنـون العمـارة والنحت والتصـوير والحرف من نجارة وسبك وتزجيج كمـا تتواصل فى الحضارة المصرية لعصور ، ويتواد فى المجتمع المصرى الجيران ويلتقى الأحباب .

وتقوم فى مصر اقدم مدنية فى الدنيـا (طيبـة) الطيبـة لتجمع البساطة من ثراء النفس المصرية .

والى بساطة الثرى السرى ، زهد الغنى ، وقوة الأنس بالحق ، وطمانينة النفس على الطريق ، وثقة ليس من الغرور ولكن من الايمان بنور النور .

فى طيبة امتناع عن السهل من وثوق القدرة وعشق للصعب من قدرة اليقين .

ان فن المشربيـات الذى ابتدعه العصر القبطى كان سـببه قلة الخشب فى مصر فأحال الانسان المصرى فقر الكم الى غنى الكيف .

ما اروع ابن البلد واصـدقه حين يعبر عن ذروة ادراك القيمة بالتكيف .

يقول : انا اتكيفت . ويقصد بالكيف ، ارتفاعه على الكم .

من الكيف ان تجوهر الأشياء فتغلو .

ان الكيف هو تلقى رقائق المعانى ومصاحبتها حتى تطرح فى النفس وردا .

وهكذا مصر كما وكيفا .

لقد شكلت مصر الخشب ، وهو قليـل عنـدها ، أروع ما يكون التشكيل فى تمثال ابن البلد .

وقد عرفت مصر (الكاويلا) وهو مسمار الخشب وهو أحدث ما يعرف الآن فى صناعة الأثاث .

وتوسع مصر فى العمل من سعة الصدر ، ورحابة الصبر ، وطاقة الخلق والتشكيل ، والايمان بالجزاء فى النفس والمال يتبدى فى لغتنا الشعبية فى قولنا للمجود : الله يبارك لك .

ليس اسلوب تعبير فحسب ولكنه أيضا اسلوب تفكير من حس بعيد بالثواب والعقاب يحكم الحياة المصرية اذا تكلمت أو عملت .

ففى المعبد والمسجد يخفت الضوء فى المدخل لتتنبه مشاعر الرهبة والحساب ويشتد الصمت لترتفع عقود البناء ، وترتفع معها النفس الى قمة .

ان فنون مصر تحقيق لآمال الضمير المصرى فى عصوره الأولى .

ان التاريخ المصرى بكل **مآسيه وكل معاليه** .. بمقابلاته وبمتناقضاته كاللحن تتفاوت الأصوات فيه ويظل وحدة فنية .

ويجرى النيل .

وتتواصل الحضارة على ارضه ، وتتراسل العطايا من فيضه حتى بعد ان ينتقل الحكم الى غيره فاذا الذى انتقل الصولجان **لا الهيلمان** ، والحكم **لا الحكمة** .

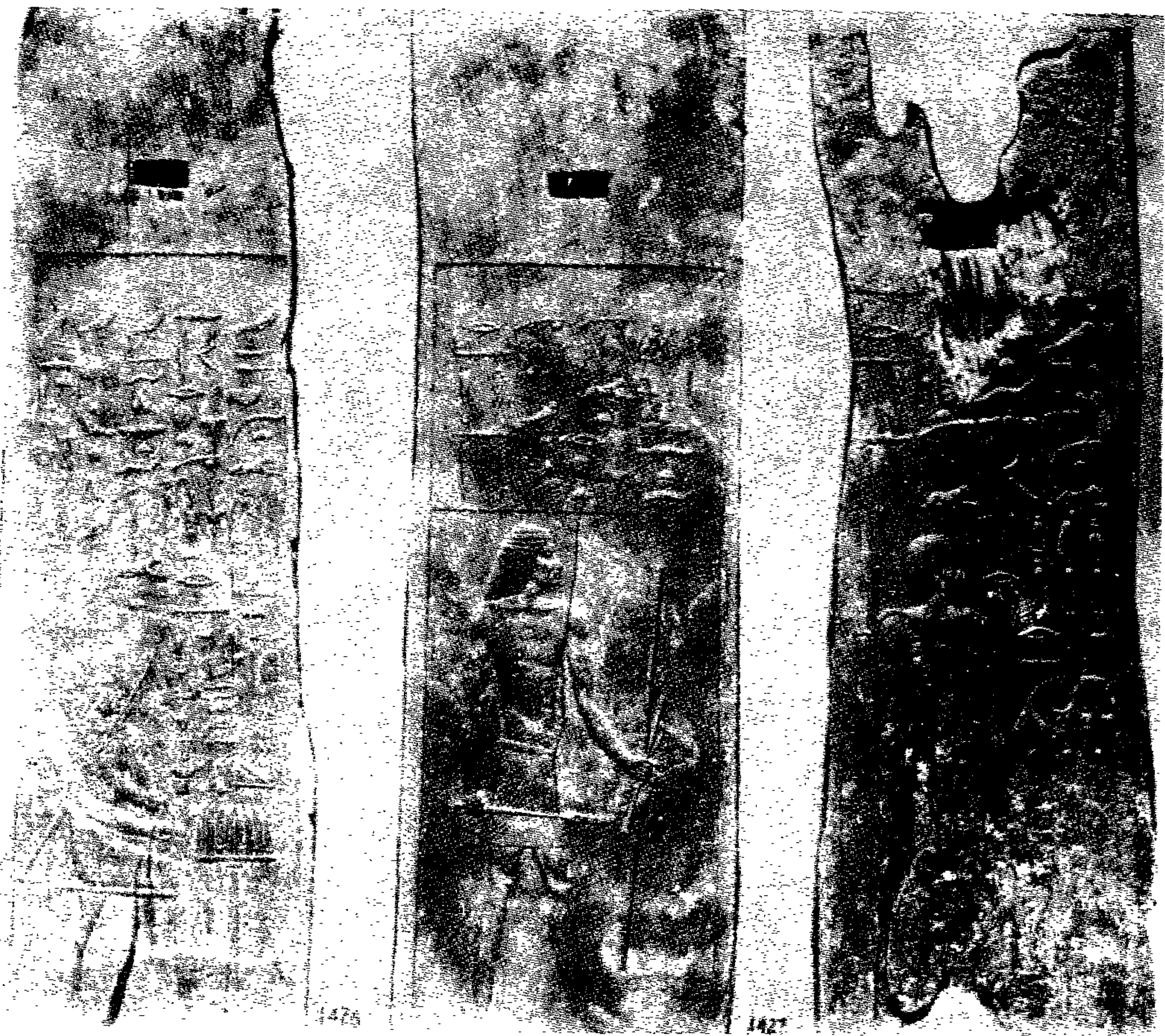
ان نداء هذا المكان يرد على رجاء الزمان ليشفيه من داء العصر وهو جدب الروح . .

داء لا يداويه الا البلد الذى عرف الزراعة **تحضيرا** للارض وزراعة للنفس .. زراعة للأثر والحجر ، زراعة للمعنى فى الفكر وزراعة للحب فى القلب ، وزراعة للرحمة تلف الانسان والحيوان والنبات والحياة فى وحدة .

من اثر الزراعة فى مصر ان فلسفتها غير منفصلة وغير مكتوبة لأنها ليست جزئية .. ليست من عمل الذهن وحده بل هى من عمل الانسان الكيان كاملا ومجتمعا بحواسه وعقله وقلبه ودمه وأعصابه على مثال من عالم الزراعة الذى لا تنفصل فيه البذرة عن الأرض أو عن الساق أو الفرع أو الورق أو الثمر .. الكل متكامل .

فلسفة مصر لهذا وبه تأتلف من عطايا العقل وهدايا القلب وومضات الشعور ويقظات الضمير .

انها أسلوب حياة وروح انسان .



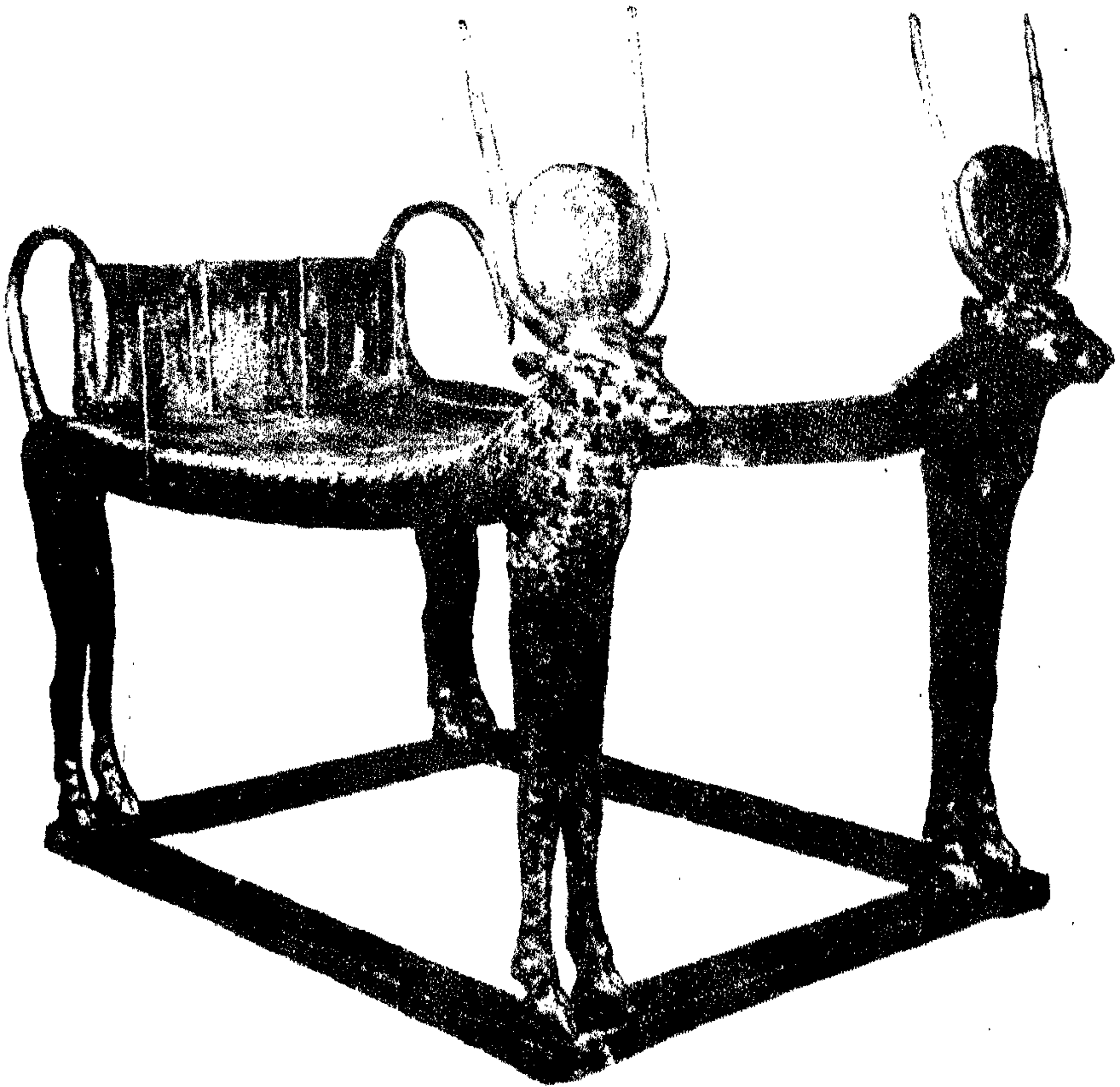
لوحات خشبية من مقبرة حسي رع ومن القابه انه شغل وظيفة طبيب أسنان
وتبرز اللوحات مقدار العناية بالكتابة الهيروغليفية ـ الأسرة الثالثة



اناء من الالبستر ـ الأسرة الثالثة



تمثال شيخ البلد وهو مصنوع من الخشب يكاد ينبض بالحياة



سرير جنائزى من مجموعة توت عنخ آمون بالمتحف المصرى ـ اسرة ١٨

فلسفة مصر كعصارة النبات لا تتبدى ولكنها موجودة ، ولا تتحدى لانها مشهودة فيوضا وطيوبا وارزاقا تجرى بقدر حينا واحيانا بغير حساب .

فلسفة مصر سرها خاف لاتصالها بالكون المحيط تتحد به وتتوحد معه فى اتجاهات والتقاءات وتقابلات وتشابهات يحار فيها العقل وحده فينسبها تارة الى السحر وتارة الى الكهانة ثم يتراءى له من طول انشغاله بها ان يسلط عليها الوانا من اشعته . وفى نهاية المطاف يسلم بانه ما أوتى من العلم الا قليلا .. وهنا ينشط خيال الانسان ليريح ويستريح فينسج الأساطير عن عالم جلاله اخاذ ، وذكاؤه نفاذ ، وسره ناتع .

ويجىء عصر الصناعة ونحن فى حاجة الى ان نواكبه للمعاصره وللمحافظة على محاصيل الزراعة من ثمرات ومن قيم اهمها حب الكون واستلهامه لأننا بزراعتنا وصناعتنا وعلمنا المحدود جزء منه لا ينفصل عنه بل حياته كامنة فى الاتصال والوصل ليفتح لنا ، بالبحث والتفكير، كنوزه وذخائره .

عرفت مصر القيم .. كانت مصر القديمة تسمى المدرسة (بيت الحياة) فى ارتفاع على اسلوب التلقين الذى تسير عليه كثير من المدارس فى عصرنا هذا بعد آلاف السنين .

ومن مأثورات الأدب المصرى القديم : (ان كتابا واحدا لأكثر نفعا من بيت مؤثث ومقبرة فى الغرب واجمل منظرا من قصر منيف) .

ومن حكم امينموبى (لا تقولن لا احمل خطيئة فليس بين يدى الله ، انسان كامل) .

(قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القوى) .

ومن ادبهم النفسى انهم كانوا يسمون اوزوريس امير السلام وهم يعلمون انه ضحية سيت الذى لم يكتف بقتله بل قطعه اربا .

وفى المعبد المصرى حورس يشترك مع سيت قاتل ابيه فى رفع رمز الوحدة !!

انه شعور الشعب المصرى بالأسرية وهو شعور يتسع فيصبح وحدة امام الملمات . وتغدو مصر كلها اسرة .

وترتفع فى عين المصريين على الاشـــخاص والعـــداوات . وتصبح وحده .

امام مصر ، الأعداء والاصدقاء اسرة وهى وحدها الأم والاب .

واعل هذا سر **افتقاد ادب الدراما عندنا** . لم تتفوق القصة عندنا كأوربا على الرغم من اننا نحب الحكايات . . **لان طبيعة تفكيرنا التكامل لا التصارع** الذى هو اساس الدراما .

الملحمة مجلى بطولات يبرزها الصراع الثنائى ولكن **مصر حتى حين تتصارع تفىء الى الوحدة** ، فحروب الشمال والجنـــوب انتهت بوحدة الوادى ولبس مينا تاج الوجهين .

وصراع أوزوريس وسيت انتهى الى تحكيم القضـــاء ونصب ميزان العـــدل .

وهذا الادراك العميق للأمور هو فى صميمه **بطولة فكرية** .

التكامل والوحدة سمة من سمات الشخصية المصرية ذلك التكامل الذى تفتقده الشخصية الأوربية ولهذا تهوى التقسيم والتصنيف .

حتى عصور تاريخهـــا وحركاتها الفنيـــة تتراوح من النقيض الى النقيض كالواقعية والسريالية .

ليس فى اوربا تكامل .

عندها الصراع .

وعند مصر التكامل الذى تسميه **اللمة** .. **العزوة** ومثلها الشعبى يقول : (البركة فى كتر الأيادى) اى فى التجمع .

تاريخ مصر يروى هذا التكامل .

كان فرعون اى البيت العظيم   رجل سيف اى دولة
+ رجل قانون اى حضارة
+ رجل بناء اى ثقافة

ومجموع الثلاثة **معناه امة** .

وهذا هو الفرق بين الأمة والدولة . فالســـيف يصـــنع دولة ، ولكن القانون والحق والخير اى (**معات**) يصنع امة .

وهذا تفسير قول شـــوقى للعثمانيين مع كل بريق الغزو والفتح (يا دولة السيف كونى دولة القلم .)

وشعور الشعب المصرى بالأسرية ، **تنبع منه اخلاقياته وتصرفاته ونظراته فى الحياة والناس . وينعكس هذا على آدابه وفنونه .**

اذا عمل سمى استاذ الصنعة (معلما) والصبى يناديه (ياعمى) ان العمل قرابة ونسب . كل شيء فى مصر اسرة .

والأب المصرى يقول لابنه الذى يحمل الكتاب (حافظ عليه كامك). فى ادراك عال نبيل للأم والكتاب معا .

واللغة الشعبية تسمى الرحم : بيت الولد فى احساس موروث براحة البيت ودفئه وحنانه .

ان الأسرة بمفهومها المصرى العريق ، **بؤرة حضارية** يتشرب المرء فيها شعورا قويا ومقوما . . رحيما ومنعما .

يستشعر **الطمانينة والسكينة والوفاق،** اذ يشهد تجربة مثمرة . ابوين متفاهمين .

وفى مثل هذه الأسرة يولد الشعور بالالتزام نحو **المجتمع** الأم .

انها مدرسة لتوسيع حدود الذات ، واكتشاف شقى الوجود . . يكتشفه كل من الرجل والمراة فى الجانب الآخر .

لا يدل على حضارة شعب من الشعوب او بلد من البلاد مثل احترامه للمراة واعزازها . وقد اعزت مصر المراة واحترمتها بل رفعتها الى قمة حين جعلتها الهة ، وحين جعلتها فى معبد سيتى (نقيبة الأطباء) .

واكبر تكريم قدمته مصر للمراة :

الدير البحرى فى الأقصر

* معبد نفرتارى فى « ابو سمبل » .

ان من علامات الحضارة المصرية فنون الزينة عند المراة المصرية .

اراد الدز هكسلى ان يصف العصر الفيكتورى بسيادة الرجل فقال ان البيت الانجليزى كان يضم دائما كرسيا واحدا ذا مسندين . . وهذا الكرسى طبعا للأب .

نظرة واحدة الى حجرة (حتب حورس) ام خوفو نجد سريرا فخما **ضخما به مكان خاص لراحة قدميها . وفى الحجرة كرسى ضخم** ذو مسندين لها اذا جلست ، ومحفة تضاهيه وتزيد عليه فى طول المقعد لتجلس وتسترخى اذا ارادت الانتقال من مكان الى مكان . .

ان حتب حرس كانت تتمتع بما لم يحلم به رجل العصر الفيكتورى الذى يحسده بدوره رجال العصر الحاضر .

حتب حرس هى المراة المصرية التى ينتقل من خلالها العرش .

وليست لأنهـــا الملكة . فان المتحف المصرى يضم عائلة القـزم المتواضع (سنب) حيث ترى حنان زوجتـه عليه كحنـان الملكة على زوجها (من كا ورع) لا منقرع كما نقول .

حنان المراة فى الحالين ليس سنادة بل **سندا** . انهـا فكرة المراة فى مصر .. انها رؤية مصر للمراة كشـعاع من الرحمـة **وحفظ لتمام معنى الانسان مهما بلغ ولو كان ملكا له** ملك مصر والأنهـار تجـرى من تحته .

أنها (تمام) يكتمل به كل من الرجل والمراة على السواء . لقـد اكرمت حضارة مصر المراة ولعل هذا **سر** الحضارة المصرية **وتواصـلها** - من دون **الحضارات** .

لم تكرم حضارة فى الدنيا المراة كما كرمتها مصر حين جعلت :

سشات ربة للانشاء الهندسى والقلم والسجلات .

ومعات ربة للعدل وللحق .

وحاتحور ربة للفن والرحمة اى للجمال والحنان .

وايزيس المثل الأعلى للأمومة والوفاء .

وفى المسيحية ركزت مصر على الأم لا الصلب .

وفى الاسلام تعلقت مصر بالسـيدتين الكريمتين زينب ونفيسـة وضممت اليهما سكينة **وفاطمة النبوية .**

والمراة بعد هذا كله ربة البيت الذى هو اصل الحضارة ثم هـو غايتها بمعناه الواسع ومعناها الرفيع .

فى الأسرة يلمس الانسان الوعى الحى الساهر ، والعزم اليقظان . يلمس الوحدة بين نفوس متعددة .

الوحدة اكبر من المحبة لأن المحبة فى قمتها ، ان تتـوحد مع من تحب .

وقد ورثنا هذه الوحدة حتى ليعد قمة التادب ، قولنا فى المجاملة

(مفيش فرق) . والذم عندنا القول (ابو وشين) فذو الوجهين زائف لا وحدة فى سلوكه .

والنحت المصرى لا فاصل ولا فاصم بينه وبين الجدار . وهكذا النفس المصرية عندما تتوحد وتتماسك .

***

والفكر المصرى من طبعه الحفاظ .. فهو يحافظ على قديمه مهما كان جديده . لقد ظلوا يقولون ملك الوجهين حتى بعد ان توحدت مصر وصارت كلا واحـــدا . وفى المعبد المصرى ، مقاصير الشـــمال يقابلها فى الجانب الآخر مقاصير الجنوب .

انهـــا الوحـــدة المصرية عبروا عنهـــا بالحجر متـــوازيا ومتساويا كالشعر .

وانه **الوعى الاجتماعى .**

والوعى الاجتماعى تعلمته مصر من النحت . ان المثل الذى يقول (التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر) مثل مصرى لا يقوله غير فنـــان نحات .

والتـــذكر صفة مصرية قديمـــة . وهى التى ولدت الحاجة الى الكتابة ، والنقش فى الحجر ، كى لا ينسى المصرى . وفى لغتنا اليومية لفظ (قيد) بمعنى اكتب واحصر حتى لا يهرب المعنى .

لقد ادرك المصريون برؤية داخلية بصيرة ان الحضارة تحتاج الى زمن .. استمرار .. حفاظ .

ان الحضارة لا تبنى فى جيل . هنـــا **اخترعوا الكتابة** حفاظا على الفكر من الضياع والنسيان ، **والعمارة** حفاظا على التاريخ من الاندثار ، **والتحنيط** حفاظا على الجسم من البلى .

ومع هذا الحفاظ كله ، مصر قادرة على التطور .

لقد **احبت مصر القديمة الحيـــاة** حتى فكرت فى الخلود ، وآمنت بالبعث ، وجعلت المقابر والمعابد حافلة بصور الحياة ، وكرهت الموت حتى عبرت عنه بالرمز والكتابة .

ولكن مصر المسيحية حين وجب الفداء ، احبت الموت حتى انكرت الحياة ، واستشهد فى سبيل المسيحية ابرار ستبقى شـــهادتهم رمزا للايمان .

فمصر **قادرة على التكيف والتطور** حتى تبلغ به الى اقصى المدى الذي يبدو الظاهر : متناقضا وهى فى الحالين تنبع عن اصل واحد هو طبيعتها السمحة القابلة للتطور ..

ان المصرى الاصيل دائما يعطى نفسه للميسه . فهو عندما يكون غالبا مستقرا يعطى نفسه للفن . وعندما يكون جريحا مهيضا يعطى نفسه للنصر أو الشهادة .

ان شهداء المسيحية قد اعطوا انفسهم لمعنى .. وقد ادركوا هذا جيدا ، وقصدوه ومن ثم غنوا وهم فى طريقهم الى المقصلة .

وفى الاسلام عذب ذو النون والبويطى، فيمن عذب من رجالنا فى الدولة العباسية .

لقد ادركت مصر حكمة تغيب عن كثير من المربين وهى ان الانسان لا تستقيم حياته ما لم تكن فى طريقه الى شيء .. او تشارك فى عمل رائع .. **اى هدف يثير الانبهار** .

هذه فلسفة مصر ثم المكتونة .

* * *

ومصر تحب الحب .. تحب الوفاق .

ان اقوال الراهب المصرى (اصطلح مع نفسك يصطلح معك العالم .) تؤكد جنوح مصر الى السلم ، وميلها الحميم الى **الوفاق** .

فالصلح مع النفس هو التوحد فلا انقسام ولا تشتت ولا عراك داخلى ولا خوف ينعكس على الخارج فيورث صاحبه الخوف من الآخرين لانه ، قبلا ، خائف فى نفسه .. خائف من نفسه .. خائف من الناس .

اصطلح مع نفسك

كلمة عميقة من الصحراء المصرية .

تشكيل التمثال تصالح بين كتلة وكتله .

الوزن فى الشعر انسجام بين شطرى البيت ووفاق .

الباليه اتفاق فى الحركة واتساق .

ان السمو الذى سكن فى زهرة اللوتس ، سكن فى كيان المصرى الحقيقى ، فغمره بسكينة عندما يصل فى نضجه الى قمة الشرف والترف .

ان السكينة المصرية غير الجلد الروافى . انها شىء اكبر .. بفضل مدد علوى .. هو اطمئنان وتواصل وتقبل لفيض هناءات **تهون امامها الخطوب وتتجدد الرؤى وتشرف النفس من عليساء عزها الجديد امام احتدام الأمور .**

انها **ميلاد للنفس** يعود به الانسان من غربته .. يخرج من عذابه او يعلو عليه ..

ولعل هذا يفسر الآية الكريمة (يا نار كونى بردا وسلاما .)

ان الآية الكريمة دعاء لابراهيم بالسكينة تصير معها النار نفحة نور ، لا لفحة سعير .

النيل والمقطم يرمزان الى **شخصية مصر** .. انها حوار بين الصخر والماء .. حوار يدور فى النور .. من يلاينها تعذب وترق كماء النيل .. ومن يتحداها تصلب كالصخر .. كصخر المقطم .. **فلسفة مصر** كالعمود فى العمارة المصرية الاسلامية . فاستقامة **العمود** يترجم عن الخط الصارم الصامد ثم يلين فى **انحناءة يستجمع بها نفسه ويستمد** العزم فى طريقه الى قمة .

وقد حققت مصر السكينة ثلاث مرات ، وبصور **متعددة ورائعة :**

فى العصر القديم ثم فى المسيحية ثم فى الاسلام

ولم يحقق بلد السكينة فى انجازاته بالكيف والكم الذى حققته مصر . ولا يستثنى من هذا الهند والصين على عظم ما حققناه .

ان مصر تشع السكينة من قرار سحيق .

وعلومها النظرية وتجريداتها دليل شاهد .

ان تواصل الحضارة فى مصر بغير انقطاع **دليل بر وخير ومجتمع متسالم** . مجتمع مستقر وقرير . ولهذا جسدت الحضارة المصرية « السكينة » .

انها حضارة النفس المطمئنة لانها فى هذا الكون تحس انها غنية بذاتها ، واثقة بنفسها ، سعيدة بانتمائها الى « مصر » .



كا ـ م ـ حست وزوجه وطفلهما ـ الأسرة الخامسة



تمثال الكاتب المصرى



توت عنخ آمون يخرج من اللوتس رمزا للبعث ـ الأسرة ١٨



كاهن يصلي

العمل

يقولون ان أسلوب الشرق : التأمل
واسلوب الغرب : العمل
اما مصر فأسلوبها **تأمل وعمل** اى **همة** ..

ان منجزات مصر الحضارية عمل دائب موصول ومضبوط . متعدد الأشكال والأغراض ولكنه مترابط يشده خيط حرير غير منظور، ولكنه لا يخفى على العين البصيرة لأنه هو الذى يعطيه طابعه .

عطاء مصر فى الحضارة وليد عمل متقن من حب أصحابه فيه ونشوتهم بأدائه فى فرحة غنائية هى نوع من الجلال الأنيق .. ولأمر ما ، لا يجد المشاهد ، على المعابد المصرية فما متثائبا او خطوة متخاذلة ، او جسما قميئا مع أن المصريين القدماء سجلوا دقائق حياتهم اليومية لأنهم كلهم كانوا يعملون فى جد ولم يكن بينهم من يتثاءب أو يتلهى أو يتمطى فى الظل .

ومن اقوالهم المأثورة :

(كن مجتهدا دائما ، وزد على ما تؤمر به من العمل ، ولا تضع وقتا لا تعمل فيه ، فانه ممقوت ذلك الذى يسىء استخدام وقته ، ولا تفلت فرصة يوما فى زيادة ثروة بيتك ، فان العمل مجلبة للثراء . ولا يدوم الثراء اذا أهمل العمل) .

واحسب العمل هو الذى حفظهم من الترهل ــ وآفته الركود .. على أن الخير موفور والخصب شامل .

العمل الموصول حتى ليتساءل علماء الآثار كيف غطت مصر الأسطح الهائلة من الصوان وغيره من الحجارة الصلدة بالكتابة الهيروغليفية والنقوش الدقيقة فى عهد ملك واحد ؟

انها **الصحة النفسية** قبل البدنية فليس هناك اجسام **متهافتة** او متهاوية انما جذوع مشدودة واطراف مفرودة تعبر عن جسارة الروح قبل جسارة المادة .

حتى الصلاة وقفتهم فيها مشدودة ممشوقة من جسم سليم ونفس أشد سلامة فجاءت الحركة تعبيرا راقيا عن رغبة الفكاك من أسر المحدود ، شكرا للقوة الأعظم التى بلا حدود .

كانت مصر عزيزة بالحرية ، وعزيزة بالريادة ، وعزيزة بالخلق والابداع ، وعزيزة بالغنى .

وانعكس هذا كله على حياتها ، واعمالها ، وحضارتها ، بل على تدينها وتقواها .

اسلوب مصر الواحد والوحيد هو العمل حتى فى عصور الضعف لسياسى وهى فى مصر عصور **كمون واستجماع لوثبة محسوبة** فان. فلسفة الشعب المصرى، فيها، ان يتقوقع على نفسه النفيسة ، ويصوغ من دموعه فى محارته أو عزلته ، لؤلؤة . فنا وصناعة وطرفا . يتوارث مهاراتها خالفا عن سالف ويعتز بمعطياته فى هذا المجال فيجعل لكل صنعة (خيا) و (معلما) .

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لا سلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف . ان الواحد من هؤلاء اليدويين (معلم) ولمعلميته اصول وتقاليد وله احترام خاص وسمت معين .

وليس الفن وحده .. حتى **رهبانية آباء الصحراء** فيها مفتاح من مفاتيح النفس المصرية . فحين يعكف الصانع المصرى على عمل ، وحين يعكف الفلاح المصرى على حقل .. يعكف الراهب المصرى على نفسه يزرعها ويصنعها .. الصانع والزارع والراهب عملية خلوص الى شىء وعكوف على شىء ..

عملية بناء برعت فيه مصر منذ القدم قد يكون بالحجر فى الصروح المشيدة ، وقد يكون بالكلمة فى القيم المجسدة ، وقد يكون بالخلق الفنى فى الأعمال المجودة والمجيدة .

حتى أعمالهم العظيمة على روعتها ليست كل ما عندهم .. مازال فيها (حتة) لم تفسرها الأعمال العظيمة تفسيرا كاملا .. فروح مصر لها أبعاد غير محدودة .

ليس الفن وحده فالتصوف المصرى لم يكن سلبا بل ايجابا فقد كان ثورة روحية دل عليها « ذو النون » بأعماله ، كما دل عليها « ابن الفارض » فى شعره وسمت حياته بما فيه من مصر من الرقة والعذوبة والصفاء وحيوية العاطفة ، والومض حتى شغلت تائيته الشراح فكثرت شروحها وتشعبت .

العمل لا غيره كان طريق مصر الى القوة ، وسبيلها الى عصور الازدهار والانتصار .

لقد ترجموا حبهم لمصر ، الى عمل . فالمحبة كما يقول المتصوفة ، « بذل المجهود » .

ليس عند مصر فلسفة مكتوبة بل محققة ومعاشة . ان الفلسفة طريقة حياة . قد يكتب شيء ويعاش شيء آخر . ولكن مصر عاشت رأيها بصدق وان لم تكتبه هى التى ابتدعت الكتابة .

وكان عند المصريين القدماء ثقافة جماعية فالكل يشترك فى اخراج العمل الفنى بينما ثقافة العصور الأخرى ممثلة فى افراد معدودين فى كل عصر وفى كل بلد .

وعرف المصريون منذ القدم ، تنظيم العمل الفنى ، واستخدام المساعدين والانتفاع بهم بطرق متنوعة **والتخصص** فى القدرات الفردية ، والجمع بينها وبلغوا فى ذلك شأوا رفيعا .

وكانوا مهرة فى التربية الفنية يدل على هذا ما وجدته الكشوف من المواد التعليمية المحفوظة ومن أمثلتها قوالب الجص من الطبيعة ، والنماذج التشريحية المختلفة المعروضة التى تبين للتلاميذ تطور العمل الفنى فى مختلف مراحل انتاجه .

لماذا كانت حضارة مصر دينية ؟

لانها عملت فذاقت حلاوة العمل فارتبطت بمعنى السكون ولهذا تجد اشد الناس ايمانا ، الزارع ، حتى ولو كان اشدهم تخلفا أو فقرا لأن الزارع يحنو على الأرض ويحننها ويستولدها فتطرح فى نفسه من المعانى اضعاف ما تطرحه من الغلات والثمار .

يقول ديورانت (حسبنا ان نذكر من معالم حضارتها (مصر) نهوضها بالزراعة ، والتعدين ، والصناعة ، والهندسة العملية ، وانها فى اغلب الظن هى التى اخترعت الزجاج ، ونسيج الكتان ، وانها هى

التى احسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن واصلحت احوال المجتمع وشئون الحيـاة . وان المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد . وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائى والثانوى ، بل انهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفنى لاعداد الموظفين ورجال الادارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضـوا بالآداب والعلوم والطب ، والمصريون على مانعرف أول من وضع دستورا واضحا للضمير الفردى، والضمير العام وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصـار على زوجة واحـدة ، واول من دعا الى التـوحيد فى الدين ، وأول من كتب فى الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت، وارتقى بالفنون الصغرى الى درجة من الاتقان والقوة لم يصل اليها فيما نعرف أحـد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم) .

ومن معجزات الحضارة المصرية انهـا حققت هـذا كله بابسـط الوسائل . وهو مؤشر الى عناصر الارادة والعزم والطموح والاصرار ، وراء هذه الحضارة الأصيلة . حتى حين بليت مصر باليـونان ومنيت بالرومان فتوارى أسلوبها فى الحيـاة ، وهبطت الحيـاة ، اعتزل آباء الكنيسة مجتمع المدينة احتجاجا عليه وعلى الحاكم الأجنبى . ولكنهم لم يركنوا فى الصحراء الى الراحة أو الخمول ، بل نشروا الأديرة فكان الدير مستعمرة زراعية صناعية لسد جميع حاجات أفراده . بل كانوا يوزعون صدقات كبيرة على الفقراء فى غرب الصحراء كما كانوا يوزعون الصدقات على نزلاء السجون بما فى المسيحية من عطف على المخطىء .

واذ عرفت مصر الخلوة والتأمل فى أعماق الحياة والنفس ، نفذت الى معان كبيرة . ومن طرحها ، الايمان والمحبة والتجرد والتواضـع النفسى .

ومع هذا خاضت مصر المسيحية موقعة الشهداء !

وامتد عطاؤها على مسار التاريخ .

مصر القديمة ابدعت الحضارة .

ومصر المسيحية نشرت الدين .

ومصر الاسلامية خلقت الفن الاسلامى انبثاقا من فنها القديم .

بهذه الصفات النوابغ شيدت مصر (الشخصية المصرية) وهى

اروع اعمالها جميعا .. الشـــخصية المصرية التى اســتوعبت النصر والهزيمة والازدهار والانحلال والصلابة والتسيب ، والعزة والقهر ..

عرفت مصر هذا كله .. واستقطبت مصر هذا كله .. وتحـدت مصر هـــذا كله .. وتخطت مصر هــذا كله .. ولم تكف عن البنـاء والتشييد والعمل ..

وحين عملت مصر عملا دءوبا وكبيرا ، لم تكتف بالكم بل احتفلت **بالكيف** فكانت حضارتها ديانة ، وتدينها حضارة وشفافية وجدان .

وان ازمة الانسان المعاصر ان وجدانه لا يضاهى تقدمه التكنولوجى فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال . انسحقت ذاته يوم احس أن الآلة تغنى عنه فى مواضع كثيرة ، وتلغيه فى مواقع عديدة .

ويعبر ابن البلد عن طحن انســـان أو ســـحقه بقوله « يعدمه العافية » .

وان قراءة الحضارة المصرية والسياحة الداخلية فيها الســياحة المعنوية تعطينا صغارا وكبارا ، العافيه .. القوة .. الأمل .. الحلم . الارهاصات اى همس الوجدان ..

لقد عاشت مصر بالعمل وعاشت فيه .. واتصلت حياتها بالبناء والانشاء والخلق والتجدد والتطور والعطاء .

مصر تبنى دائما

فى السلم : ترفع البنيان كالانسان .. تنقش على الحجر وتحفر على الخشب ، وتفتن أصابعها المدربة ، فى الخلق والابداع ..

وفى الحرب تخوض المعارك ، وتحمى المبادىء ، وتلد البطولات .

وهى فى الحالين تعطى الانســـان اغلى القيم .. ولن يتـوقف عطاؤها .. قد يتفاوت أو يغير مساره أو نوعيته . **ولكنه لا ينضب** لأن العمـل هو اســلوب مصر فى الفن والعلم بـل الدين .. فى الحرب والسلم .. فى الماضى والحاضر يوم خاضت معركة شــهداء اخـرى فى رمضان .

وكمـا حققت مصر المسيحية عن طريق الاستشـهاد والرهبنـة الجوهر اللازم لكى تتبلور وتتجوهر الشخصية المصرية بعـد ان غام عليها اليونان والرومان وغموها ، حققت مصر الاسلامية الحديثة عن

طريق الاستشهاد والعمل تخطيطا وتصميما وتدريبا ، الجوهر اللازم لكى تتبلور وتتجوهر الشخصية المصرية بعد أن اتهمها اليهود وحاولوا أن يطفئوها بأفواههم وأبواقهم ويأبى الله ودينه ورسله والحضارات وكرائم الانسان .

حضرت مصر لموقعة الشهداء الجديدة فى صمت وصبر . ان الشخصية المصرية انتصار على المحنة ، وصبر على البلاء لأن بلاء المحنة عارض يزول فيتألق الخالد ... تتألق مصر .

لهذا نجد فى الراهب والمتصوف والشهيد احسن مافى الزارع والصانع والفنان المصرى لأن الرهبنه بمعنى زرع النفس واستخلاص الجوهر : حياة .

والشهادة دفاعا عن نفيس : حياة .

الزارع والصانع والمجاهد والفنان كل منهم راهب وهب نفسه للقيمة .

والنبى عليه السلام يقول ما معناه : الجهاد رهبانية الاسلام بما فيه من مجاهدة .. وما فيه من جلاء النفس بالشهادة ووهبها للقيمة .

وكم جاهدت مصر .. وكم وهبت .

كم حققت فى غير جلبه او ثرثرة ... وهكذا مصر عندما تملك زمام شخصيتها لا تحب المناقشة والجدل والسفسطة وانما تحب العمل والتحقيق .

ومن يقرأ تاريخ مصر يلحظ شبها شديدا بين ايامنا هذه اى القرن الرابع عشر الهجرى وبين القرن السابع الهجرى .

فالذهبى فى العبر يقول :

فى سنة ٦١٦ هـ حاصر العدو دمياط ووقعت حروب كثيرة .

وفى سنة ٦٢٨ هـ كان غلاء شديد بديار مصر .

وفى سنة ٦٢٩ هـ بلغ النيل ثمانية عشر ذراعا وستة اصابع وتاخر نزوله حتى خاف الناس .

وفى سنة ٦٣٢ هـ كان الوباء العظيم بمصر .

وفى سنة ٦٤٣ هـ كان الغلاء بمصر وقاسى اهلها الشدائد .

وفى سنة ٦٤٧ هـ نزل الفرنج دمياط ثم استنقذت منهم .

واستمر الحال على هذا المنوال الى آخر القرن السابع الهجرى.

فماذا صنعت مصر واهلها على الرغم من الحروب والغلاء والوباء والشدائد والمغيرين ؟

وفى هذه الفترة بالذات بنت مصر المدرسة الكاملية / والمدارس الصالحية للمذاهب الأربعة وبنت المدينة الصالحية .

وفى سنة ٦٥٨ هـ وقفت مصر وقفتها فى (عين جالوت) للتتار الذين اجتاحوا بغداد / وحران / والرها وديار بكر : ثم جاوزوا الفرات واستولوا على حلب / وعاثوا فيها (وجرت الدماء فى الأزقه) كما يقول المؤرخون .

قاتلت مصر التتار **دفاعا عن المنطقة كلها** واوقفت زحفهم بل استولت على ذخائرهم وسحقتهم **فحفظت بهذا الحضارة الاسلامية** كما انقذت الحضارة بعد هذا فى حطين .

استقطبت مصر فى القرن السابع الهجرى النصر والهزيمة والعسر واليسر وانشأت القناطر والأسوار والقلاع والمنارات والدور والقصور والخانات والحمامات بل بنت بالشام المساجد والقناطر .

وجددت مصر الجامع الأنور والجامع الأزهر وارتفعت المآذن طموحا مشتاقا يرتاد آفاقا علوية .. ومن يتأمل المآذن القاهرية التى ولدت فى ظلال الحروب الصليبية يجد فى عمارتها مجاهدة من المربع الى المثمن الى الاسطوانة الى الخلوص الأخير الذى ينتهى بالهلال رمزا للامل والنماء وليلاد .

وفى سنة ٦٨٢ هـ بنت مصر البيمارستان .

صيغ هذا كله ومن حوله الحروب والأزمات والأوبئة ومع هذا كان قومنا فى داخلهم (مينا) ترسو عليها آلامهم وتهدأ ؛ وتنصهر الفحمة وتصير جذوة متوهجة يتحول الحجر الصخر فى ضوئها الى حجر كريم .. ويشرق شارع المعز بالروائع من صنع الصابرين الأقوياء (بالقدرة) الموهوبين بالوراثة .

بهذا تقف مصر فى مواجهة الاحداث قادرة على الاستعلاء على الالم مهما جثم وجسم يعلو وجهها النبيل غبرة ، ترهقها قترة ولكن داخلها سليم لا يقهر .

وتنجلي الغاشية ويزول الشر عنها ، ويفنى أعداؤها وتظل هى الباقية .

لم تعرف مصر حائط المبكى . ان المصرى بطبعه وطبيعته ووراثاته، يرتفع بسرعة على حـزنه الكبير .. يرتفع عليه وهو يحسـه فى داخله احساسا عميقا .. بل لعله بقدر هذا الاحساس يكون ارتفاعه .

المصرى من وثوقه بالله ، وثقته بنفسه يستقطب الهه فى داخله ، ويستدير هو يعيد البناء ، والشواهد كثيرة من تاريخ مصر .

وفى القرن الرابع عشر الهجرى أو العشرين الميلادى واجهت مصر النار والدمار والحـروب والتتار الجـدد من كل لون وجنس ولكنهـا انتصرت ... ان الصعوبة عندها ايذان بنمو جديد وارتقاء مصرى جديد لأن التغلب على الصعوبة ، ارتفاع فوقها .. فحين تقتحم مصر العقبة ، وتعلو على المحنة ، وتعبر المشكلة .. تتجدد ولا تتبدد .. ان تحضيرها لهذا فى صمت وصبر ، وانتصارها فى اصرار وعزم ، نماء واستعلاء فى شخصها وشخصيتها .

واذ يزول بلاء المحنـة لأنه عارض ، يتألق الخـالد لأنه باق .. تتـألق مصر ويتـأرج الطيب من حـرق العود .. وتضـوع مصر ولا تضيع .

ان مصر دائما تواجه الهدم والتخريب باسلوبها الحضارى ... تترك للقانون معاقبة الجانى وتترك للزمن من ينجو من العقاب فيتآكل حين تستدير هى تعيد البناء .. بناء المدن بالعلم ، وبناء الانسان بالدين ، لان البناء والانشاء والعلم والفن والدين ، قيمها الرفيعة التى عاشت عليها منذ القدم ..

أحبت مصر الحياة

أحبت مصر الحياة ، فانتصرت على المحنة بالاستعلاء والبقاء بل انتصرت على الموت بالخلود والحضارة .

كانوا من حبهم للحياة لاينطقون اسم الموت بحروفه بل يكنون عنه فيقولون عن الميت :

(عبر الى الضفة الأخرى)

او (ربط حبال السفينة فى المرساة)

او (جاء معظما فى الأفق)

او (سافر حيا)

والحياة الاخرى عند قدماء المصريين انما تكون فى السماء والعالم الآخر عندهم ليس العالم السفلى بل العالم السماوى ، الموت هو الصعود الى السماء على شعاع من نور (ولقد ضرب لنفسه شعاع «رع» ليصعد فيه) .

والمصرى القديم كان يرى فى بهاء سماء مصر الصافية ليلا أرواح اعزائه السابقين تتلألا وتطل عليه فى شكل نجوم .. فنجوم السماء فى عين المصرى ارواح الأحبة .

كان المصرى لايتصور احبابه الراحلين موتى فى بطن الارض بل ارواحا مجنحة تحلق كالطيور وترتفع فى السماء وترتفع على الاعداء . فاذا أقبل الليل ، تملاها فى الجهة الشمالية من السماء نجوما ابدية او كما يسميها (غير الفانية) .

وتصوره هذا يفسر بأنه يقصد النجوم القطبية التى لاتغرب ولا تغيب .

شفاف هفاف خيال مصر كروحها .

والفصل ٤٦٧ من متون الاهرام يقول :

انه ليس من أهل الأرض بل هو من أهل السماء .

ان الملك قد طار الى السماء فى صورة سحابه مثل طائر الواق .

ان الملك قد قبل السماء كصقر .

ومن متون الاهرام الفصل ٢١٠ سطر ١٣٦ .

« ان فم الملك لطاهر وان التاسوعين قد بخراه

وان لسان الملك الذى فى فمه طاهر

وانه يمقت البراز ويعاف البول .

وانتما يا «رع» و «تحوت» خذاه اليكما ليكون معكما وطعامه معكما ايها الالهان وشرابه مثل الخمر التى يشربها «رع»

وانه يحيط بالسماء كرع ويخترق القبة الزرقاء مثل تحوت (القمر) .

ومن الفصل ٤٣٩ سطر ٨١٢ .

ان الملك لأعظم روحانية اكثر من الارواح

وانه لفاخر اكثر من الفاخرين

وانه لثابت اكثر من الثابتين .

الموت فى راى المصريين القدماء **نقطة التمام** لا النهاية فكانت مصر القديمة لاتغمض عين الميت . والتابوت المصرى تلفه السكينة والسلام والحضور القدسى . لقد آمنت مصر بخلود الروح قبل أن تأتى الأديان .

التابوت المصرى ، غطاؤه فيه نوت الهة السماء تنشر ذراعيها كجناحين اى دعاء بالرحمة والصعود فى انطلاقه من الاسار الى الرحباب العليا .

الراحل المصرى تظله السماء وترعاه

الحنان لا يفارق المصرى حيا وميتا .

الموت فى الرؤية الدينية ، **رقى** ، بالانتقال من حياة الجسد الى حياة الروح . وقد تكشف القلب المصرى هذه الرؤية قبل الاديان .

فانكر الموت واستعلى عليه حين تحداه بالخلود اعمالا باقية ، وذكرا عاليا ، وتاريخا مسطورا .

يموت الناس حين تغيض الرؤية .

ومصر الخالدة برؤاها ... لا تموت .

لا يموت من حقق ذاته ، وعاش حياته ، واضاف الى الانسانية ، واضفى عليها .

ان موضوع متون الاهرام ، الحياة ، لا الموت . الحياة الأبدية للملك .. حتى كتاب الموتى لم يعرف عندهم بهذا الاسم وان كان طقوسا جنائزية .

الموت نقطة التمام فى راى مصر .

ومن هنا نفهم خطاب الله للرسول عليه السلام :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا) .

وبكى الرسول وبكى من حوله .

ان التمام ايذان بالرحيل .

ومن هنا ايضا نفهم قولهم (عبر الى الضفة الأخرى) اى حيث تتواصل حياتهم كما عاشوها (بالتمام) .

ان جنة المصريين ، مصر خالدة .

ويصفون جنتهم بأنها (العادلة الحقة التى لا أهوال فيها ، انهـا تمقت الشجار . وليس هناك انسان يحذر زميله . هـذه الارض التى لا عدو فيها . وكل أقاربنا ماكثون فيها منذ أول يوم فى الدهر) .

ومن تعلقهم بالحياة ،نبعت **فكرة الخلود** عندهم . وفكرتهم عن الخلود والحياة الاخرى كانت وراء حضارتهم كلها بفنونها وعلومها . ومن اجلها خدموا طاقاتهم كلها .. طاقاتهم الفنية ، وطـاقاتهم المادية على السواء ...

احبت مصر الحياة حبا منتشيا .

مصر من حبها للحياة تجاهلت الموت بعـدم الذكر ، أو تحـدته بالارتفاع فوقه ، وبسرعة . ان قصة أوزوريس وست التى كان يمكن

ان تشكل تراجيديا كبرى ، نقلتها مصر الى ساحة المحكمة ، أو ميـدان الصراع . فالحوادث كلها محاكمة أو جهاد فى محاولة رهيبة من ايزيس لتجميع أشلاء أوزوريس .

لم تقف مصر طويلا عند نقطة الموت . بل عبرتها بسرعة . لقد بكت ايزيس وانتحبت ولكن مصر من خلالها لم تقف طويلا عنـد نقطة القتل لأنها تحيا ... لانها لاتعترف بالموت نهاية .

مصر تستبعد الاحشاء القابلة للتحلل والفناء ، من الجسـم .. وتحفظها أيضا ولكن بعيدا .. أما الجسم فيعنى به عناية كبرى .. وفى سبيل هذا استبدلت الأعضاء التالفة .

والتحنيط ليس من اجل المستقبل وحده بل حفاظ على الماضى أيضا .

ان البسـطاء وحدهم ، هـم الذين أثر عنهم ، من بين المصريين ، العويل واللطم لأنهم يرون الموت ساحقا يسحقهم وهم الذين يحبون ، كبلدهم ، الحياة ... ومن ثم يعيشون طويلا فى الموقف . .

ولكن الانسان المصرى الواثق عندما يحزن ، يستقطب الله فى داخله ويستدير هو يعيد البناء .. والشواهد كثيرة من تاريخ مصر .

وعلى هذا لم تعرف مصر التراجيديا .. حتى المسيحية المصرية ركزت على الأم لا الصلب ... ركزت على الأم بحس بعيد من ايزيس وهاتور ...

لقد نشأت التراجيديا فى الأدب الغربى ولم تنشأ فى الادب المصرى. ولعل مقدمة نيتشه عن مولد التراجيديا ، تعلل هذه الظاهرة . فقـد تساءل نيتشه .. لماذا ولد بطل احـدى الكائنات الاسـطورية ولماذا يعيش ؟ ثم خرج من حيرته بقوله :

انه كان يجب (الا يولد) !

هذه العبارة مفتاح الفكر الاوربى . انها رد على الموت .

على حين أن مصر لم تعترف بالمـوت اصـلا . اذن ليس هنـاك ماساه .

ان التراجيديا عند مصر تتمثل فى ذبح الثور وتقديمه قربانا ثم قال حكيمهم (عملك الطيب احسن عند الاله من القربان) .

الفكر الأوربى يقول ، ان الأفضل الا تكون هناك حياة . والفكر المصرى يقول الحياة سرمد ولا موت .

لقد عنت مصر فى اهراماتها بصالة تجديد الحياة حتى الشيخوخة يرفضـونها . وفى معبد أمنحتب بسقارة رسـم لزوسر (الشيخ) بعد أن علت سنه ، وهو يجرى عريانا لتجديد نشاطه .

والمصرى فى تصويره ولوع بسن الازهار والتفتح فالمرأة خاصة فى الصور المصرية ، فتاة فى ربيع العمر أو شابه فى اكتمال النضج فى سن الثلاثين . انه تشبثهم بالحياة من فرط ما وفرته لهم مصر من نعيم .

والفن المصرى نفى الموت وتفتح للحياة فى نشوة بها .. ولهذا يحس فيه متامله ، انتباهه حقيقية .. كل تمثال فيه انتباهه بالعين أو الصدر أو الجلسه .. فيه السمت المتحضر ... وفيه النبضـة تشـيع .. كالصحه فى الجسم السليم .

فى الفن المصرى تفاؤل وايناس .

ان معبد ميراروكا (وهـو وزير من الأسرة السادسـة) به ثلاثة وثلاثون قاعة مملوءة بالنقش واللون .

المعبد المصرى يضج بالفرح فالاله فى المعبد يغسل ويعطر ويزين ويغنون له ويرقصون .

حتى المقابر مرسوم عليها حلقات الرقص وعصير العنب والطيور الشهية فلا توحى بالحزن .

انها متحف للفن يسعد الرائى . فكل شىء فيها حى مبتهج .

انه حب الحياة دليل طمانية وسكينه بعد ان زرع وعرف الرعاية والشمس والماء والحيوان ... اصطلح مع المكان وتحاب مـع كل شىء فيه حتى غدت مصر فى عينه جنـة ، وغـدت الجنـة فى فكره ، مصر خالدة .

وحين اصطلحوا مع الحياة ، اكسبهم التلاقى ، انشراح الصدر ، وانفتاح القلب وقراره وقرته فأعطوا بسخاء من معين فياض .

وانشراح الصدر سر الوسامة النفسية فى التمثال المصرى .. وفى الروح المصرية التى نسميها خفة دم .

ان البشر سر من اسرار الشخصية المصرية فهو يفسل بحـرا من الهموم .

الشعب المصري يطرب ويضحك ويتفكه فيحسبه الجـاهل به ؛ سهلا وهو صعب يستطيع حين يريد ان يأتى بالمعجزات ويركب الصعب حين لا تدل الدلائل من وجهة نظر المراقبين ، عليها ..

ومن القداسة ، الفرح .

ومن البشر ، البشرية .

انشراح الصدر يتبدى فى الكتابة الهيروغليفية .. حروفها كائنات: ناس وحيوان ونبات . ولا يجلو جمال الهيروغليفية كالمقارنة بينها وبين المسمارية .

انشراح الصدر يتبدى فى الاحتفاء بالانسـان

والاحتفال بصور البورتريه دليل ادراك قيمة الفرد ..

ان فن البورتريه المصرى اقدم واعمق فن بورتريه فى العالم .

انشراح الصدر يتبدى فى العمل كمفتاح للحياة ..

صبره عسل ، ورهقه راحة هائلة ...

انشراح الصدر يتبدى فى التفتح للانوثة .

لم ينضج قلب كالقلب المصرى لمعانى الانوثة .

فالفن المصرى مزاج من الانوثة والذكورة ولهذا فيه وداعة القوة ، وقوة الوداعة ...

الرجل المصرى رحيم حساس وقوته فى رحمته .

والمراة المصرية قوية بالوداعة .. والوداعة فيها فرط حنان الذى يجعلها كايزيس رمزا للفداء والوفاء كما هى رمز الاصرار وطاقة العمل.

انشراح الصدر عناق للحياه .

احساس مصر بالكون الشامل

الحضارة المصرية تعكس ما فى النفس المصرية من حنان ورقة . أحبت مصر الحياة فى احساس شامل بالكون . حتى الحيوان احبوه وملأوا بصوره لوحاتهم رمز الطيبة التى تصادق كل شىء حى ... رمز ايمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفه والمتصوفة واصحاب النظريات .

ان التعاطف مع الحيوان ليس تدليل قط أو حصان لأن هذا نوع من حب النفس ، والملكية . ولكن التعاطف مع الحيوان ، تمثيله فى الفن ووعى حقه فى الحياة ككائن . لقد كان المصريون يعتبرون الخنزير نجسا .. كما كانوا يكرهونه لاعتقادهم أنه فقأ عين حورس بن اوزوريس الههم المحبوب . ومع هذا صوروه وهم يلاعبونه ويطعمونه وينتظره الساقى وفى يده اناء جميل ، حتى يفرغ الخنزير من طعامه ليسقيه !

كانوا قادرين على التجرد الذى يفصل بين رأى الانسان فى العدو ، وبين الواجب له ككائن حى وهى قمة الانسانية والمثالية .

وفى القرآن الكريم **(لا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى)** .

الانسان المصرى فيه حنان حتى فى تصوير (الذبح) فاليد التى تسند رجل الثور ليستطيع القصاب ذبحه ، تتصل به فى لمسة تريح ، وتنسى العين الدم المسفوح .

الانسان المصرى بحسه الحضارى قادر على أن يحول كل حدث الى قيمة حضارية .

على الجدران فى المعابد المصرية ، صورة للبقرة تلحس ذيل ابنها ، والرجل يساعد العجل الصغير على الصعود الى المركب .. ويسحبه من

رجله الامامية ولكن راسه التفت الى الوراء تتكلم بعينيها مع الأم التى تتقدم القطيع السائر فى الطريق نفسه .

وآخر يحمل معزة كما تحمل اليابانيات اطفالهن على ظهورهن .

الانسان المصرى فيه حساسية مترفه ومفرطة أيضا . فالرسام المصرى لا يكمل ثوب راعى القطيع اذا تلاه فى الصورة حيوان حتى لاتمسه الثياب !

وعندنا فى الريف يكنى عن الجرح يقولهم : (طرف منديلك طرف عينى) . فهل رسب الانسان المصرى القديم فى اعماقنا ان مجرد اللمس بطرف الثوب ، ليس من اللياقة الحضارية ؟

ان المشتغلين بالأدب يطربون لقول الشاعر فى الغزل او وصف الحبيب :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه

وما دروا ان الرسام المصرى سبق ، وفى بلاغة اكثر ، الى القول ، بأن لمس الحرير يدمى بنان الحيـــوان على اطلاقه فكان أرق تعبيرا واعم من هذا ، أعمق انسانية .

لقد كان قدماؤنا بحسهم الحضارى الانسانى يعرفون حرمة الحياة ، ويحترمون الكائنات بأنواعها ...

فى الفصل الخامس والعشرين بعد المائة ، من كتاب الموتى ، يقول المتوفى ، عند الحساب :

« لم الحق ضرراً ما بأى انسان

ولم أعمل على اشقاء حيوان »

أسلوب تفكير واسلوب سلوك .

أسلوب حضارة .

من حبهم للحياة ، كانوا يدللون كل حى حتى الحيوان . فالغزالة لايعلقون فى رقبتها حبلا بل يغطون جيدها بشال انيق طويل تولع به فى ايامنا هذه ، الأنيقات .

والثور لايضعون على رقبته ، مثلنا ، خشبة المحراث مسطحة ، بل يجوفونها على مثال الرقبة حتى لا تحز فى عنق الحيوان .

البقرة عند مصر القديمة ، ودادة ورفق .. وداعة وحنان .. رعاية وعطاء ولهـذا رمزت بها الى الأمـومة والى الطبيعة وهى الأم الكبرى .

وهذا يعنى **تفـاؤل مصر** مادامت ترى فى الدنيـا حولهـا هـذه المعانى .

وللبقرة عند مصر دالة خاصة . فالاسطورة المصرية الـكبرى ، ايزيس واوزوريس ، تقول ان ايزيس الالهة المصرية المحبوبة أودعت ابنها حورس عند الالهة هاتور فى الدلتا فأرضعته البقرة وغذته حتى نمـا وترعـرع . فحفظت مصر الجميل للبقـرة وحنت بـدورها على ابنهـا .

وككل فكرة يضفى عليها القدم أشياء ، أصبح العجل ولد البقرة ، له مكانة خاصة أو قداسة .

الفكرة فى أصلها وفاء لا شرك .

فى القلب المصرى أبوة وأمومة لكل شىء . قلب يرأم الحيوان بل الحجر .

نعـم الحجر . انه يرأم الحجـر حين سواه وحـلاه بالنقش والتشكيل .

ان الثقافة الفنية ، تصرف كريم .. وقد كان عند قدمائنا ثقافة فنية بالمعنيين : العلمى والانسانى .

وكما احبت مصر الحيوان ، احبت الطيور .

حورس صقر ..

حورس ليس ابن اوزوريس وحده .. انه ابن مصر كلها .

وعرش مصر يحوطه نسر وحية وقرص شمس

الحية ضد الاعداء

والنسر دعاء بالتحليق

ان السماء تفرد على مصر جناحا وتغمرها بالنور .

نور الشمس

ونور النور .. الله .

مصر والدين

- مصر قبل الأديان
- مصر بعد الأديان

- مصر في المسيحية
- مصر في الاسلام

مصر قبل الأديان

تصورت مصر الاله قديما موغلا فى اعراق القدم فى روعة فائقة .. تصورت مصر الاله قبل ميلاد المسيح بأربعة عشر قرنا (منقطع القرين فى صفاته) أى (**لم يكن له كفوا احد**) .

ففي عهد (امنحتب) الثالث ترك لنا رجلان من رجال العمارة فى عهده انشودة سجلها على لوحة توجد الآن فى المتحف البريطانى نقبس منها هذه السطور :

« انك صانع مصور لاعضائك بنفسك .

ومصور دون أن تصور .

منقطع القرين فى صفاته مخترق الأبدية .

مرشد الملايين الى السبل ».

ولأمر ما ظهرت الأديان جميعا فى المنطقة المحيطة بمصر .

يقول برستد : (ان « ماعت » قد نشأت فى أول أمرها بمثابة امر شخصى خاص بالفرد للدلالة على الخلق العظيم فى الاسرة او فى البيئة التى تحيط بالانسان مباشرة ، ثم انتقلت بالتدريج فى سيرها الى ميدان اوسع فصارت تمثل الروح والنظام للارشاد القومى والاشراف على شئون البشر بحيث تكون الادارة المنظمة مفعمة بالاقتناع الخلقى .

وبتلك الكيفية وجدت لأول مرة بيئة ذات قيم عالمية ، وحينما بدأ المصريون يتصورون الحكم الالهى لهذه البيئة كانوا فى الحقيقة يسيرون فى الطريق المؤدى الى عقيدة التوحيد السامية . وكان ذلك الحاكم الالهى هو اله الشمس ، وقد تخيل القوم روح حكمه فى شكل شائق بأن تصوروا « ماعت » فى هيئة الهه وجعلوها بنت الشمس . وبالسير فى هذه السبيل وصل المصريون فى النهاية الى عقيدة التوحيد الرفيعة ،

فلم يكن من مجرد المصادفة ان كان ثانى الشعوب اهتداء الى عقيدة التوحيد المذكورة اقرب جيران مصر عبر حدود آسيا فى فلسطين .

وقد قال أحد أنبياء اليهود : « اليكم يامن تخافون اسمى ستشرق شمس العدالة تحمل الشفاء فى جناحيها » ويشير هذا التعبير بداهة الى اله الشمس المصرى القديم الذى يرسم عادة فى صورة قرص الشمس المجنح .

وبذلك يتضح لنا على الفور عندما ننظر الى الامام متجهين نحو آسيا ، لماذا اتت حضارة غربى اسيا متأخرة فى مثل هذا التطور ؟

فالتصور المصرى للنظام الادارى والخلقى العظيم ، الذى اطلق عليه اسم « ماعت » والذى صار أسمى مظهر للحضارة الشرقية القديمة ، كان كما راينا نتيجة للتطور الاجتماعى الحكومى مدة الف سنة من حياة امة عظيمة موحدة ثابتة منظمة كانت تخطو دائما فى خلالها نحو الارتقاء والتقدم ..) .

وغير برستد نجد د . هول قد مضى يسجل لمصر ان اليهودية استعارات منها كثيرا من الشعائر ، والمعبودات (ولا ريب فى ان نفوذ مصر على اسرائيل كان كبيرا وقت طرد الهكسوس من مصر ، وهو على الأرجح الأصل التاريخى لقصة الخروج كما ظن يوسفوس) .

ومن مدرسة مصر الثقافية طائفة (الآسين) بين اليهود وهى من اقوى الطوائف اليهودية او هى تزيد عليها فى القوة والاثر وان كانت اقل عددا . ويرجح الأستاذ العقاد أنها نشأت بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيرا من انظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغورس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل فكانت لا تقدم القرابين من غير النبات .

وطائفة الآسين بما قبسته من الاسكندرية ، تميزت بين طوائف اليهود حتى كادت بآرائها الخاصة أن تستقل عن الهيكل كله فى علاقاتها بالدين والقومية .

كما أننا نشاهد نفوذ مصر كما يقول الاستاذ محمد شفيق غربال (فى ازدياد مظاهر الملكية عند اليهود . وترجع فخامة العمارة وابهتها فى عصر سليمان بعض الشىء الى محاكاته المصريين دون شك ، فشكل المعبد ذاته فى جملته بأبهائه ومدخله ، والعمودان البارزان القائمان

كالمسلتين أمام المدخل . وكذلك الاسدان القائمان على عرش سليمان، وكل ذلك يحمل الطابع المصرى . وفى الحقيقة كان نظام ملكه منقولا عن الامبراطورية المصرية الكبرى) .

ومصر التى فاقت مقاييسها الخلقية الوصايا العشر ومتى ؟ قبل أن تكتب الوصايا العشر بالف سنة .

بل أن مصر بخلقياتها ومجتمعها سبقت العبريين بثلاثة آلاف سنة وكان أدبها ركيزة للتوراة .

بل ان تفكير اخناتون الذى نفذ الى ماوراء المادة (هو الذى مهد الطريق لكثير من التطور الذى ظهر فى الديانة فيما بعد الى عصرنا الحالى) .

بل ان برستد يعد (الاصلاح الذى ادخله اخناتون فى أيامه انقلابا بعيد المدى لا يقل عن الانتقال من الوثنية الى المسيحية وابعد مدى من الانتقال بعدها من المسيحية الى الاسلام) .

ولم يشبب اخلاقيات مصر ، كبابل ، ركام الكد فى الحاجيات الالية او زحام الاقتصاد التجارى حتى أن دستور قوانين (حمورابى) يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى او المذنب حين امحت الفوارق الاجتماعية أمام القانون المصرى القديم .

وكما اعتمدت اليهودية على مصر فى (العهد القديم) اعتمدت المسيحية على مصر فى العهد الجديد . فالاله تحوت حين رد البصر الى حورس ، صورة ظهرت فى العهد الجديد ممثلة فى المسيح يبرىء الأعمى .

وايمان مصر القديمة بالثالوث ايزيس — أوزوريس — حورس — كان قبل قول المسيحية بالأب والابن والروح القدس . يقول المستشرق الفرنسى اميلينو « ان روح الله القدوس فى دستور الايمان المسيحى ، انما يقوم مقام « الالهة الأم » فى عالم اللاهوت المصرى) .

وجاء عيسى مصر . ومن مصر دعى (من مصر قد ناديت ابنى) هوشع ١١ : ١ متى ٢ : ١٥ .

ومن الأعياد القبطية عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير ، ويوافق هذا العيد أول يونية من كل عام

وتحتفى به بدرجة خاصــة كنائس مسطرد والمطرية وابو سرجه وهى اماكن اثرية بما حظيت به من زيارة السيد .

جاء المسيح الى ارض مصر ليجد فيها ماوى يقيه غدر هيرودوس.

وفى القرآن الكريم : (**وجعلنــا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين**) المؤمنون .

واقبل على مصر الحوارى مرقص وكتب فيها انجيله الذى يعــد من (ابلغ الأناجيل اسلوبا واوفرها حكمة) مما يعده **بعض الباحثين اثرا من آثار مصر فى ذلك** الحوارى الجليل الذى مات فى بلادنا ودفن فيها .

يقول فلاندرز بيترى (لو اننا حاولنا ان نستعين بخيالنا لادراك الحقائق التاريخية فتصورنا ان الايمان بالثالوث المقدس لم يمحض ، وان الرهبنة لم يقم لها اثر وان الطفل يســوع المحمول على ذراع امه العذراء ظل مجهولا فى العبادة وفى الفن .. لو تخيلنا هذا كله لأدركنــا ما احدثته مصر من اثر فى المسيحية وكيف ان هذا الاثر بعيد البعد كله عن التعاليم اليهودية) .

وفكرة (المخلص) عرفتها مصر بعــد عصر الأهرام وعنها اخذها العبرانيون ، فالمسيحيون .

يقول اميلينو (نجد فى كتب مصر المقدسة الاعتراف بالخطيئة .. الأصلية والوعد بالاله المخلص وتجديد البشرية) .

ويقول اميلينو انه على الرغم من ان الشعب المصرى تعددت فيه الالهة فان الكهنة والحــكماء من بينه كانوا يعلمون علم اليقين ان الله واحد .

واقول ليس الكهنة وحدهم بل افراد عاديون ايضــا من ســواد الشعب ، يؤيد هذا قصة مرقس مع الاســكافى بالاســكندرية وسواء اصحت هذه القصة ام لم تصح فان دلالتها باقية .

وعرفت مصر التبتل بل اقدم ما عرف من الزهد والورع الشخصى فى معناه الروحى العميق .

عرفت مصر ما بين ١٢٠٠ ــ ١٠٠٠ ق.م الشعور بالخطيئة وبها تاثرت اليهودية فالمسيحية .

واتخذت المسـيحية علامة الصليب من علامة الحياة (اونخ) أو (عنخ) عند قدماء المصريين .

حتى البخور أخذت فكرته الكنائس المسـيحية عن مصر القديمة حين كان البخور (رابطة الألفة بين الآلهة) .

وكمـا رسم قدماء المصريين الاله حورس يدوس ست اله الشر تحت أقدام جواده ، رسم المسيحيون مارجرجس ممتطيا جوادا يطعن الشيطان بشكل تنين .

. وكما كان اخناتون رسولا لكل من عالمي الطبيعة والحياة الانسانية ، كان عيسى يستقي دروسه من سوسن الحقل وطيور الهواء وسحب السماء ، والناس حوله . ودليل هذا قصص المسيحية (الابن المبذر أو (الطيب السامرى) أو (المرأة التى اضاعت قطعة من نقودها) ..

يقول الأستاذ محمـد شفيق غربال فى كتـابه (تكوين مصر) فى حديثـه عن بيئة الايمان المصرى الخـالص ، والرجاء المصرى الصميم (كان شغلها اقامة الشعائر التى تطلبتها عبادة أوزوريس . وتقوم تلك العقيدة على توجيه الايمان وتوجيه الطقوس للحصول على البعث بعـد الموت بفضل أوزوريس الذى بعث بها بعد أن ارداه الشر قتيلا ، ولذا كان هم المؤمن المصرى أن يؤدى الطقوس السـحرية التى بهـا تغلب أوزوريس على المـوت . ولو ان الوازع الخلقى لم يغب عن المـؤمنين المصريين فقد آمنوا أيضا بالحساب والميزان يسـبقان نعيم الأخرى . فلم يكن عجبـا اذن أن تلقى المسـيحية وقد نادت بالخلص الذى قهر الموت اذنا صافية ولقاء حسنا) .

ويقول : (ان المسـيحية قد لاءمت فى مصر بين خصـائصها وبين خصائص الدين القديم الأساسية لمدى أوسع مما شهدناه فى أى بلد آخر اللهم اذا اسـتثنينا بلاد اليـونان . فاذا كان أكثر المصريين قد أصبحوا عنـد منتصف القرن الرابع مسـيحيين فمرد ذلك الى انهم خلقوا لأنفسهم دينا قوميا من المسيحية وذلك بأن لقحوا هذه الديانة ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها) .

هذا بعض عطاء مصر لليهودية والمسـيحية ، أما الاسلام الذى ردد اسم مصر كما لم يردد بلد آخر فقد تجاوبت مصر معه لما فيه منهـا .. فمصر القديمة قالت بالحساب فى الآخرة كما اشرنا . يقـول برسـتد (ان ظهور فكرة الحساب فى الآخرة وهو شيء لم يعرف فى آسيا الغربية

قبل « زروستر » ، قد أوجد نظرية قوية أن « زروستر » قد أخـذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية القديمة) .

وكان الواحد منهم حين يعد قبره يكتب عليـه يناشـد الأحيـاء المارين به ، الدعاء له كما نقرأ نحن الفاتحة رسائل رحمـة من الأرض الى السماء .

لقد وضعت مصر القديمة القلب فى كفة ، وفى الكفـة الأخـرى علامة الحق (ممات) ورمزها ريشة .

ان تركيز مصر على القلب ووزنه بالريشـة ، اشـارة الى رؤية مصر للقلب .. انه بالصفاء والشفافية ، يوزن ويقدر لا باللحم والدم .. لا بالكيلو والطن .

الا يذكرنا هذا بالمعنى الذى ورد فى القرآن الكريم .

(ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن الى القلوب التى فى الصدور) .

وبالآية الكريمة **(الا من أتى الله بقلب سليم)** .

لا ببناء الجوامع رئاء الناس ، ورياء المجتمع .

اختارت مصر الريشة .

وبهذه الريشة أو بجزئها العلوى العارى من الريش

اقسم الله فى الاسلام .

اقسم بالقلم وبما سطر .

وبالقراءة فصل الله بين عهدين : الجاهلية والاسلام .

بداية الرسالة الاسـلامية .. وبداية الحضـارة الاسـلامية . **القراءة** .. ليست قراءة الحروف فحسب بل **قراءة المعانى** وراءها . وكم قرأت مصر وكم كتبت وسطرت .

نفذت مصر الى معالى الحق والخير والعدل فى فجر الزمان قبل ان تأتى الاديان .

ان بلوغ هذه المعانى واستشعار القداسة هو الشعور بالقانون **الرابط** للأشياء ، **الرابض** وراء الأشياء .

ومما يحسب لمصر ان **شوقها الى الحقيقة لم تدفع اليـه حاجة ملحة** والحاجة أم الاختراع كما يقـولون ولـكن مصر استشرفت الى

الكمال والى معرفة الله من خلال اخنــاتون الملك الســيد الذى لم تكن عنده مشكلة . ومع هذا كله الغنى الملك الامبراطور ، القابه الملكية كلها، حين شعر بضــآلة الانســان مهما بلغ ، الى جانب الله المتفرد بالعظمة والجلال وسمى اخناتون نفسه :

(العائش على الصدق) .

وهنا وصل ، بعد التجريد ، الى **التجرد**

والتجرد من الأشياء المادية لا يعنى جهلها او تجاهلها ، وهو الملك الواسع الغنى ، ولــكن يعنى التحرر من ســيطرتها ، يعنى احتواءها صورة فى داخل النفس ، لا اقتناءها عينيات خارجها .

هنا يصبح الجسم الكثيف ، الجسم الماسى كما يقول الصينيون.

هذا القانون أو السر الأكبر ، نفــذ اليه اخنــاتون العظيم ، فى سبحاته ، يرفع صلواته الى الرحبات العليا ويتمتم بلغة عذبة جميلة وصوت سرى عميق تارة ، ومترنما تارة أخرى ، بنشــيده الجميــل الصافى مما أخذته عنه مزامير داود :

(١٠٤ ــ ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦) والمزمور ٥٤١

وعندما يصبح الصباح ، وتطلع من الأفق ،
وعندما تضىء كآتون اثناء النهار ،
تطرد الظلمة وتهب أشعتك ،
فالأرضان فى عيد كل يوم ،
ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،
لانك انت الذى ايقظتهم ،
انهم يعيشون لانك اشرقت من اجلهم .
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،
لأن اشعتك تتغلغل فى المحيط .
انه شعاع من ايمان ولكنه عندما يقول :
« أنت خالق الجرثومة فى المرأة

والذى يذرأ من البذرة اناسا
وجاعل الولد يعيش فى بطن امه
مهدئا اياه حتى لا يبكى
ومرضعا اياه حتى فى الرحم
وانت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل انسان خلقته
حينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته
وانت تفتح فمه تماما
وتمنحه ضروريات الحياة » .

ويقول (انت الذى تنفخ فى الفرخ وهو مضغة فى بيضته فتهبه الحياة انت الذى تتم خلقته فينقر البيضة وهو فى باطنها .. فاذا خرج عنها جعل يصىء بقوة تامة وهو يجرى على قدميه ساعة يخرج) .

هنا نور النور . انه الله فى هذا النشيد . أنه الله فى اناشيد اخناتون الذى يجعل الشمس تطلع من الأفق ويجعل الفرخ يخرج من البيضة بعد أن يهبه الحياة ، والذى ينزل المطر من السماء نيلا للأجانب ويرسل النيل (الحقيقى) من العالم الآخر لأجل مصر .

من علم اخناتون العظيم ، هذه الأسرار ؟

حقا عالم عجيب .. البيضة .

كان احد الفلاسفة يوصى لزائر المتحف أن يتأمل بيضة قبل أن يدخل فالبيضة تنظم النفس فترى .

وما أبلغ تعبير ابن البلد حين يقول (طلع من البيضة) كناية عن النمو والانطلاق .

ان الديانة المصرية القديمة يظلمها من يسميها (وثنية) ويحكم عليها بعد خمود فورتها الحقيقية حين عاشوا ادراك وجود الله من وراء المعبود المحسوس .

هل من الوثنية أن تترنم مصر بهذا الدعاء ، المأثور عن عهد امنحتب الثالث :

(أيها الموجد الذى لا موجد له
ايها الواحد الأحد الذى يطوى الأبد

انت الأم البارة للالهة والبشر
والصانع الدءوب الخالد فى اناره التى لا يحيط بها حصر
والرامى ذو القوة والباس يرعى رعيته
ولولا ملاذهم ما تهيات لهم حياة .)

وعند الحساب يقول المصرى ، كما جاء فى كتاب الموتى :

« لم ارتكب ما يغضب الاله
لم اتسبب فى بكاء أحد
ولم اتسبب فى حرمان انسان من حق له
لم انقص المقياس
ولم اطفف فى الميزان
لم اختطف اللبن من فم الرضيع
ولم اطرد الماشية من مراعيها
ولم أصد الماء فى موسم جريانه
ولم اقم سدا فى مجراه
ولم اطفىء شعلة فى وقت الحاجة اليها
ولم اعترض على ارادة الله . »

ليت الانسان فى كل مكان فى شرق او غرب

ليتنا بعد آلاف السنين نلتزم هذا او بعضه . لتقل الحروب ، وتعود الحقوق ، وتخف امراض القلق والأعصاب ، ويتراحم البشر وتهدأ حدة الصراع ، وترشد أسباب النزاع .. لتهنأ الحياة .

كانت مصر قبل الأديان امة وسطا .. الوسط الذهبى كما يقول الدكتور حمدان .. الوسط الخير النبيل .

ان حضارة مصر اشد الحضارات احتفالا :

بالدين والعمل .

تنزل الدين على مصر اى عرفته بطريقتها هى .. برؤيتها القلبية .

هناك انبياء لا نعلمهم .

• وفى القرآن الكريم : (**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**) ٧٨ ك غافر ٤٠ .

وفى القرآن الكريم : (**ورسلا قد قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**) ١٦٤ م · النساء ٤

انا فى سقارة نرى : العمل فى حركة دائبة
والحركة فى همة فائقة
والهمه فى يقظة عجيبة

ومع هذا ليس هناك نص دينى الا قليلا .

ولكنك امام الطرح الرائع للعمل الفتان ، تحس الغائب الموجود ... تحس الوعى بمعنى الوجود .

هل عبد المصريون التماثيل ؟

فى العصور العظيمة فى عنفوان حضارتهم ، لا .

التمثال فى مفهومهم مساعدة للانسان على التركيز .

ان الصلاة فى الاسلام تصح فى اى مكان ولكن المسجد يجمع شتات النفس عند الصلاة ، كما لا يستطيع مكان مفتوح خارجه .

لقد اله المصرى : الزهرة .. والنبتة .. والحيوان . والتاليه هنا معناه رؤية وجه من وجوه القداسة فى احساس بالكون كله .. بوحدة الوجود .

... ...

عبد المصرى كل شىء كلون من الائتناس ، يضفى عليه الايناس .. البشر .. الصمود .. الدعة .

لقد عبدوا الحيوان .

نعم ولكن لأنهم لمسوا فى الحيوان :

* الحياة المشتركة بين الانسان والحيوان .
* حياة مختلفة .

هذا الاختلاف يثير النفس الانسانية · ولهذا جرت طقوس وأديان وراء **عنصر الاختلاف** مما يتمثل فى الأقنعة والأردية المزركشة ، مما يفصله رودلف اوتو فى كتابه (فكرة المقدس) . (١)

---

(١) The Idea of the Holy by : Rudolf Otto.

لقد رسموا البقرة ، شجرة . والشجرة لهـا ثدى ، والانسـان يرضع من الشجرة ، والمراة لها قرنان ..

هنالك راى يقول انها فى الأصل تشبيهات ادبية وخيال شـعرى اعجب به الناس فجسده الفنان المصور .

وارى ان هذا لم يكن عبثا من الفنان المصرى بل فلسفة كبيرة .. انه يرمز الى وحدة الكون فى غلاف من الرحمة التى وسعت كل شىء .. فالشجرة رمز عالم النبات ، والبقرة رمز عالم الحيوان بل رمز العطاء والحنان والأمومة .

انهـا رهافة وجـدان مصر التى فطنت من آلاف السـنين الى ما يسميه الانجليز اليوم وحدة المعرفة .

لم يكن الخيال عند مصر ، شطحات سريالية بل كان خيالها عين داخلية بصيرة ترى مالا يدركه البصر .. رؤيتها بعيدة مديدة .. رؤية شفة مستشفة .

حتى الثعبان لم تنظر اليه مصر القديمة نظرة مسطحة بل رات فيه على شره الظاهر ، تعبيرا عن الوجود الجذرى . فتشكيل الجسم فى التفافات مستديرة رهيبة ، ونمو الرقبـة والراس وارتفاعهمـا .. هذه الهيئة كالجذع والساق .

رات مصر فى الثعبان ، على شره الظاهر ، تعبيرا عن الحياة الفنية القوية الممتلئة الباس . ولأمر ما سمت اللغة العربية الثعبانة (حية) من حروف الحياة .

لقد شـاع رسم الثعبـان وتشـكيله فى الحلى خاصة الخـواتم والأساور . ان مصر عندها ادراك رهيف بتيار الحيـاة السـارى من النجوم الى اعماق الأرض .. من كائنـات الخير الى كائنـات الشر . عندها شعور بسيال الحياة الجارى .

لقد نجحت مصر فى الكشف عن مكنون الحيوان كمجلى من مجالى القدسية فى هذا الوجود .

ولكن الذين لم يروا فى ديانة مصر الا الوثنية انما نظروا اليهـا فى عصـور الضعف كما تنظر العين الى المصـباح الخابى لا ترى فيـه الا (الهباب) .. (صماد قانوس) .

مصر عبدت الحيـوان . نعم ، ولـكن لاحســاسها بروعة الخلق فيه . فهو جزء من الله بما هو مجلى من مجالى قدرته .

الفرق بيننا وبينهم اننا نقرن (القرد) بالقرداتى أى هزل ..

وهم كانوا يقرنون القرد بالجد . فتحوت فى الهيروغليفية معناه : يبحث .. أى الجد .

وكان تحوت اله الحكمة .. البحث .. الكشف . الادراك .

الحيوان هو الحياة .. والله يسمى الدار الآخرة (الحيوان) .

ان الحضارة المصرية التى يقال انها وثنية ، كانت تبشر بالمسيحية والاسلام لأن مستشف دقائقها فى الفن والتفكير ، يدرك وحدة الخلق فى الحياة ، والاحساس الشامل بالكون . وهذا أساس الاسلام الذى لا يكف عن الدعوة الى التأمل والتفكير .

وجاك مارتان يقول فى كتابه عن الفلسـفة المدرسية :

الفن المصرى نبوءه بالمسيحية .

لقد قال الملك رمسيس انه فى احتدام المعركة ، ظهر له آمون ..

ليس آمون التمثال المعروف لنا ، المعروض أمامنا ، ولكن العناية الالهية التى تكلأ من تشاء .

وكانت مصر القديمة تقول (اطع الاله الذى فى قلبك) اذن الاله الحقيقى ليس آمـون أو رع .. ان هى الا أســماء ترمز الى الاله الحقيقى . وابن الفارض يقول :

ان الايمان هو الرحمة .

وحيثما وجدت الرحمة فوراءها ايمان .

ومصر القديمة قالت فى أدبها من رحمة :

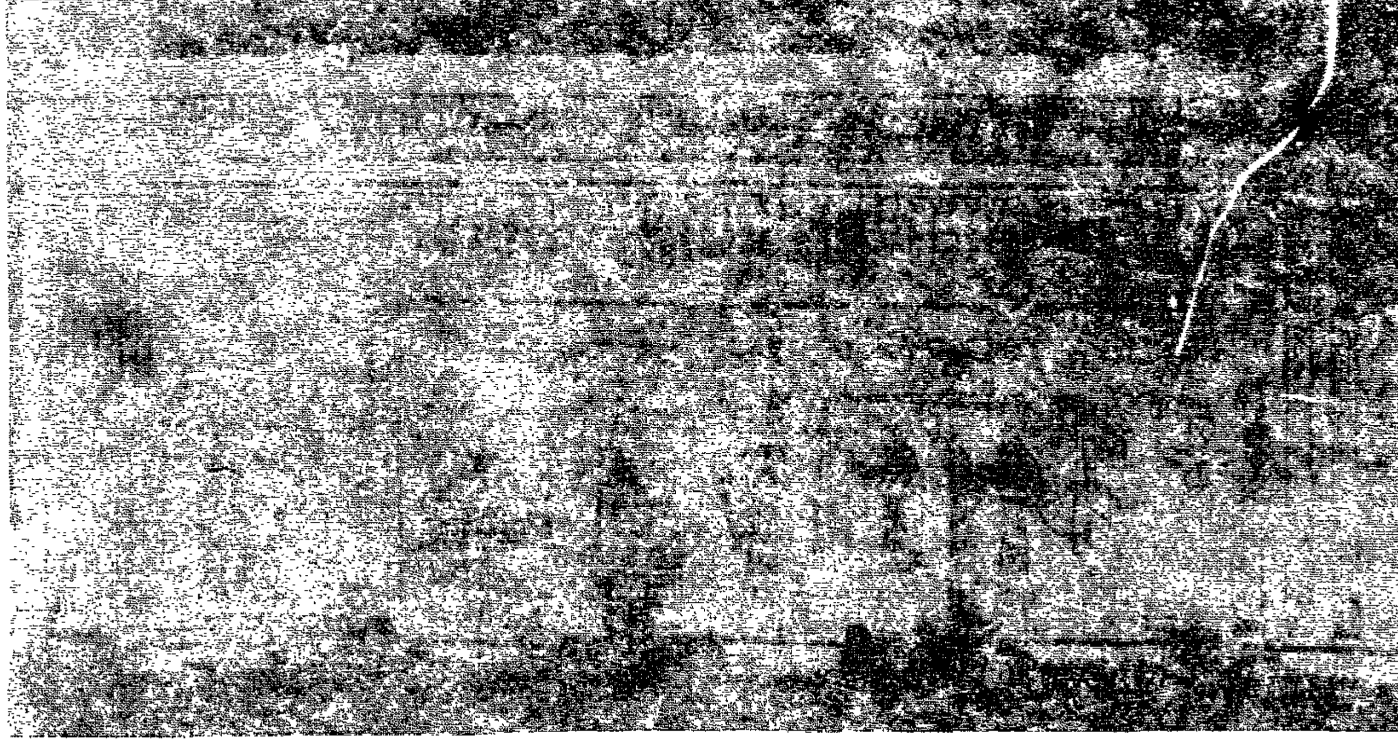
(كن مرضعا للمريض وأبا لليتيم .)

(ان فضيلة من يؤثر الحق لأحب عند الله من الثور الذى يقـدمه المذنب قربانا) .

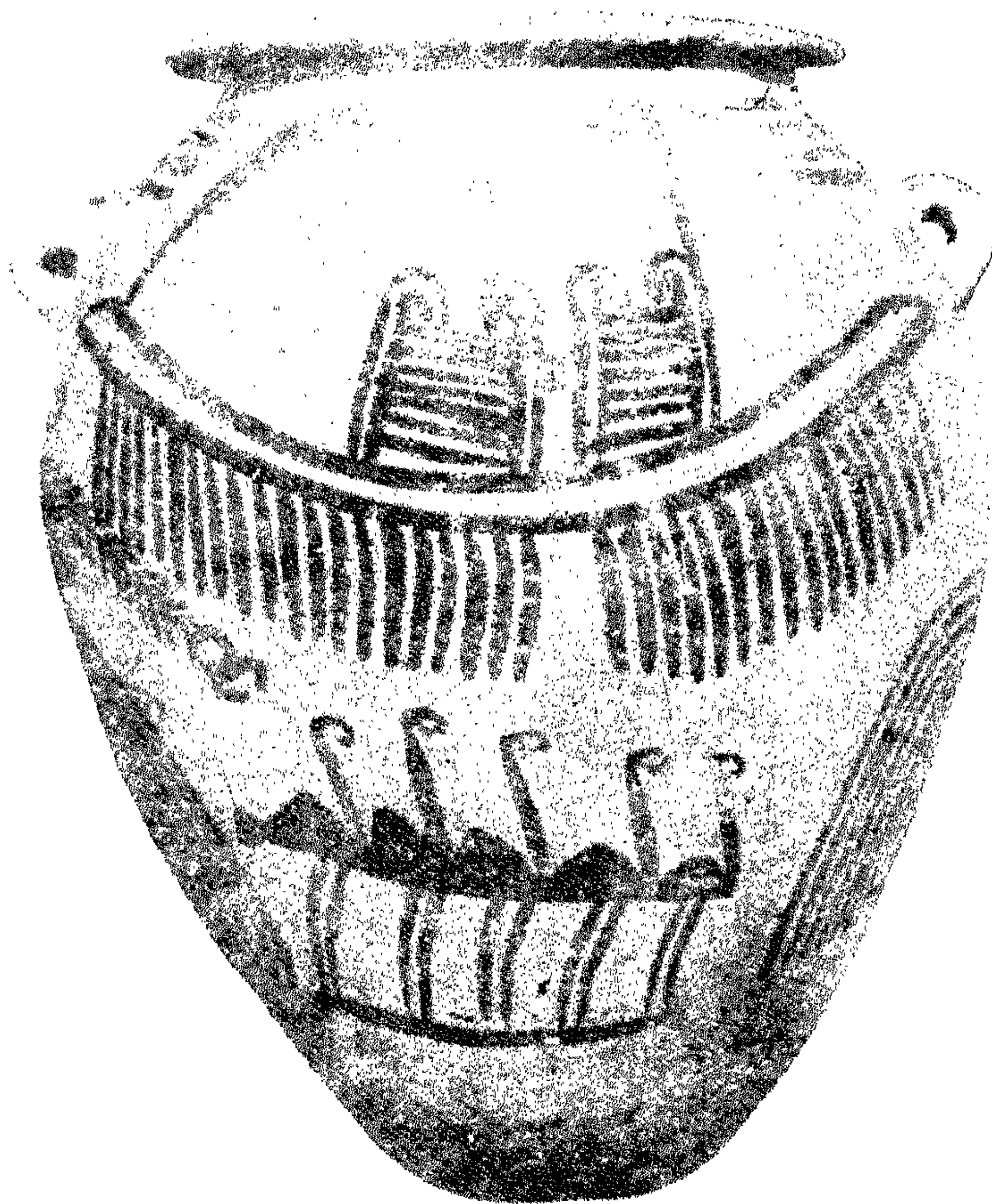
وسفر الأمثال (٣١ ـ ٣) يقول (فعل العدل والحق افضل عند الرب من الذبيحة) .



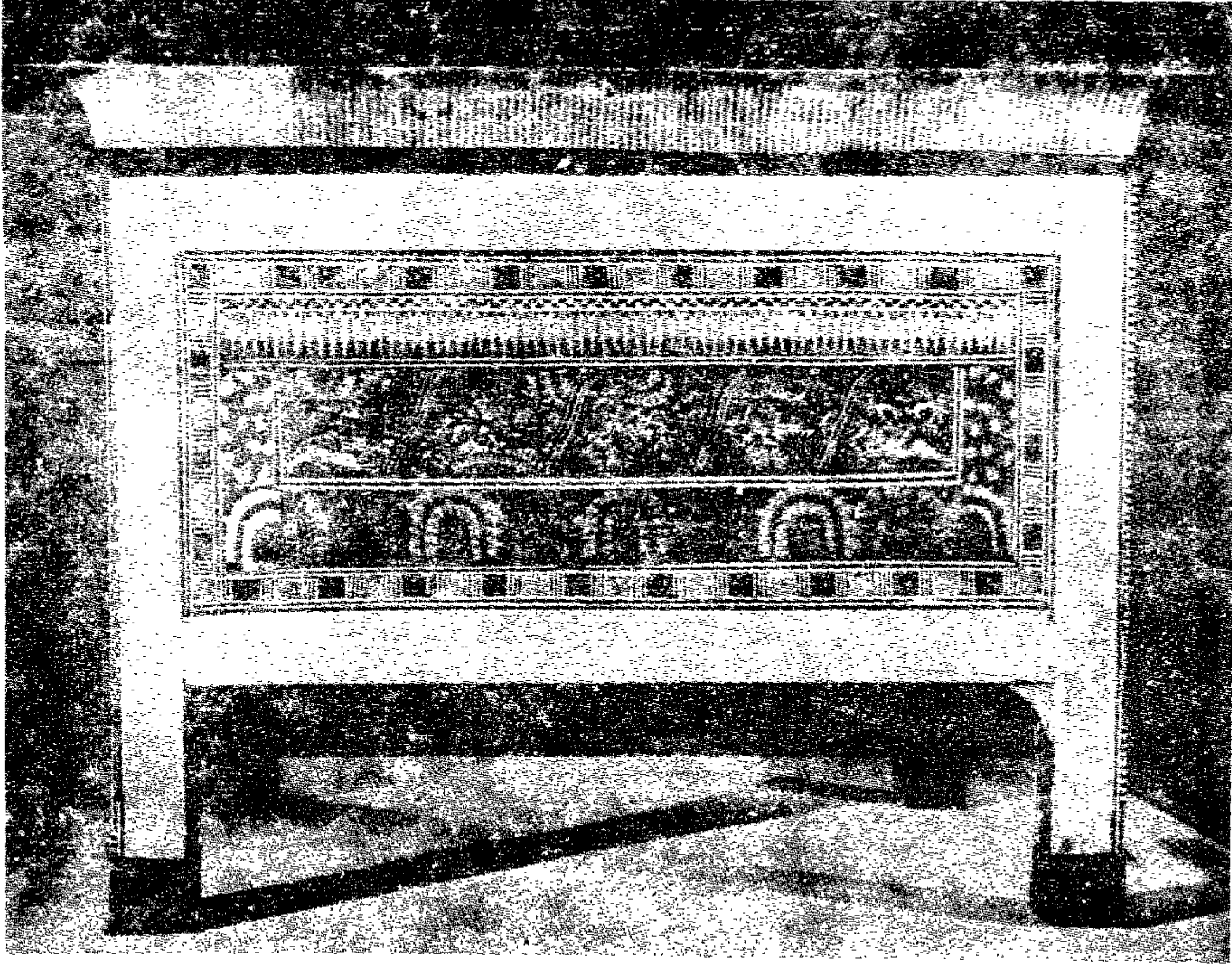
حتشبسوت فى جلسة طقسية الأسرة ١٨



لوحة تمثل الحساب في الآخرة عند مصر القديمة



اناء من عصر ما قبل الاسرات



صندوق من مقبرة توت عنخ آمون يمثل القدرة الفنية على التطعيم

ان تاليه فرعون دلالته أن الوعي بالمقدس في مصر ، وجد له ، بؤرة ، يلتزم بها سلوك الناس .

لابد من وجود كبير .. قادر .. نسبيا لينتهي التفكير الى القوة الأقدر والأعظم .. الى الله الذى ليس كمثله شيء .. سبحانه .

ان (معات) رؤية بعيدة وتامل عميق . انهم بطريقتهم الخاصة يقولون من خلال (معات) :

(ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك)

ومصر حين اعتنقت المسيحية ثم الاسلام كانت تصدر من هذه الطبيعة لا سيما وان المسيحية والاسلام فيهما منها الكثير .

لم يكن ايمانها ايمان التبعية والضعف بل ايمان الشخصية وقوتها فمن قوة الشخصية الا تخاف الجديد لأن ما عندها كبير راسخ . ومن السماحة وقابلية التطور ومرونة الادراك ، أن تدرس الراى الآخر وتنفذ اليه فاذا اقتنعت به تقبلته دون جمود .. واذا تقبلته نمت به وطورته واعطته .

وبهذا استمر دورها على المسرح فلم تسقط الأضواء من على قسماتها ابدا . فقد خرج من هذا التراب اشخاص حققوا معنى الدين فى المرحلتين المسيحية والاسلامية .

ولولا ان مصر فى قلبها نزوع الى السمو والعلو من قديم ، لما تقبلت المسيحية والاسلام بمثل ما تقبلتهما .

ان الحضارة المصرية هى القاعدة الكبيرة للديانات السماوية بشوقها الى المطلق ، ونزوعها الى التجريد ، وولوعها بالقيم فى الفكر والروح .

لقد اجمع أساتذة الفنون الذين راوا جامع السلطان حسن على انه فن فرعونى ولو انه اثر اسلامى .

ان القبة هى الترجمة الاسلامية للهرم .

القبة هرم ترفق المسلم المصرى فى بنائه ، من رفق الدين الجديد، فاستدار الخط بعد صلابة وثبات .

والمئذنة هى الصورة الاسلامية للمسلة . ان داخل كل مئذنة ، مسلة فى الشكل والروح .

المصرى المسلم كان يجمع الى فنه الموروث ، سماحة الدين الجديد ورحمته فانطبع هذا فى فنه الاسلامى ، حنيات واستدارة . فأبواب المساجد يزركش المصرى المسلم اعلاها وكأنه يحنو المستطيل ويعشق الخشب ، ويستنطق السطح بالنقش والنمنمة .

كم هى بليغة لغة ابن البلد فى لفظة (يعشق) . حتى الخشب فى مفهومه ، أرواح تتحاب وتتعانق وتعشق ..

حتى المفاهيم العقائدية تلتقى فيها عصور مصر مع تجديدها . فلو تأملنا الآثار المصرية لرأينا (الجناح) يسيطر على خيال المصرى الذى رمز به الى الرحمة .. الى الانطلاق .. الى السيطرة . ولهذا شاع فى الفن المصرى القديم (القرص المجنح) حبا فى النور . والحرية ، وتحصينا بالشمس والجناح ..

والقرص المجنح يقابل فى الاسلام (بسم الله الرحمن الرحيم) نفس الروح . وتسرب هذا عبر الأجيال الى نفس ابن البلد فاصبح يقول ويؤمن (بمصر المحروسة) .

لقد اعتبرت المسيحية مصر (الأرض المقدسة) لوجود اباء الصحراء فيها .

وعندما جاء الاسلام شربته مصر ونمت به ونمته فلم يمسح شخصيتها بل أضاف اليها عمقا جديدا .. واضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليته فى السلم والحرب فدافعت عنه فى مواقعه الكبرى ، وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون ، فوق ما حملته على أرضها برصيدها الكبير فى صناعة الحضارة .

هذا هو دور مصر وعطاؤها . حتى الأديان حين تعتنقها لا تقف عند الاتباع بل تأخذ دورا بالعطاء والاضافة والتكييف على هدى حضارتها وسابق معطياتها .

ان الحس الدينى الذى يحتويه كيان المصرى ، واحد سواء فى هذا اخناتون ، وسانت انطونيوس ، وابن الفارض .

ان سانت انطونيوس يمثل روح المعبد المصرى بلا حجر أو جدار .

ان الوجدان الدينى بالنسبة لمصر (القيمة) كالنيل بالنسبة لمصر (الوادى) .

الوعى الدينى هو نهر النيل المعنوى

حين يفيض يكون الالحاد
وحين يفيض يكون التعصب
ومصر لا تحب التطرف فى شىء ،
تكره الالحاد
ولا تحب التعصب .

ولكنها مؤمنة فى نقاء قبل الأديان وبعد الأديان .
ان من ينظر الى (ابو الهول) يحس الحضور المقدس .
الوجدان الدينى يمثله : ابو الهول فى الغرب
وجامع السلطان حسن فى الشرق

والمصرى على طول تاريخه له موقف وعطاء

خلاصة المصرى القديم	حضارة
خلاصة المصرى المسيحى	تجرد وشهادة
خلاصة المصرى المسلم	جهاد وخلوص لله
خلاصة المصرى المعاصر	اسلوب تفكير تتوافق فيه الوسيلة مع الغاية

وتختلف الأديان والعصور.. والمصرى يجمع فى كيانه هؤلاء كلهم .

كم لمصر من مواقف .

الامام حسين بن على ، قابله فى طريقه الى كربلاء رجل يعرفه فسأله الامام :

ـ كيف حال الناس ؟ فقال :

ـ قلوبهم معك وسيوفهم عليك .

وانهالت السيوف على الحسين .. وقتل فى كربلاء .

ثم انقض زبانية يزيد على طفل الحسين زين العابدين وكان مريضا يريدون ان يفتكوا به فاحتوته عمته السيدة زينب فى حجرها وصرخت فيهم : اقتلونى انا أولا .

فارتدوا يجللهم الخزى والعار .

وعاش زين العابدين ليعيش ذكر العلويين ويقوم لهم ملك ودولة بل عاشت باسمهم فى التاريخ الاسلامى الدول والملوك .

السيدة زينب بكل ما تمثله من معانى الفداء والحماية والحنان .. بكل ما تمثله من معانى الحق وشجاعة الراى والموقف والضمير ..

السيدة زينب هــذه اهانهــا الخليفة يزيد بن معاوية فى حضرته واخرجها من دولته فى الشام والعراق فاستقبلتها مصر واليها وشعبها عند حدود الشرقية ، وتنازل الوالى عن قصره لها وانزلها فيه ، وهو ضريحها الآن .

ترى لو احتمى الحســين بمصر هل كان يلحقه حيف ، أو يعلوه سيف ؟

سؤال يلح على خاطرى بين الحين والحين .

لقد استقبلت مصر الاسلام بما فيه منها فقد عرفت قديما المعاد والبعث والحساب والعقاب والميزان والجنة والنار بل عرفت التسبيح والتنزيه للاله الواحــد . وكان تسبيحها فريدا فى زمانه ، نشــيدا فى كل زمان ..

جاء الاسلام ولم يكن جديدا على مصر كل الجدة فمضامينه وقيمه نفذت اليها مصر بصورة ما بالفطرة السليمة والدفع الحضارى معا . بل ان بعض الباحثين يرجع المعبــودات الوثنيه العربية فى أصــلها الى معبودات مصرية .

اذن اعتنقت مصر الاسلام بما فيه منها ، وبحســها الحضــارى بما فيه من انفتاح على الفكر ، وانشراح للفكرة ، واحتضان للقيم .

تجاوبت مصر مع الاسلام .. اخذت منه واعطته على العكس من تركيا .. لأن الأتراك امة حرب ، والمحارب من صفاته الشجاعة ولكن ليس من طبعه الودادة والوداعة .. السماحة والشفافية والرهافة .. حتى التقوى منهم كانت أوامر . فقــد روى الدكتــور احمــد امين أن التركى كان يقف ببــاب المســجد وفى يده كرباج ، يجلد به الرائحين والغادين ليدخلوا المسجد ، ويؤدوا الصلاة .

حتى الخلافة الاسلامية التى هبطت على تركيا من السماء ، لم تستفد من هالتها وبركتها فلم تتفقه فى الدين ، ولم تعدل فى الحكم ، ولم تتبحر فى العلم .

كان زواجها من الاسلام عقيما وانتهى بالطلاق على يد اتاتورك . وهى نهاية طبيعية على الرغم من فزع الكثيرين فى وقتها .. ولم تجد نصيحة شوقى لها : (يا دولة السيف كونى دولة القلم) لأن القلم موهبة وعطاء (يؤتى) و (ولا يكون) .

مصر رائدة الزراعة ، طبيعتها فيها رغبة التفتح والتطور والتجدد والنماء كالنبات .. ولولا انفتاحها وتفتحها ما آمنت بالاسلام بعد تبنيها المسيحية وخوضها موقعة الشهداء فى سبيلها .. ولاقت ما لاقت ولكنها لم تضعف .

العذراء حملت المسيح واحتضنته

ومصر حملت المسيحية واحتضنتها .

وقد ادركت مصر ما بين المسيحية والاسلام فى الجوهر ، وما بين المسيحية والاسلام معا ، وبين عقائد مصر القديمة من صلة ، واتفاق.. وتلاق .

ان المسيحية زهرة جذورها فى مصر القديمة

والاسلام زهرة جذورها فى مصر القديمة

حين كانت الحضارة الهلستينية (غريبة) فلم تهضمها مصر فى الف سنة .

لمصر القديمة رع أى الشمس والنور

واوزوريس أى النيل والخصب

انها رؤيتها لله من خلال الملموسات والمرئيات تتخلل هذا فترة تجريد كان فيها « اخناتون » يناجى الهه قائلا : (انت فى قلبى) .

ثم جاءت المسيحية وتحررت من الاقلمية ، وتجردت من الأشياء

واحتضنت مصر المسيحية واثرت فيها ونشرتها كما لم يفعل احد

— وجاء الاسلام يردد : الله « تعالى » . وفى « تعالى » هذه :

سمو على الأشياء .. وعلو على الصفات . انه التجريد الذى نفذت اليه مصر منذ عشرات القرون .

كان طبيعيا أن تهش مصر للاسلام بما فيه منها . ففيه من ماضيها ما فيه ، وفيه من طبيعتها البساطة وعدم التعقيد والتركيب .

وفيه من مسيحيتها قصة عيسى ومريم ، وزيجة مارية أم ابراهيم من محمد كما كانت هاجر المصرية أم اسماعيل والد عرب الحجاز .

وفى الاسلام من مسيحية مصر احساس التعاطف مع النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون) .

وكان ابن عبد الله القبطى وابو رافع القبطى من صحابة الرسول .

وفى الاسلام لمسيحية مصر ، تحية طالما رددها الرسول القائل (استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما) .

ومس قوله عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان يقول : (أهل مصر اكرم الأعاجم كلها واسمحهم يدا ، وافضلهم عنصرا ، واقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة) .

هذه النغمة الآسرة الرءوم تلين صلابة العناد ، وتذيب رهبة الخوف والتهيب .

وخاصة فى جو تضاربت فيه مذاهب المسيحية مما صوره كتاب ارنولد Preaching of Islam واشتد الصراع بين أصحاب الطبيعة الواحدة والطبيعتين ، وعنف الاضطهاد للمسيحيين المصريين حتى اتى على كنائسهم فلم يعد فى كثير من النواحى كنيسة أو راع . كل هذه العوامل أخلت أمام الاسلام الميدان الحسى والمجال النفسى خاصة فى القرى والنواحى البعيدة ـ اذ كانت المسيحية ذات شأن ، فى المدن فحسب ـ حتى رأى فيه بعض المسيحيين مخرجا من التيه ووجد فيه البعض الآخر (مذهبا جديدا من مذاهب المسيحية) ووجد فيه قوم مغنما يدنيهم من الحكم والنفوذ اذ كان الاسلام دولة عامة يقوم بها المسلمون جميعا أو على الأقل وجدوا فيه مهربا من مغارم كثيرة : مادية كالجزية ، ومعنوية كالمعاملة السيئة التى كان بعض الولاة ضيقى النظرة يتحيفون بها أهل الذمة .

وفى ظل هذه الظروف انتشرت العربية فهى بحكم القرآن متداخلة فى الدين فهى كما يقول الاستاذ الزيات (جزء من حقيقة الاسلام .. فالقرآن ليس قرآنا الا فيها ، والصلاة لا تكون صلاة الا بها .)

واعتنقت مصر الاسلام .

لم ينقطع التيار الحضارى عن مصر .

انها بلد الكيما والقيمة منذ القدم .

ان ايمان مصر المبكر بالدين ممثلا فى التوحيد او حتى فى عبادة من العبادات كالشمس أو النيل طبعها على الحساسية واستشعار الواجب والايمان بالخير والفضيلة والرحمة والعدل .

وكثير من قيمها عاش فى الاسلام مع غناه الثرى بالمثل الرفيعة والآداب العالية .

اعتزت مصر بالأسرة واوصى بها الاسلام خيرا حتى ابى عليها التفكك ولو اشركت .

ان من يتأمل حضارتنا على مسار التاريخ يلمح احتفالها الكبير بالباب .. احتفلت به مصر فى قديمها واسلاميتها من احساسها بما فى الباب من جمع الشمل .. بما فى الباب من (أسرية) .. وبعض الفرق الاسلامية تسمى العالم ، الباب . فهو يفتح للطالب دنيا العلم .

لقد كرمت حضارتنا الباب بنقشه وتحليته . والزخرفة خبرة ملونة ، ومحبة منمنمة .

اكرمت مصر الأم ورفعها الاسلام الى ذرى عالية . (ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن . وفصاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) .

ومن مأثورات مصر :

(لقد اعطيتك لأمك التى حبلت بك ، وقد تكبدت فى حملك ثقلا عظيما وضعته بغير عون منى . وظلت ثلاثة أعوام ترضعك ، فلما ارسلت الى المدرسة . كانت تحمل الخبز والنبيذ من بيتها لأستاذك كل يوم .. لقد شببت الآن واتخذت لنفسك زوجا وبيتا ، فارع طفلك وربه كما ربتك أمك ، واحذر ان تفعل شيئا يؤذيها حتى لا ترفع يديها الى الاله فيسمع شكواها) .

وكرمت مصر الزوجة وجعلها الاسلام سكنا وامنا . (اذا كنت عاقلا فاجعل لنفسك بيتا . احب زوجتك كثيرا . وفر لها الطعام والثياب لمظهرها . قدم لها الدهانات والعطور ، فان علاج أعضائها الدهانات ، أسعدها ما عشت فانها حرث مثمر . لا تكن قاسيا فى البيت فهى اسهل قيادا بالاقناع من العنف . ارض حاجاتها .. فان ذلك ما سوف يبقيها فى بيتها) .

واوصى الاسلام باليتيم والفقير وقال الادب المصرى : (كن مرضعا للمريض وأبا لليتيم) .

ومن الآداب المرعية في مصر القديمة الا يتقدم المرء من لا ولد له عند ركوب المركب ، تأدبا .

انها رعاية مصر القديمة للأبوة فى الحياة ، وبعد الحياة .

لقد بدت مصر المساجد على طريقتها فى بناء المعابد . فالصحن فى المسجد ، يقابل بهو الأعمدة فى المعبد . والميضة فى المسجد تقابل البحيرة فى المعبد .. اغتسال وتطهر .

والاسلام رؤيته للايمان أنه بنيان مرصوص فى عملية ربط بين النفس والبناء .. بين العمارة والعمار فجاء توثيقا وتحقيقا لرأيها فيه ، كما وثق وحقق رأيها فى كثير مما يتعلق بالروح .

ان المسيحية بالطيبة والسماحة تحقيق وتوثيق للأوزيريسية .

والاسلام بالتوحيد والتنزيه تحقيق وتوثيق للاخناتونية .

فى القبة الاسلامية انحناء (نوت) رمز الأمومة

القبة سماء .

وديانة مصر القديمة شغوف بالسماء . فنوت الهة السماء . وسقف المعبد تنتشر فيه الطيور والنجوم .

الوثنى يقف عند الرمز .

وكبير القلب والعقل يتجاوز الرمز الى المرموز كما يقول شوقى :

ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى — جمعتها الحقيقة الزهراء
فاذا لقبوا قويا ، الهـا — فله بالقوى اليك انتهاء
واذا آثروا جميلا بتنزيـ — ـه فان الجمال منك حباء
واذا انشأوا التماثيل غرا — فاليك الرموز والايماء
واذا قدروا الكواكب اربا — فالمراد الجلالة الشماء
واذا الهوا النبات فمن آ — ثار نعماك حسنه والنماء
واذا يمموا الجبال سجودا — فالمراد الجلالة الشماء
واذا تعبد البحار مع الأسمـ — ـاك والعاصفات والانواء

وســـباع الســـماء والأرض والأرحام والأمهـــات والآباء
لعـــلاك المـــذكرات عبيـــــد خضـــع والمؤنثـــات امـــاء
جمع الخلق والفضيلة سر شف عنه الحجاب فهو ضياء

* * *

ان المصرى يحتوى كيانه حسا دينيا يقف وراء نظرته الى الحياة والأشياء .. الوجدان الدينى الذى يدركه من يقترب من روح مصر ، فى الديانة المصرية القديمة وفى المجرد الاسلامى . واسلوب المصرى فى الحالين يعكس حبه العابد للطبيعة المصرية .

ايمان مصر ليس الطقوس ولكنه الاتحـــاد بالـــكون .. ايمانهـــا استماع الى المعزوفة الكبرى للخالق الأكبر والأقدر والأعظم .

ويتفتح القلب ويشرب النغم

وتتوهج الروح اذ تلمسها الشرارة المقدسة

ويبصر الانسان بعد ان رأى .

ومن الطريف ان مصر قبل الاسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ « سيت » هيئة خنزير وفقأ عين « حورس » فحرمت الديانة المصرية اكل لحم الخنزير .

وكان المصريون القـــدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتهـــا لمقتضيات الطقوس الدينية .

والطهارة فى مصر القديمة كما جاء فى كتاب « الحضارة الطبية فى مصر القديمة » (أمر ليس بالغريب خاصة وانه نابع عقائديا) .

كما يقول هذا الكتاب ان (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون سبيلا للصحة القويمة) .

وهكذا كان الاسلام فيه الكثير من مألوف مصر .

ولولا ان اخناتون حمـــل على الماضى كلية بما يتنافى مـــع الطبيعة المصرية المحافظة ، ولولا انه لم يجىء فى اللحظة الحضارية المناسبة ولولا انه لم يكن رجل سلاح حين كان المثال لفرعون انه رجل سلاح ورجـــل قانون ورجـــل بناء .. لولا هذه الاعتبـــارات لنجحت دعـــوة أخناتون العظيم ولكن حسبه أن يكون ارهاصـــة لكل ما جاء بعـــده من ديانات المنطقة ..

لقد وجد الاسلام فى مصر جوا مهيبا . ولأمر ما تأصل الاسلام فى مصر تأصلا لم يبلغه فى مكان آخر حتى أن مصر هى التى دافعت عنه فى مواقعه الكبرى وقامت له فيها اقدم واكبر جامعة اسلامية .

لماذا لم ينتشر الاسلام فى اوربا ؟ .. لأنه واقف على غير ارضه .. ليس له فى أوربا جذور خلقية ومعنوية تمده بالنماء بل ان (الفكرة الاسلامية) فى اطراف العراق وفى ايران وفى اليمن تخرج عن جوهرها الأصلى (الى شيعة وزيدية) ــ كما ذكر الدكتور جمال حمدان ــ لعامل البعد واختلاف الرواسب الحضارية والفكرية .

لقد قسا المأمون على مصر بما لا تغفره له مدنية الانسان فلم يرع سابقتها فى الحضارة واحرق قرى باكملها مما احدث حركة ذعر وحركة تقيه ، ولكن هذا يسىء الى المأمون وحده لا الى الاسلام فليس من طبع الاسلام او اسلوبه أن يستخدم السيف فى غير موضعه او يتوسل به الى الانتشار ولكنه دين فطرة سليمة والفطرة المصرية فطرة سليمة فتقبلته بتلقائية من داخلها تتضح اكثر واكثر بعد ان تهمد السيوف وتغمد . والدليل اننا لم نرتد عندما رحل المأمون بل تمسكنا بالاسلام اكثر من غيرنا ودافعنا عن كيانه وحميناه وانقذناه فى معاركه الحاسمة .

ماهو . سر انتشار الاسلام المذهل ؟ هل هو الجنود او الشجاعة؟ لا .. وان كانت سببا من اسبابه وان لم تكن أهم الاسباب انما أهمها تعطش المنطقة الى رسالة روحية تعطشا قائما على اساس فكرى وروحى كامن فيها .

ان حكم الرومان شرنق المنطقة وجعل دياناتها ولغاتها تستنفد فضائلها ، ولهذا كانت متعطشة الى جديد فما كاد يظهر الاسلام حتى سرى تدريجيا واللغة العربية فى ركابه (لازمة) من لوازمه وسيلة للمسلم الى القرآن والصلاة .

لقد حاول الرومان التدخل فى عقيدة مصر المسيحية ايام وثنيتهم فقاتلتهم وحين دانوا بالمسيحية وحاولوا التدخل فى الطقوس والعبادات قاومتهم وتمسكت برايها فى هذا واسلوبها فيه بل جنحت الى العناد فخالفتهم فى الرأى لمجرد المخالفة ، خالفتهم لونا من المقاومة واعلان السخط والكراهية ، لونا من التحدى واثبات الوجود وكان لمصر كنيستها الخاصة بها وبطريركها المنتمى اليها . مصرت مصر المسيحية (واستخرجت منها نسختها الخاصة : القبطية) .

ان مصر بلد الايمان على الرغم من انهــا غيرت شــكل دينها عدة مرات ولكن جوهر الدين فى قلبها واحد عبر الاخناتونيــة والمســيحية والاسلام . وهو :

توحيد يتمثل فى وحدة الله ووحدة الوجود .

جاء فى متون الأهرام .

(ان الملاح السماوى لا يسمح بالعبور الا للصالحين والعادلين) .

وفى القرآن الكريم (**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**) .

(اننى لم ادنس فمى باهانة من اهاننى) .

وتلك روح مسيحية .

وجاء فى متون الاهرام أيضا :

— (قل الصدق وافعل ما يرتضيه) .

— (العادل لا يأخذ اللبن من فم الرضيع) أى لا يظلم .

ان مصر التى شعرت قبل غيرها بوازع خلقى ، هى أول من بحث عن (الحق والباطل) فى تاريخ الانسان مما تشهد به مسرحية (منف) فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد .

وقد طلب الفلاح الفصيح الى الحاكم أن يفصل بين الحق والباطل بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطىء . وخــدم كلمــة الموازين كثيرا فى معانى الحق والعدل .

وكانت المرة الأولى التى تذكر فيها الموازين فى تاريخ الأخلاق وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزا للعدل ، الى يومنا هذا .

وفى القرآن الــكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحــديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل .

(**والله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان**) ١٧ ك ٠ الشورى ٤٢

(**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**) ٤٧ ك ٠ الأنبياء ٢١

(والسماء رفعها ووضع الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

وليس معنى هذا ان الاسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين . فالقرآن الكريم كتاب منزل وهو فى الوقت نفسه كتاب يهدى الانسان فى دينه ودنياه ويروى ظمأ الانسان الى العدل والخير فى اسلوب الواقعية وينتهى الى المثالية .

وقد عرف الصفوة فى ازمنة مختلفة ، بالفطرة السليمة الوانا من معانى الخير والعدل . ومن هنا كان سبقهم الى الايمان بالأديان لأنها تعبير عما فى نفوسهم وافكارهم .

على ان الأديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار ، وانما غايتها الهداية واشاعة الخير والعدل والرحمة .

ومن شرف الانسان أو المكان أن يهتدى فى تطلعه الى السماء .. الى معان تأتى الأديان فتعززها .

يقول المسيح : « انا الحق والطريق » .

وفى مصر القديمة كان اوزوريس هو الحق ، وهو على حق .. وهو الخير والخصب .

ان ما بين أوزوريس والمسيح ليس تطابقا كاملا . ولكن :

كان أوزوريس برمزيته الحق والطريق

وكان المسيح فى عصره ، الحق والطريق

وكان محمد عليه السلام بشريعته بعد هذا ، الحق والطريق .

تواكبت على هذه الأرض القيم والمعانى والأديان . فانفتح فيها الوعى الخلاق فاعطت ما اعطت للمسيحية ، واعطت ما اعطت للاسلام .

كانت تملك الرؤية

وكانت تملك الشباب .. شباب النفس

وكما اتيح لها الانتصار على الخوف من الموت ، اتيح لها رؤية الحق فى الأنفس والآفاق .

ونمت مصر تدريجيا فى حياة المعنى والروح واوتيت الحكمة .

وارتوى جسمها من النيل ، وارتوت روحها من النبع الأعلى الصافى .. الله جل جلاله .

واذ وصلت مصر واتصلت ، عرفت الخلوة سبيلا الى التأمل والتفكير . فابتدعت الرهبانية فى المسيحية ووضعت اسس التصوف فى الاسلام .

والرهبنة تصوف المسيحية .

والتصوف رهبنة الاسلام .

لقد عرف العراق التصوف فاذا هو فى العراق ينقلب الى شيع وفرق ونحل متعددة ومتعادية .. ولكن التصوف فى مصر علم ومعرفة على يد ذى النون .

وقصيد ونشيد على يد ابن الفارض .

انه « ذوق » مصر الخاص

لا يسعد القلب

لا يحرك الذات

الا شوق وذوق .

وكم من اشواق ذاق حلاوتهـا قلب مصر فاستحال الى جذوة يستحيل عليها أن تصير رمادا .

وعندما امتزج فى قلب مصر الشوق والذوق ، ابدع الفن ، ورقرق الأدب ، وارتاد العلم ، وارسل الحكمة .

تفوق القلب المصرى واعطى .. من مثابرة ومصابرة وحنين دائم الى التفوق والتألق والعطاء .

دين كل عكوف على عمل عظيم .

وما اكثر الأهداف التى حققتها مصر المتدينة فى كل العصور .

ان الاسلام عندما دخل واراد ان يصنع شيئا ، انتقل الى شكل آخر .. فما امامه قمة ، ليس عليها زيادة لمستزيد .

وهنا تفهمت مصر روح الاسلام وفهمت ما يريد فأعطته من العلوم والفنون ما يتواءم مع عقيدة التوحيد .

مصر بعد الأديان

مصر فى المسيحية

دخلت المسيحية مصر والرومان فيها سنة ٦١ م وكان فى الاسكندرية صراع حام بين الاجناس والمذاهب المختلفة لم تجد فيه حركة التوفيق Syncretism وبعد تفكير تقبلت مصر المسيحية فى صورتها الأولى البسيطة خروجا من البلبلة والتيه . وقد عادى الرومان المسيحية عداء مرا من اول الأمر وبلا تفكير مما عطف مصر عليها نكاية فيهم ومخالفة لهم ، للتعبير عن المقت والعناد ولتأكيد وجودها واظهار شخصيتها بحرية الاختيار والمغايرة . وبذا اتسعت شقة الخلاف بين مصر والرومان اذ أصبح سياسيا ودينيا معا وان كان فى الحقيقة شيئا واحدا ، فطالما لجأت مصر الى المقاومة الروحية فى نزاعها السياسى .

وتبارى اباطرة الرومان — حتى بعد ايمان الدولة الرومانية بالمسيحية — فى تعذيب مسيحيى مصر ، وأتوا فى ذلك فنونا من العذاب فلم تلن لهم قناة ولم يهن لهم عزم بل تنادوا بالاستشهاد وساروا اليه ثابتى الخطو وكان هناك اتفاقا خفيا على تعمد القيام بعمليات استشهادية لاعطاء الأجيال القادمة شحنة من معنويات ودفعة من قيم ومثل وبطولات تعيش عليها .

واضرم اصرار مصر ، حقد جلاديها فتواصت بالصبر واستمسكت بالأمر ، ومضت فى الجهاد — يتقدمها أوريجانوس — يضىء لها طريقه ارواح غالية استشهدت فى سبيل المسيحية بل فى سبيلها هى فما كانت المسيحية الا تكأة تستند اليها . لقد مصرت مصر المسيحية حتى غدت فيها دون غيرها قبطية . وكلما صالت الآراء اتخذت مصر موقفا وقالت برأى خاص بها من فرط احساسها بذاتها وطاقة التحدى فيها . ولم يزايل مصر الشعور بنفسها بل اعتدادها بما أدت وما أعطت حتى ذهب

الأقباط فى احتدام اضطهاد الرومان لهم الى القول بأن السيد المسيح لم يولد فى (بيت لحم) وانما ولد فى « هيراقليوبوليس » فى الطيبائيد، فى صعيد مصر . وذلك ارضاء لحدة الشعور بمصر وحدة التفاخر بها حتى ليكاد يجمع الدارسون على ان المسيحية فى مصر كانت تعنى القومية المصرية . وكانت الكنيسة المصرية تعنى الدين والدولة معا فى وقت واحد أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة .

ولم تسنع حكومة القسطنطينية الا ان تعترف بهذه الحقيقة الواقعة . وكانت تستعظم قوة البطرق الوطنى أحيانا ، فترسل الى مصر بطرقا على مذهبها يدير كنيسة الى جانب الكنيسة الوطنية ، ويتبعها المسيحيون من اليونان والرومان غير الوطنيين .

ولكن عاصمة الدولة الرومانية كانت تابعة فى العرف الدينى لكنيسة الاسكندرية لأنها اقدم الكنائس واكبرها فى المشرق والمغرب .

لقد كان البطرق الاسكندرى رأس الدين المسيحى فى العالم كله قبل رؤسائه فى العاصمة الغربية والعاصمة الشرقية ، وكان من بطارقة الاسكندرية من يقول « ماذا يعنينى من الامبراطور ؟ اننى هنا الامبراطور » .

وكان صادقا فيما قال ، لأن الناس كانوا يطيعونه ويؤمنون بان طاعته من طاعة السماء . اما الامبراطور فمهما يكن من أمر طاعته القسرية فهى طاعة ارضية على كل حال ! .

ونقل المؤرخ جبون من اخبار اثناسيوس السكندرى (٢٩٦ — ٣٧٣) انه كان يخاطب الأباطرة مخاطبة الند للند . سأله الامبراطور قسطنطينوس مرة : (لم لا تأذن باقامة الكنيسة الارية فى الاسكندرية) فكان جوابه : (اننى سآذن بها يوم تأذن انت باقامة كنيسة ارثوذكسية فى انطاكية) .

وبلغ من مقاومة مصر ان بطاركتها كانوا يصدرون الرسائل والكتب للدعوة الى مزيد من الاستشهاد وكانت الجموع رائحة غادية ما بين السجن وساحة الاستشهاد على وقع الأناشيد الحماسية امعانا فى التحدى واذلالا للرهبوت — الذى ظن انه على ارهابهم لقادر .

وامعانا فى التحدى سمو التقويم المصرى « تقويم الشهداء » .

وطار صواب البغى طويلا ثم ثاب فأوقف الجبابرة المذابح ثم خطوا

خطوة اكثر فامنوا المسـيحيين على انفسـهم وانتهى الأمر باعتنـاق الامبراطور « قسطنطين » المسيحية .. وابتسمت مصر .

وكانت المقاومة قد اذكت شعور النفرة من كل ما هـو أجنبى . وشملت الصحوة فيما شملت اللغة والأدب فتزعم الأنبا شنودة محاربة اليونانية التى كانت لغـة الحكام انتصارا للقبطية التى كان يصطنعها فى الحديث والكتابة تمكينا لها . واذ تولى رياسة الدير الأبيض غدت اللهجة الصعيدية هى اللهجة الأدبية للكنيسـة القبطية فى ازهى عصورها.

وسرت دعوته وعملت عملها .. واذ غزت القبطية الميدان تقهقرت امامها اليونانية حتى اذا طلع القرن السابع الميلادى كانت اللغة القبطية هى لغة الأدب والحديث بعد ان تخلصت حتى من الألفـاظ اليونانيـة الدخيلة عليها .

وبعـد ان كان الأقباط قد أثروا الأدب اليونانى بكتاباتهم اليونانية التمسوا طريقهم السليمة وكتبوا بلُغتهم القوميـة واودعوها ترجمـة الكتاب المقدس وافعال الآباء وسـير القديسـين والقصص والاصـلاح الاجتماعى والآداب الكنسية .

واهتمت أوربا فى عصر النهضـة بالمخطوطات القبطيـة فتـوالت الزيارات على مصر لهذا الغرض وامتلأت المتاحف والمكتبات العـامة فى اوروبا وامريكا بكتابات مصر المسيحية وقامت لتدارسها أقسام خاصة بالجامعات وذاعت فى اللغات الأوروبية الفاظ قبطية متعددة مثل الواحة (وازيس) و (السوسن) و (أسقيط) ومنها اسم الناسك فى اللغات الأوروبية . بل ان الأبجدية الروسية دخلت عليها بعض حروف قبطية مأخوذة من الديموطيقية .

ويصف (جوجيه) انتقال مصر من اليونانية الى القبطية فيقـول فى دهشة لا تخفى : (لقد سعى الاسكندر الأكبر سعيه ليصبغ الروح المصرية بالصبغـة الهيلينيـة واقتفى البطالمة اثره فى ذلك ، وحاولوا جهـدهم أن يسـتميلوا المصريين ويضـفوا على الفـكر المصرى مسـحة يونانية بحتـة وقد ثابروا فى هـذه السـبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصـول الى غرضـهم . وخيـل اليهم أنهم نجحوا فى الوصول الى هدفهم لما رأوا المصرى وقد شغف بمختلف انواع الثقافات، يأخذ منها أينما وجدها ، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصرى له قدرة عجيبـة على تكييف الفنون وفق مزاجه ، ويستسـيغ العلوم بحسب ذوقه . وهو ــ بعد هذا كله ــ مصرى تأصلت جذوره فى هذه

للتربة التي ازدهرت فوقها حضــــارته العريقـــة . فالمصرى مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة فخور بماضيه ، مشغوف ببلاده ، فهذا الفخر وهذا الشغف تأصل فيه الى حد بعيـــد الغور ، فهـــو ثابت فى مصريته بحيث لا يمـــكن اقتلاعهــا منه أو تحويله عنهـــا مهما تنـــوعت المؤثرات) .

عرفت مصر المســـيحية وجهتها ، فلم تتردد فى حمـــل المشـــعل من جديد . .

كتبت مصر المسيحية ، وتلقف كتابتها علمـــاء الشرق والغـــرب مترجمين وشارحين وقد بهرهم من مصر أوريجانوس . بل كان اساتذة الاسكندرية وبطاركتها عمد اللاهوت فى العـــالم المســـيحى كله وحظيت كتاباتهم بمركز الصدارة من شهرة ذائعة .

وعن مصر نقلت ايطاليـــا ، مركز البابوية ، واليـــونان وايرلندا ، مراسم النسك ، حتى بلغ من أسوة مصر وغلبـــة شـــخصيتها أن دير مونت كاسينو فى ايطاليا لا يكاد يختلف عن اى دير باخومى فى قنا .

واخذت مصر المسيحية دورا لامعا فى المجامع العالمية (المسكونية) التى كان الأباطرة يدعون اليها أساقفة منـــدوبين عن كنـــائس العـــالم المســـيحى كله . واذ ينعقد جمعهم تتميز مصر فتسند الرياســـة (فى اغلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة المصرية) بما يمثلون من قوة شعبية جارفة أقضت مضاجع الاباطرة الرومانيين حتى ليعتبر تاريخهم وسيرهم جزءا من تاريخ مصر العام .

ومصر المســـيحية المصـــدر الأول لعلم اللاهوت بما خطه فيـــه اثناسيوس الذى تألق فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وان مؤلفـــاته التى وضعها عن (تجســـيد الكلمة) و (الرد على الأريوســـيين) و (الروح القدس) لتعد ركيزة لكل ما كتبه مشـــاهير اللاهوتيين . وفى أوروبا قول سائر فى ذلك الحين :

(اذا وجدت عبارة من أقوال اثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبهـــا فاكتبها على قميصك فى الحال) .

وقد سجل الغرب أثر مصر الروحى فى كتب :

(بستان الرهبان) و (المعاهد) و (المقابلات) .

كما أثرت تعاليم باخوميوس فى حركة الاصلاح الكونى تلك الحركة

الـــكبرى التى كان لهـــا اثرها فى توجيــه المدنيــة فى العصـــور الوسطى .

لباخوميوس المصرى تدين ، فى نشأتها ، جماعات الفرنســيسكان والدومينكان بل اليه ينسب الفضل فى قيام النهضة الأدبية الفكرية الأولى فى القرنين الثــانى عشر والثــالث عشر بما هى أثر من اثار تلك الهيئات الديرية وبما اقترن بها من قيــام العلوم الانســانية ونشــأة الجامعات فى العصور الوسطى .

والى مصر ينسب نظام الحياة الديرية فى الرهبنة المسيحية كما ينسب اليها نظام التوحد فيها وهما من عمل باخوميوس وانطونيوس بما أعانت عليه صحراء مصر من تهيئة الخلوة للتأمل والخلود الى القوة الكبرى التى ابدعت السماء والضياء والصفاء .

يقول الدكتور مراد كامل :

(رغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المســيحية كجماعات فقراء الهنود والاسينيين اليهود ، الا ان الرهبنة المصرية كانت اتجــاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بتلكالحركات النسكية الســابقة عليها لاختلافها عنهــا فى الهــدف والفلسفة والأســلوب كما أن الرهبان الأول الذين اسسوا هــذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية أو العلمية لتمــكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها) .

لقد كانت صحراء مصر جامعة كبرى أمتها الطلاب من كل صـــقع حيث انتشرت فيهــا الأديرة وقلالى النســـاك حول كل معلم تتحلق الندوة من بنى جنسه (وهذا النظام هو الذى ورثتــه الجامعــات فى العصور الوســطى حيث انتشرت فى رحباتها نظام الأمم وايضــا نظام الأروقة فى الجامعات الأزهرية) .

وهكذا كانت مصر رائدة بل ان (مافى) يذكر فى كتابه «امبراطورية البطالمة » أن جامعة الاسكندرية اتخذت نموذجا لــكل الجــامعات التى تلتها، فعلى غرارها نشأت جامعات أوروبا الوسطى فى العصر الوسيط.

لم تنشأ المسيحية فى مصر بل جاءتها ومع هذا فان مصر هى التى حملت رسالتها فعلى يد مصر دخلت المســيحية الحبشــة فى منتصف القرن الرابع الميلادى كما دخل الاسلام فيما بعد قلب افريقيا على يد مصر أيضا .

يقول الدكتور حسين مؤنس عن انتشار الاسلام فى السودان :

(.. حمله المصريون أو العرب النازلون بمصر ، وهم مصريون ، دفعتهم الى ذلك طبيعة البلد الذى استقروا فيه واتخذوه وطنا ، والا فلماذا لم يدخل العرب الاسلام من جزيرتهم ، والعبور الى السودان أيسر وكانت حركة انتقالهم من الجزيرة الى السودان عبر البحر الأحمر مستمرة طوال العصور الوسطى ؟ لماذا لم يحمل الاسلام الى النوبة ومقرة وعلوة الا عرب مصر دون عرب الجزيرة اجمعين ؟ ولماذا تسود ثقافة مصر بلاد السودان ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى مع أن مصر ليست فى طريق الحج من السودان ، وانما كان الناس هناك يحجون عبر البحر ؟

... ان مصر تقوم بهذه الرسائل قبل الاسلام بزمن طويل ، ولأسباب أخرى غير وقوعها على طريق الحاج ، وهذه الأسباب هى موقعها الجغرافى وطبيعة اهلها واتجاه تاريخها ..) .

وعلى يد مصر وصل التبشير بالمسيحية الى الجزر البريطانية فقد ذكر بتلر Butlar (انه يوجد الى يومنا هذا ببلدة أولينده ديزرت بايرلنده قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر اسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة) شاهد امتداد شخصية مصر .

بل ان أقباط مصر هم الذين نشروا المسيحية فى فرنسا الجنوبية وبلجيكا وسويسرا .

بل نقلت روما مركز الحضارة الغربية ، والقسطنطينية مركز الحضارة الشرقية كثيرا من تعاليم الدين الجديد عن مصر (ونقلتا عنها الكثير من الرموز والتقاليد كما نقلتا عنها كثيرا من فنون مصر واتخذتا منها منبعا للوحدات الزخرفية التى قرب فيها المصرى بين نماذجه القديمة وبين دينه الجديد) كما يقول الدكتور مراد كامل بل ان الطريقة المصرية القديمة فى التصوير وهى طريقة التصوير بالوان الأكاسيد على الحوائط المغطاة بطبقة من الجبس انتشرت فى الغرب منذ العصر الرومانى حتى عصر النهضة .

وبلغ من النفوذ الروحى لمصر المسيحية انها كانت ترسل الأساقفة الى ما حولها من البلاد حيث كانت لهم فى كل بلد مكانة ممتازة ، تبعت الكنائس فيها للكنيسة فى مصر . فالمطران المصرى فى الحبشة كان رئيسا للكنيسة الاثيوبية . والأسقف المصرى فى قبرص كان اختصاصه يشمل قبرص ورودس معا (كما ذكر « برستر » فى بحث نشر بمجلة

جمعية الآثار القبطية) وتبعت المسيحية فى النوبة كنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك .

واننا لنعجب لمصر كيف كانت فى القرون الأولى للمسيحية تابعة للرومان ثم تستطيع أن تتبع الآخرين لهـا ومن بينهم روما . فمصر لا روما ولا أثينا ، هى التى كانت مصدر التشريع الكنسى للعالم المسيحى. من مصر قام القديسون أثناسيوس وجيروم ويوحنا وكاسياس واوغسطينوس وباسيليوس وباتريك بنقل قوانينها وحياة رجالها الى ايطاليا وبلاد الغال ومارسيليا واليونان وايرلندة وينـدكت فى القرنين الرابع والخامس الميلادى ولا تزال هـذه القـوانين باقيـة حتى الآن باليونانية واللاتينية .

يقول : ج . م . كريد J.M. Creed (ما من بلد أثر فى انتشار الدين المسيحى اعمق مما فعلته مصر) .

لقد نشرت مصر الرهبنة بسماتها المصرية فى انحاء العالم . والرهبنة المصرية لم تهو البطالة والكسل ، حتى التفرغ للدين والامعان فى النسك لم يعزلها عن العمـل .. فلم تغفـل عن حاجة الحى اليـه ليعيش .

وكما قال رسول الاسـلام لمن أتوه يمتدحون متعبدا ،**فمن يقوم على طعامه وشرابه ؟ قالوا : كلنـا .. قال : كلكم خير منـه ، قال بولس** الرسول قبله **(أن من لا يعمل لا يأكل)** .

وقد قام الرهبان المصريون بالأعمال المختلفـة وعلموها اتباعهم تصونا عن الحاجة وتكرما عن السؤال وتغلبا على الملل وقهرا لشهوات النفس .

يقول الأستـاذ شفيق غربال ان (الرهبنـة فى مصر لم تكن أمرا روحانيا صرفا ، بل كانت عاملا فى التطور الاجتماعى ، والتطور الدينى فأثرت تبعا لذلك فى مصائر البلاد بأجمعها) .

ويقول (هرناك) المؤرخ الألمانى فيما رواه عنه الدكتور مراد كامل :

(ان النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصـور ــ حتى فى نظر الغرب ــ آباء ، ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية) .

وعن آباء مصر صنفت البحوث والمؤلفات التى ترجمت الى اللغات الأوروبية الحديثة مع تراجم حياتهم وتسجيل اقوالهم ومن كتاب هذا

الميدان بلاديوس وكاسيان وجيروم وبوسيه صاحب الكتـاب الخـاص بأقوال الآباء Apophtegmata Patram

وأن كتاب (حياة انطونيوس) وحده الذى وضعه الانبا اثناسيوس استجابة لالحاح روما قد اشعل روح الرهبنة والنسك فى بلاد الغرب .

يقول الاستاذ محمد شفيق غربال : (اذا كان الفن القبطى تعبيراً عن الخصائص الدينية لمصر المسيحية ، فان نشأة الرهبنة ونموها لهى وجه آخر من أوجه التعبير ، يعتبره العلماء اكثر ما ساهم به الشعب المصرى بروزا وجلاء فى تراث المسيحية) .

كانت مصر فى القرون الاولى للمسيحية تابعة للرومان ومع هـذا كانت موئل الاحـرار ، فعلى أثر مجمع خلقـدونية هرع اليهـا الأب ساويرس بطريرك انطاكية لياذا بها من بطش الامبراطور يوستينوس ، فطاب عيشه بها وحسنت مستقرا ومقاما .

وكما تميزت شخصية مصر فى المسيحية تميزت (الغنوسطية) فاختارت لنفسها منها بنزعة النسك فيها ، اسمى مراتبها ، مرتبـة التصوف والترفع على المادة والحس ..

ومن عجب أن الغنوسطية (لم تظهر فى قوتها الا منذ القرن الثانى حين انتشرت فى مصر) .

وفى مصر اخذت الغنوسطية طابعا شـاعريا له جمال وفيـه فن ففالنتينوس المصرى كما يقول الدكتور مراد كامل (هو مؤسس اعمق وامتع الانظمة الغنوسطية واكثرها تأثيرا ورواجا) .

وكانت مصر من خلال فالنتينوس أستاذة ومدرسـة وحدها وقد اثبتت الكشوف الحديثة فى نجع حمادى عطاء مصر فى هذا الميدان .

هذه هى مصر فى الغنوسطية ، صاحبة دور كشـانها ابدا .. اما الأفلاطونية الحديثة فهى وليدة مصر التى حولت الهلينية الى لاهوت . ولم تسيطر مدرسة مسيحية فى العالم كما سيطرت مدرسة الاسكندرية التى صارت العاصمة الثقافية للعالم المسـيحى والوثنى على السـواء بلا تفرقة فى الدين أو الجنس.. بلا تفرقة بين ذكر وأنثى .. بلا تفرقة بين سيد وعبد .. كانت الاسكندرية عاصمة ثقافية ديمقراطية بما علمت من طلاب واخرجت من اساتذة ، صـاروا فى شـعوبهم اعلاما حتى أن بطريرك الاسـكندرية كان يلقب بـ « قاضى المسيحية فى العـالم » وكم

تخرج على يد أوريجانوس المصري من أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب . ولم تعرف المسيحية فيلسوفا في مصر وفي العالم المسيحي كله طوال عصوره المتتابعة مثله .

ويقال ان أوريجانوس كتب ستة آلاف مؤلف وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالى الألف . وحتى هذا لا يجوز في منطق العقل وان كان يدخل في باب الأساطير التى تستعذبها الشعوب في عملية تأكيد للذات خاصة حين تنوش هذه الذات الأحداث .

وسواء أصح هذا أم لم يصح فان له دلالة على عطاء مصر ، وصبرها على الدرس والاطلاع ، وطاقة القدرة فيها لا سيما اذا عرفنا ان أوريجانوس كان يعلم في جو محفوف بالمكاره حتى ضاقت به المدينة فكان ينتقل من منزل الى آخر أمام المطاردة المحمومة ، فلم ينكص ولم تفل له ارادة بما فيه من جلد مصر واصرارها حين تريد .

وعلى يد مدرسة الاسكندرية الوثنية ورجالها المصريين تخرج في المعهد اليوناني والروماني علماء العالم القديم في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة والهندسة والفلك .

وعلى يد مدرسة الاسكندرية المسيحية ورجالها المصريين تخرج علماء العالم المسيحي في هذه العلوم بما ورثه اقباط مصر عن قدمائنا من دراية فيها وبراعة مشهودة .

وفي العلوم اسست مصر علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح . وهي صاحبة نظرية الذرة وواضعة تذكرة الطب المشهورة باسم تذكرة كرنيليوس كلسوس وظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة الى القرن الثاني عشر .

ووضعت مصر المسيحية غالبية المصطلحات الطبية وعليها تتلمذ جالينوس ولها شهد (نيتولتسكى) في كتابه الطب الشعبي المقارن .

لقد سبقت مصر بفضل .. هيروفيلوس ، العالم طرا في دراسة الأمعاء الدقيقة كما سبقت الى اصطناع البحث العلمي بفضل اقليدس صاحب (المبادىء) .

ومصر المسيحية هي التى وضعت في الفلك حساب الأبقطي .

وحين تضاربت أقوال علماء المسيحية في تاريخ عيد القيامة سنة ٣٢٥ م اشراب مجمع نيقية الى مصر . فحسمت الموقف وحددت

التاريخ ، بل حددت مصر الأعياد واوقات الصيام للعالم المسيحى كله .

ومصر هي التى وضعت النظام الرعوى الذى يبدأ من الأسقف وينتهى الى الشماس . وعن مصر اخذته بقية الكراسى الرسولية .

ونزعة مصر الى التنظيم والتنسيق والتحديد ستظهر بعد هذا فى عهدها الاسلامى فى علوم الأدب والدين .

وقدمت مصر أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ، وفى القدم ايضا كانت موسيقى مصر الكنسية (أقدم مدرسة موسيقية معروفة فى العالم) . بل تكاد تكون اغناها ايضا بما انبثقت عنه من موسيقى مصر القديمة التى تحمل أسماءها الى اليوم الحانا .

يقول الفيلسوف الاسكندرى فيلو (ان بعض الألحان الشائقة الى الآن فى الكنيسة المصرية تحمل اسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد فاللحن السنجارى نسبة الى بلدة سنجار التى تقع شمال محافظة الغربية وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحوطها الاديرة فى العصر القبطى ، وكذلك الأتريبى نسبة الى اتريب القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة اخميم .

* * *

واخيرا قدمت مصر المسيحية الى العالم « رمز السلام » بما بثته فى القصص القبطى من رفع العلم طلبا للأمان .

وكما كانت الاسكندرية رائدة فى ميادين العلم والدين كانت تعمل جاهدة في ميدان الفن . فمهرت المدينة صاحبة (الطراز) التى كانت تحدد اسعار الحرير للعالم المتمدين ، فى تشكيل المرمر وفن التصوير وصناعة الزجاج والفسيفساء والسفن والورق مادة الكتب التى عرفت الاسكندرية منذ القدم تاليفها وزخرفتها وتصويرها ورسمها ، مهرت بل انفردت بصناعة الأوانى الذهبية والفضية حتى ليعدها « شربير » Sbreiber استاذا فى هذا المضمار .

واحتشدت البحوث الأوربية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر لدراسة الفن القبطى مسجلة كما جاء فى كتاب " (تراث العصور الوسطى) ان مصر المسيحية احد المنابع الكبيرة التى سقت الفنون الرومانية بعد جفافها وجمودها) .

ان العالم اليوم يدرس مصر المسيحية فى الفلسفة والأدب والتاريخ والفن . ومن أعلام الدارسين فى هذا المجال Lefort, Crum

وخرج الرومان من مصر المسيحية ودخل العرب فتغير الإطار وظلت الصورة هى هى : وظل الأقباط يحملون لواء العلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بعشرات السنين ومضت مصر فى هوايتها المحبوبة تتدارس العلم وتجود الفن وتبدع الأثر

وتلفت العرب حولهم فوجدوا فنونا وصناعات لا علم لهم بها ولا دراية لهم فيها فاكتفوا بالخراج وشئون الحرب حتى الدواوين ظلت تكتب بالقبطية .

يقول الدكتور أحمد أمين فى كتابه « فجر الاسلام » (واذ كانت هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة واقوى نظما اجتماعية ، كان من الطبيعى أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم ، واذ كان العرب هم العنصر القوى الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، فسادت فى البلاد المفتوحة النظم التى كانت متبعة من قبل الفتح ، كنظام الدواوين ونحوه ، واقر على ما كان عليه ، حتى لغة الدواوين نفسها ظلت باللغة الأصلية الى عهد عبد الملك بن مروان) .

* * *

وحين تطلع العرب مع الزمن الى شيء من فن مصر وعلومها لجأوا الى الترجمة عنها فأمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل الى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية وتبعه كثير من الخلفاء والولاة .

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى حديثه عن احتفاظ مصر بذاتيتها مع ملاءمتها بين العناصر الثقافية المستوردة وبين البيئة المصرية الخاصة :

(وهنا نقرر ما كان للعناصر المسيحية المصرية فى البلاد من الأثر الكبير فى اجراء تلك الملاءمة سواء منهم فى ذلك من احتفظ بمسيحيته أو تحول الى الاسلام ، فقد علموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك العيشة التى تلائم خير الملاءمة ظروف مصر ، من حيث أساليب الزراعة وطرائقها ، ونظام حيازة الأراضى ومسحها وريها ، وما يستتبع هذا كله من نظم ادارية ، وكذلك الصناعات القائمة على استخدام المواد الأولية التى بين ايديهم على احسن ما يتفق واحوال البلاد الطبيعية ، هذا الى جانب وضع الأنماط والرسوم التى ترضى أذواق الأهلين المتوارثة . أما عن مساهمة الأقباط فى الجانب العقلى من الثقافة الاسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ، وانى لأرى أن من الأسلم

لنا ان ندمج العنصر المسيحى المصرى الخاص فى مجموع ، ما ساهم به الفكر الهلينى والفكر السريانى المسيحى فى بناء صرح الثقافة الاسلامية عامة ، ولا استثنى من هذا القول الا شيئين اولهما : أن ثمة ظروفا مصرية محلية اثرت فى اتجاهات معينة للفقه الاسلامى .

وثانيهما : هو اثر مساهمة الأدب الشعبى المصرى القديم فى الأدب الشعبى العربى) .



نظر العرب الى المصريين فوجدوهم يكتبون على البردي كاسلافهم فى قديم الزمان ويغلفون الكتب ويزخرفونها فاستشرفوا الى الكتابة والزخرفة فيها على مثال مصر . وفى مكتبة جوثا كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه « الفن المصرى الاسلامى » (فى مدينة ميونخ رق يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة واشرطة تفصل بين السور بعضها وبعض تتضمن زخارف هندسية متاثرة بالفن القبطى الى حد بعيد) .

بل ان جلود الكتب فى العصر الاسلامى انما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على أوراق البردى المستعملة فيها .

وليس البردى وحده او زخرفة الكتب ، بل ان التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى . ويضم المتحف الاسلامى الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

بل استعان العرب بقبط مصر ، خارجها ايضا فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر أمير المؤمنين . ويضيف « البلاذرى » فى فتوح البلدان مسجد المدينة فيما أعانوا عليه وكأن الوليد يترسم خطا أسلافه الذين استعانوا باقباط مصر فى اعادة بناء الكعبة قبل الاسلام . وكأن مصر منذ بنى ابراهيم واسماعيل بن « هاجر » المصرية ، الكعبة ، آلت على نفسها أن يكون البناء على يديها فعادت الى بناء الكعبة ايام الظاهر بيبرس ، وفى العهد العثمانى ، وفى عهد محمد على .

وحين أرادت المملكة السعودية فى العصر الحديث أن تقوم بأعباء البناء لم تختف مصر من المسرح ولم تتحول الأضواء عن قسماتها اذ قام بتصميم البناء مهندسون مصريون وأرسلت ، التصميم ، القاهرة ، لينفذ فى الحجاز .

ان أقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف فى الاسلام على مثال من حنية الكنيسة كما تاثر بفن مصر المسيحية فى الزخرفة والبناء قصر المشـتى فى شرق الأردن الذى يلمح الـدير الأبيض والدير الأحمـر بسوهاج .

ومن عطاء مصر للفن الاسلامى بعد المحراب : المئذنة والقباب .

جاء فى كتاب The Art of Egypt Through the Ages ان فنار الاسكندرية الذى بهر العرب عند فتح مصر، هو الأصل الفنى للمئذنة .

El Manarah' as they called it, gave the name to, and became the model for, the minaret and one can still find minarets in Egypt that exactly reproduce the design of Sostratus — the bottom storey square, second octagonal, third round.

ونهض المصريون أقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى بالفن الاسلامى المصرى نهضة فيها من احساس مصر ووجدانهـا وذوقهـا الحضـارى ما أضفى على فن مصر الاسلامية طابعا مميزا وشخصية فذة حتى ان بعض آثاره كمشهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الاسلامى اجمع .

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى اشاد بها الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

من اجل هذا وغيره يقول الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق :

« ان الفن القبطى ليعـد أصـلا من أصـول الفن الاسـلامى عامة والفن المصرى الاسلامى خاصة » .

يقول الدكتور مراد كامل عن الفن القبطى :

« نجـد فى الفن القبطى زخارف اساسـها المثلثـات والمربعـات والدوائر والخطوط المتـلاقية والمتقاطعة ، مسـتخدمة فى كل شىء ، ولا ننسى ان ننبه الى ان هذه الخاصية ، وخاصة التزين التى سبقتها كانتا كثيرا ما تجنحان نحو امور رمزية ، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطى بعيدا عن الواقع وتصوير طبيعة الانسان ، الأمر الذى قد يجر الى مظاهر خليعة لا يوافق عليهـا رجال الدين .. وحين دخـل العرب والاسلام مصر وجدا تربة خصبة للتعبيرات الفنيـة ، فأخـذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التى تناسب العرب والدين الاسـلامى

مما نراه واضحا فى الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصوير الأشخاص وهكذا نجد صفات مصرية اصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره الى الفن المصرى الاسلامى » .

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتابه : «تكوين مصر» .

« ان طرائق الفن القبطى واساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الإسلامية وصناعاتها وهذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر . » ص ٧٣ ــ ٧٤

أنا لا أريد أن أسترسل فى امتداد مصر المسيحية ــ بل مصر الفرعونية ــ فى مصر الاسلامية . . ولا فى عطاء مصر المسيحية للعرب فلعل مثل هذا الحديث ادخل فى باب مصر الاسلامية باعتبار عنصر الزمن الذى تمت فيه عملية التمصير .

مصر فى الاسلام

دخل العرب مصر فى فجر الاسلام فراعتهم مصر . فمن مصر صناع اليدين ، لبسوا (البدنة) وغالوا بها حتى جعلوا ثمنها « ألف دينار » ومن مصر اتخذ الخلفاء والأمراء لباس النعمة ، بل من مصر كانت كسوة الكعبة منذ عهد عمر بن الخطاب الى اليوم .

مصر فى عين العرب دار الطراز وجزيرة الصناعة (صناعة السفن) التى كانوا يندبون لها اقبــاط مصر وعمالهــا فى كل ناحيــة من نواحى المملكة الاسلامية يستوى فى هذا العباسيون والفاطميون والأيوبيون .

وعلى اكتاف مصر قام للاسلام اسطول ، وبأســطول مصر انتقلت الى الاسلام سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض يوم اعانته ، كدأبها أبدا ، فى معركته البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منهــا لتهزم اعداءه فى موقعة « الصوارى » وهى مكرمة للاقباط الذين قادوا الســـفن المصرية فى المعــركة وشــهادة لمصر الســـمحة التى تعــرف فى الشدائد .

يقول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه «مصر ورسالتها» .

(استمرت مصر تحمل مسئوليتها عن حضــارة البحــر الابيض المتوسط حتى الفتح العربى وفترة طــويلة خــلاله ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم يلبث أن تضاءل ، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه ، قطعا لكل أمل للروم فى العودة الى مصر ، وتأمينا لها من أخطار الغزو من وراء البحر .

وشيئا فشيئا اقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر وفقدت الاسكندرية أهميتها ، وتحولت الى قرية على البحر . أجل هذا البلد الذى كان درة البحر الابيض والذى وجــده العرب لدى دخــولهم عجيبة من عجائب الزمان : بيوته من المرمر وقصوره من الفضة والذهب كما يقولون .. هذا البلد الذى هو رئة مصر التى تتنفس بها ، لم يعد له فى تاريخ البحر الابيض مكانة تذكر ..

وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر الابيض نذيرا بالنكبات . فلم نعد نعلم مايجرى وراءه شيئا . وقـــد فوجئنا بذلك أول نـزول الصليبيين . « ثم » فاجأنا الفرنســـيون عندما نزلوا بلادنا فى صيف ١٧٩٨ ، وكان هذا ايذانا بعصر الاستعمار الطويل الذى لم نخلص منــه الا بالأمس القريب) .

وكما خرجت السفن من مصر لنجدة العرب فى موقعة «الصوارى» خرجت السفن المصرية للرد على الصليبيين اذ ارادوا قطــع الطـــرق التجارية عن الشرق العربى ، كما خرجت الجيوش المصرية لدحرهم فى حطين .

حتى مدينة الفسطاط انما نشأت كما يقول الدكتور حسين مؤنس (على اساس موضع كان مسكونا قبــلا ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه بمعاونة أهل البلاد . فلم يكن العرب بنائين . وليس لدينا مايدلنا على انهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم وما تقوله المراجع من ان اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لايمكن رفضه تماما ، وان كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليــونانى بمعنى الحفير أو «الخندق») .

وكما بنت مصر للعرب الفسطاط والسفن ، بنت لهم المساجد ، والقلاع ، والحصون ، والأسوار ، والأبواب .

انها روح مصر التى تطل علينا من برجى قلعة صــلاح الدين فان براعة البناء فيها براعة مصرية قديمة .

لم تكن مصر تنظر الى العرب ، على أنهم غالبــون اللهم الا للروم الذين كانت تبغضهم . أما هى فقــد كانت تعرف لنفســـها حقا بداية الحضارة ــ وآية شعورها هــذا أنها كانت تتندر من العرب الفاتحين فى مواجهتهم ، فعندما بنى عمرو بن العاص حماما قال القبط ضاحكين: يصلح للفأر فبنى عمرو حماما آخر كبيرا نزولا على ملاحظة « أهل العلم » . واذ عرف العرب الحمامات فى مصر تحدثوا عنها طويلا شأن الانسان مع الشىء المستحدث ، وذكروا فى كتب الأدب والتاريخ صفاتها ومزاياها وآدابها ، بل وجدرانها .

واحس عمرو بذكائه الفطرى الفرق الشاسع بين جنوده من ابناء البادية وبين المصريين فتودد اليهم منذ البداية وأولم لهم وشاورهم فى

الأمر وأخذ بآرائهم حتى الرسالة المشهورة التى تنسب اليه فى وصف مصر يعزوها الدكتور مؤنس الى «من كان حوله من كبار القبط» . (١)

فتح العرب مصر فاعترتهم الدهشة مما وقعت عليه عيونهم من آيات حضارتها حتى لايكاد يسلم واحد من جغرافييهم من الخلط بين الحقيقة والأساطير من بهر الاعجاب وبعض هؤلاء المقدسى وصاحب الكواكب السائرة وصاحب المسالك وياقوت واليعقوبى وابن رستاه وابن حوقل والادريسي والمقريزى ، وغيرهم ولا يناقض هذا أبيات حانقة ممن لم ينل أصحابها مآربهم .

رأى العرب عندما فتحوا مصر حضارة لا عهد لهم بها ، ورأوا صناعة لايعرفون أسرارها ، ورأوا عمارة استهولوا أمرها حتى عمرو الذى تحكى الروايات والمؤرخون أنه رأى مصر قبل الفتح وتردد عليها .. حتى عمرو كتب الى الخليفة يصف له فتح الاسكندرية انى فتحت مدينة لا اقدر ان أصف مافيها .. (٢)

هذا عمرو ، أما من معه فبعض ماكان من دهشتهم أن العربى فى زمن الفتح كان اذا دخل الاسكندرية (اتخــذ غطاء لعينيه يقيهما بهر

---

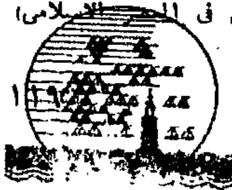
(١) ارجح ان الرســالة كتبت فى عصر متاخر ونسبت الى عمرو .. وذلك لاسباب فنية تتعلق باسلوبها .. على ان الخطاب بما يشيع فيه من خضرة ، ان لم يكن من نص كلامه فهو من صميم رأيه وعيانه لا مراء .

(٢) يقول الجاحظ فى حديثه عن الامم .. (والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا اطباء ، ولا حسابا ولا اصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية .. ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل ، ورءوس الموازين ، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط فحين حملوا جدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر بلغوا فى ذلك الغاية) . رسائل الجاحظ .

ويقول الدكتور احمد أمين (وما كان عندهم من فن فهو حتى اسمه مســتعار من الامم الاخرى . فكلمة تجار واسلحة وصائغ ماخوذة من اللغة الارامية . وكلمة صحف وشباك وسوار وحداد ماخوذة من اللغة الحبشية) ظهر الاسلام جـ ٢ . ص ٢٣٥ .

وحين عرض لرأى (نولدكه) فى اللغة العربية ، قال (ونحن نوافقه فى غنى اللغة العربية غنى مفرطا فى الحدود التى ذكرناها من قبل ، وهى الحدود التى رسمتها لهم بيئتهم فهم اغنيــاء فى الجمل وما اليــه ، والصحراء وما فيها والفاظ العواطف المحدودة التى تجيش فى صدورهم ولكن ليست غنية فيما خرج من هذه الحدود كالبحر وعالمه ، ولا بانواع الترف التى ينعم بها المنعمون فى الحضارة) فجر الاسلام ص ٦٨ .

وانتهى من بحثه الحافل بأن (كثيرا من الالفاظ العربية خلق فى العصر الاسلامى) فجر الاسلام ص ٦٥ .


١١٩٦

الطلاء والمرمر) مما سجله الاصطخرى والسيوطى والمسعودى وابن دقماق ، فاكتفوا من ميزة الفتح بجمع الخراج ـ حتى هذا اسنده فيما بعد ابن طولون الى مصرى من الواسطى ـ وتركوا ماعداه للمصريين . وبلغ من استقلال مصر بالأمر انها ظلت تطبع على الورق ـ وهو من صناعاتها التقليدية ـ شعارها هى لا شعار الفاتح لو جاز أن له وقتئذ شعارا ، حتى اذا الم العرب بما حولهم من شئون واخذوا يتطلعون الى دور فى مصر أبدلوا عبارة «الأب والابن وروح القدس» (الا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة) كما ظلوا يرسمون الحمامة فيما أخرجت أيديهم من نسيج فى القصر الفاطمى وهى عندهم رمز روح القدس .

فمصر فى دمها البناء والانشاء والادارة والنظام ولعل ابن طولون احس هذا بذكاء الفطرة فيه ووعى منشىء الدول فاعتمد فى الادارة على المصريين ، منحيا جنده من الاتراك والعرب عن هذا القطاع .

كانت مصر فى عين العرب كنزا وسرا كبيرا فكانوا فى يقظتهم يحلمون بالدفائن ـ وهو اسم أطلقه العرب على كنوز الفراعنة ـ حتى انعكس هذا فى مقدمة ابن خالدون فعقدله فصلا .

فتح العرب مصر ولكنهم لم يأخذوا دورا الا بعد سنين طويلة ، فى حين اخذت هى دورا خطيرا منذ البداية ، فاشتركت فى أزمة عثمان ، وتدخلت فى النزاع بين الأمويين والزبيريين ـ كما تدخلت بعد فى النزاع بين الأمين والمأمون محاولة الانفصال عن الخلافة ، والاستقلال .

فلما كانت المعركة الحاسمة بين الأمويين والعباسيين دارت براس مروان بن محمد فكرة التحصن بمصر . واذ هزم على نهير الزاب ، لاح له نهر النيل . واذ أفضى بدخيلة نفسه الى بعض خلصائه قال قولته المشهورة يؤيده : (هى ـ يعنى مصر أكثر بلاد الأرض مالا وخيرا ورجالا) وأيد لسان المقال ، واقع الحال ، بعد هذا على يد احمد بن طولون ، والأخشيد ، والمعز لدين الله ، وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، وعلى بك الكبير ، ومحمد على . لكأنهم جميعا يرددون وراء ذلك الأموى (هى أكثر بلاد الأرض مالا وخيرا ورجالا) .

وكأنهم جميعا ادركوا هذه الخاصة الظاهرة الجلية من خصائص هذه البيئةالمصرية المسعدة وتلك هى كما يقول‌الاستاذ‌الخولى (صلاحيتها بتكوينها المتميز المتحيز المتجدد المحوط بفواصل من الصحراء والماء ان تكون مهدا للوجود المستقل ، والدولة المنفردة ، والقومية الشاخصة ..

وبهذه الخاصة الفطرية الطبيعية وما تكسبه أهلها من خصائص معنوية وفنية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية في ابان قوة الأمم التى اتصلت بها وناوأت أثينا وروما ، وبغداد والقسطنطينية وكانت متفردة عالية الراس فى كل الامبراطوريات التى وصلت حبلها بها وظلت على مسرح التاريخ لم تختف منه ابدا ، بل لم تسقط عليها ظلال ما تقلل الاضواء على قسماتها ومميزاتها ..) .

وقد عملت شخصية مصر فى هؤلاء جميعا ، فوجهت ذهنهم الوجهة التى يمليها تاريخ مصر العام فكان الواحد منهم يمد لها غربا الى برقة وشمالا الى الشام . ان (توحيد المنطقة) ادراك مصرى قديم طالما حاولته مصر بالفتح أو التجارة .

واذ قر بهر العرب الفاتحين ، اكبوا على مدينتنا الاسكندرية اذ بهرتهم بدورها فلسفة « الشيخ اليونانى » كما يدعوه الشهرستانى ، أى أفلوطين المصرى الصعيدى ينقلون وينقلون .

وفى الجغرافية والفلك والكيمياء التى كانوا يسمونها «علم الصنعة» .. والرياضة والطب عكفوا على الاسكندرية ينقلون وينقلون حتى لتعد كتب جالينوس فى الطب وكتاب المجسطى لبطليموس مما ترجمت مدرسة حنين بن اسحق من دعائم النهضة العلمية فى العالم الاسلامى .. ولكنهم أمام « انطونينس » حاروا ، وأمام ديسكوريدس النباتى المصرى المعروف ، فوجدوا المخرج من حيرتهم أن يقتنصوا كتاب « خواص العقاقير » ليصوروه فى العراق .

وكم عمرت خزائن بغداد بنفائس الاسكندرية مما نقلته عنهم أوروبا فيما بعد عن طريق الاندلس وفى ابان الحروب الصليبية ..

وكانما سخر العرب لنقل طب الاسكندرية (ابن أبحر الكنانى) و (سرجيوس الرسعنى) ثم حنين بن اسحق العبادى وان كان نسطوريا . وقد نقل لهم فيما نقل عنا ، علومنا فى الهندسة والطبيعة .

وكتاب الخوارزمى « السند هند » خلاصة لآراء كلوديوس بطليموس الاسكندرى كما كانت جهود بطليموس و (اراتو) الاسكندريين أساسا لكل مباحث العرب فى علمى الفلك والهيئة . وعنهم ترجم الى اللاتينية والاغريقية حيث كان ركيزة لعلم الفلك الحديث .

فمصر كانت للعرب وهم الفاتحون مدرسة تعلموا فيها الكثير ونقلوا عنها الكثير وتجمع لهم من التلقى والنقل والترجمة مادة على

اساسها بنوا حركتهم العلمية حتى الذى اضافوه انما يمت بسبب قريب أو بعيد الى مدرسة الاسكندرية .. يمت الى مصر .

ومن مصر استمد العرب روح التصوف والروحانية وعليها اعتمد كتاب (الشفا) لابن سينا . فقد كانت مصر بافلوطين وراء التصوف الاسلامى ، وهو منبع ثر من منابع الأدب العربى ، تماما كما كانت وراء (الميتافيزيقا) المسيحية . كانت نظرية أفلوطين فى قدم الله وصدور العالم عنه وراء نظرية المسلمين المشهورة (العقول العشرة) أو (الوسائط العشرة) كما كان أسلوبه فى الامتزاج بالله وراء نظريتهم فى الاتصال بالخالق وان اختلفت الوسيلة .

ومن عمل الشخصية المصرية فى التصوف ، ارساء قواعده وبلورتها ، اذ نهج له ذو النون المصرى وصيره مذهبا بما استحدث فيه من تحليل وتعليل وتأويل وتصنيف للاحوال والمقامات وما نزع اليه من منازع روحية ومعارف ذوقية مما سنفصله بعد قليل ولو بعض تفصيل .

ان الطرق الصوفية لم تؤسس الا فى مصر ، سواء ولد اصحابها بها أم دخلوها للاستقرار والعيش المادى والأدبى .. حتى الطرق التى ولدت خارج مصر ترعرعت بها هى وتبلورت وتكيفت بجوها العقيدى حتى غدت بها خلقا جديدا والمثل عندى (الطريقة الرفاعية) التى اتسمت فى مصر بمجاهدة النفس واداء الطقوس ، والترنم بالصلوات ثم الرجوع الى (الشيخ) شيخ الطريقة كانه الكاهن الأكبر .

لقد نشأت هذه الطريقة فى العراق ولكنها عرفت فى مصر ، وعلى نحو يختلف عما عرفت عليه فى العراق . وهذا يسلمنا الى طابع مصر الذى تجلى فى التصوف كغيره من الوان التفكير والتعبير وهو حب الوضوح والاستقامة والبساطة والتعاليم الواضحة .

ومما يثير الدهشة ، ويدعو الى التعجب ماذكره صاحب درة الاسرار فى هذا الصدد عن السبب المباشر فى ارتحال الشاذلى من تونس الى الشرق . واليك ما ذكره فى هذا الشأن نصا قال :

(رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى ياعلى : انتقل الى الديار المصرية ترى فيها اربعين صديقا . وكان فى زمن الصيف وشدة الحر فقلت : ياسيدى يارسول الله الحر شديد فقال لى ان الغمام يظللك فقلت : اخاف العطش فقال لى : ان السماء تمطركم فى

كل يوم امامكم فقال : فأمر اصحابه بالحركة وسافر متوجها للديار المصرية) .

انها مصر ظل ورى وصديق .. انهـا مصر حلم المتصوفة المبارك .

وعلى بن محمد الغرناطى انتهى به المطاف الى المقام فى الاسكندرية ..

وعن أبى الحسن الصباغ المصرى القوصى أخذ ابن عربى نظرية وحدة الوجود.. وكان الصباغ أستاذا تتحلق حوله الندوة ، وقد اشتهر بالعمق فى التصوف والريادة فيه امتدادا لأستاذ آخر مصرى كان فى القرن السادس الهجرى أشهر رجال التصوف واعلاهم قدرا .. ذلكم هو عبد الرحمن القناوى ..

ومصر هى صاحبة فن (الحقيقة المحمدية) فى الادب الصوفى وهو فن ــ كما يقول الدكتور على صافى حسين ــ (لم يكن له قبل القرن السابع الهجرى وجود كما أننا لم نظفر رغم طول البحث وكثرة التنقيب بقصيدة أو مقطوعة وردت فى هذا المعنى على لسان شاعر شرقى او غربى ، ممن كانوا يعيشون فى القرن السابع الهجرى ، وأما الذين نظموا بعض قصائدهم فى هذا الفن من غير المصريين فانهم لم ينشئوا قصائدهم تلك الا بعد ان جاءوا أرض مصر واستقروا بهـا مـدة جعلتهم يتاثرون بشعراء هذا الفن من صوفية المصريين وبالتالى ينظمون فيه على غرارهم عددا من قصائدهم ..) .



وضعت مصر للتصوف الاسلامى اسسا ، كما اشرنا ، على يد ذى النون الذى تقول عنه المصادر الاسلامية ومن بينهـا الرسالة للقشيرى ، والطبقات للشعرانى ، والكواكب الدرية للمناوى ، وحلية الأولياء لأبى نعيم الاصبهانى واللمع للسراج الطوسى وكشف الحجب للهجويرى وكذلك الرازى والترمذى .. انه وحيد دهره علما وعبادة وحالا ، ومعرفة وأدبا .

وانه : هو راس هذه الفرقة ــ الصوفية ــ فالكل قد اخذ عنه . وانتسب اليه ، وقد كان المشايخ قبله . ولكنه أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق .

ويقـول الباحثـون المحـدثون ومن بينهم ماسينيون وبركلمان عن هذا المصرى هو احق رجال الصـوفية ــ على الاطلاق ــ بأن يطلق عليه اسم واضع اسس التصوف ويعدونه بحق واضع الحجر الأسـاسى فى صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى .

وتأثيرات (ذى النون) فى التصوف كانت جذورها تضرب فى بيئة مصر ، فقد كان كما يقول الاستاذ الخولى كثير الملازمة لبربا أخميم لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة ــ فيما يقول القدماء ــ كما يقولون أيضا انه قد فتح على هذا الأخميمى علم ما فيها من كتابات .

وسـواء أصح هـذا أم لم يصح فان الوارثات المصرية فى الفـكر والعقيدة قد لعبت دورها فى حياة ذى النون وفى أسلوب تفكيره .

وذو النون كانت عبادته لله حبا خالصا لا رهبة ولا رغبة بل محبة وشوقا وهيمانا وكان اخناتون فى سبحاته . وذو النون (أول من أنشد شعر الحب الالهى وأول من وردت فى شعره مصطلحات الصوفية كما انه أول من تحدث فى الأحوال والمقامات) .

كل هذا فى سلاسة وعذوبة تسرى الى النفس فتأسرها حين كان شعر ابى على الروزبادى يشـق فهمه ويتطلب الوقوف على مصطلحات الصوفية لادراكه .

ويذكر الدكتور محمد كامل حسين انهم ينسبون الى ذى النـون انه « أول من وسع الكلام عن الولاية ، وبحث من أيهم أفضل النبى أم الولى ، وينسبون اليه كذلك أنه أول من استخدم اصطلاح الابدال ، وأنه أول من فصل مسألة المعرفة ، الى غير ذلك من الآراء الصـوفية فى العصور الوسطى حتى يومنا هذا » .

* * *

وبعد ذى النون اعطت مصر للتصوف الاسلامى « ابن الفارض » الذى جعله نيكلسـون لا يقـل عظمة فى شـعره عن شعراء هـذا اللون فى العربية هو والتسترى مقابلين فى الفارسية الجلال الرومى والعطار .

وعلى طريقة ذى النون فى الحب الالهى .. وعلى طريقة) مصر فى الخلود الى الصحارى والتجرد والذكر والتامل والوصول الى الحقيقة وصل ابن الفارض وكانت القطبانية أو الولاية قبله تؤخـذ بالعهـد أو الاجازة أو لبس الخرقة .

وابن الفارض فيه من مصر رقة الاحساس وشفافيته ، وهو بهذه الصفة سلطان العاشقين ومصر بهذه الصفة فيه صاحبة فن فى التصوف ورفه حضارى، ولم يعرف عن غير ابن الفارض انه احتشد للغناء والوان الفن حتى لينشد اشعاره انشادا من ولعه بالنغم والتطريب .

ولم يعرف عن غير ابن الفارض انه غنته الجوارى فطرب حتى رقص على دقات الدفوف وانات الشبابه .

وكان ابن الفارض كالنموذج العام للمصرى : مطبوعا على الجمال ذواقة له ، فقد ذكر المناوى فيما ذكر عنه انه كان يخرج وقت الأصيل الى الروضة يتأمل انعكاسات الأشعة على صفحة النيل الجميل الذى كان يهوى الخلود اليه فى المساء .

حتى اسلوبه نابع من مصر .. من مدرسة البهاء زهير ثم مدرسة الشعب بأزجاله ولغته الجارية .

واسلوب ابن الفارض فى الشعر اتسم بالرقة والظرف والصفاء وحيوية العاطفة والومض . وقد شغلت (تائيته) الشراح حتى المخالفين له فى الرأى فكثرت شروحها وتشعبت ..

وابن الفارض استاذ الفن التائى فى الشعر العربى وعلى نهجه سار شيوخ التصوف فى التعبير عن آرائهم بقصائد تائية كابراهيم الدسوقى وقطب الدين القسطلانى والسيد احمد البدوى .

وعلى هدى مصر لم يتزمت ابن الفارض فنظم الى جانب الفصيح من الشعر ، الزجل بأنواعه وخاصة الشعبى منه فقد ذكر ابن خلكان ان (ابن الفارض قال المواليا وهو شعر يتألف من كلام العامة او اللغة الدارجة وان استخدام الالفاظ العربية الفصحى فانه لا يلتزم فيها الاعراب بل كثيرا ما يقع فيها اللحن تمشيا مع منطق واسلوب اللغة الدارجة التى يستخدمها عامة الشعب فى التخاطب والتحادث وفى نظم الأزجال والبليق والمواليا وكان كان) وكما استمد ذو النون تصوفه من حكمة مصر القديمة ، فان ابن الفارض استمد تطلقه من افلاطونية مصر ثم مسيحيتها . فقد كان ابن الفارض يعتقد ان الانسان الواصل تتحد روحه بذات الله حتى لقد صرح فى شعره (بامكان روية الله فى هذه الدار .) اى ان الواصل تغلب « لاهوتيته » ، « ناسوتيته » وهذا رأى مسيحيى مصر فى المسيح من أصحاب « الطبيعة الواحدة » .

كما تاثر العرب بالأفلاطونية فى زيها المسيحى ممثلة فى كتاب

« ديونيسيوس » Dionysius الذى يتناول اسرار الألوهية وعالم الملكوت مما قبس منه الكثير « اخوان الصفا » .

ويلمح بعض الثقات وجه شبه بين كتاب الغزالى (المنقذ من الضلال) وبين كتاب القديس أوغسطين المعروف « بالاعترافات » ، فان بين الكتابين (موازاة تكاد تكون تامة فيما يحكيه كل من الرجلين عن تاريخ حياته) كما جاء فى كتاب ارينولد نيكلسون .

كما تاثر ابن عربى بأفلوطين تاثرا بعيد المدى يعكس هذا كتاب « ابن عربى » حتى ليشك اسين بلاثيوس مترجم حياته فى صدق تجاربه الذوقية لحرصه على ادراج هذه التجارب فى التعريفات التقليدية للأفلاطونية .

وهكذا قام للنهضة العلمية العربية بناء على دعامة من مدينة الاسكندرية . واستارت أوروبا سيرتهم فى العصور الوسطى فكانت الأفلاطونية ركيزة لفلسفة العصور الوسطى وهى الفلسفة المدرسية Scholastic Philosophy وتركت طابعها على الفلاسفة المدرسيين .

وتأثر العرب بمدينتنا الاسكندرية مرة اخرى بالواسطة اى عن طريق النساطرة الذين كانت الاسكندرية مزباهم العلمى . وقد نقل العرب عن هؤلاء منطق ارسطو الذى كان من أثره فيهم نشوء مذهب الاعتزال كما نهج العرب نهجهم فى أسلوب التعليق على أرسطو بما يشكل شروحا فضفاضة للعبارة الواحدة وبلغ من اقتناع العرب بهذه الطريقة ان اتبعوها فى تفسير القرآن وشرح الحديث .

لقد علل الأستاذ العقاد فى كتابه « ابن رشد » الحركات الثقافية فى المغرب عامة ـــ خلافا للمستشرقين ـــ بظهور الدعوة الفاطمية فى أفريقية الشمالية وراى أن ظهور هذه الدعوة فى المغرب غيرت فيه كثيرا من وجهات الثقافة والسياسة . كما كان له الأثر المباشر فيما شغل الأوروبيين بعد ذلك خلال القرون الوسيطى من موضوعات الفلسفة الدينية ، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وعلاقته بالخلق والخالق .

ثم يرى العقاد ان الدعوة الفاطمية هى الدعوة الاسماعيلية بعينها لما كان الفاطميون ينتسبون الى فاطمة الزهراء او الى اسماعيل بن جعفر الصادق تمييزا لهم عن سائر العلويين .

وينتهى من هـذا الى أن أولئك الاسـماعيليين كانوا يشـتغلون بالفلسفة ((**ويرجحون مذهب الأفلاطونية الحديثة**)) .

ومن اتباع الاسماعيليين الذين نشروا هذا المذهب اخوان الصـفا أصحاب الرسائل المنسوبة اليهم ، ومنهم مسـلم بن محمـد الأندلسى الذى نقل مذهبهم الى البلاد الأندلسية .

وقد شاع مذهب الاسماعيلية شرقا وغربا فى العالم الاسلامى من جبال اطلس الى تخوم الهند وآسيا الوسطى ، وكان ابن سـينا يقـول «كان أبى ممن اجاب داعى المصريين ، ويعد من الاسماعيلية » .

يقول توينبى : « فى الفترة القصيرة التى عمر فيها المجتمع العربى **كانت مصر هى البلد الذى اشـتد فيه نبض هـذا المجتمع الذى كان ضعيفا خافتا فى غيرها من البلاد** . وقد قدمت مصر لهذا المجتمع حافزا هو التربة الجديدة » .



لقد أسهم الفرس فى الحضارة الاسـلامية بنصيب وافر بالرجال العلماء **ولكن مصر هى التى اعطت العرب والاسـلام تربة جديدة ذات طبيعة قوية قادرة ومبادءة ذات سـابقة فى الحضـارة والتفهم والتعمق والانشاء** .. تربة قادرة قام عليها بناؤه كما قام عليها من قبـل حيـاة الحضارة الاغريقية التى لم تجد تربة اخصب من مصر لتتبلور فيها .

ان مفخرة العرب الكبرى (الاسلام) وفى الاسلام تميزت شخصية مصر فى العطاء والوفاء . فما كادت مصر تدخل فىالاسلام وتتفتح له حتى سابقت الى **جمع الحديث وتسجيله** على ورق البردى الذى عرفت به ، وجهدها فى هذا كما يقول الدكتور كامل حسـين فى كتـابه (أدب مصر الاسـلامية) ، **(يعـد من اقدم المخطوطات العربيـة فى جميع مكاتب ومتاحف العالم)** .

وتتجلى شـخصية مصر المحققة ذات العلميـة فى هـذا المضمار فى صنيعها مع **ابن مالك** فهى حين اختارته اعملت فيه شـخصيتها فلم تقبل الروايات كمـا هى فى الموطأ بل كان عبد الله ابن وهب يدقق فى اختيار الأحاديث وهذا المصرى كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بآرائه فاذا قال مالك (حدثنى من أرضى) فانما هو عبد الله بن وهب .

والى مصر رحل جمع من الصحابة حملة الحديث عد منهم محمد

ابن الربيع الجيزى فى كتابه ، مائة ونيفا وأربعين صحابيا وزاد عليه السيوطى وابن سعد فى طبقاته . يقول الدكتور احمد امين فى ضحى الاسلام (عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم فى مصر واستيطانهم بهـا ولذلك يلقبهم المحدثون ، المصريين) .

والى مصر رحل البخارى ومسلم والنسائى لاستقاء الأحاديث من ثقاتها . وطوف الحافظ السلفى ما طوف فى اكثر بلاد العالم الاسلامى وراء الحديث ثم استقر به الأمر فى الاسكندرية اذ بنى له الوزير المصرى ابن السلار مدرسة للحديث سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمرها اليه فصارت مدرسته كعبة يحج اليها طلاب الحديث .

ان الفقيه المالكى عبد الوهاب بن على الذى وصفه صاحب تاريخ بغداد انه لم ير فى المالكية افقه منه ضاقت حاله فى بغداد فتطلع الى مصر الملاذ . واذ اكرمه المصريون « وعاش » ، بقى فى مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول : (لا اله الا الله عندما عشنا متنا ..) .

ونبغ من المدرسة المصرية فى الحديث سليم بن عتر التجيبى وعبد الرحمن بن حجيرة أبو عبد الله الخولانى (وقد روى له مسلم فى صحيحه ووثقه النسائى) ونافع شيخ مالك وفقيه الحجاز ، ويزيد ابن أبى حبيب الأزدى والليث بن سعد .

ومن عطاء مصر فى الاسلام : الرجال .

كان الشيخ عز الدين عبد السلام يقول (ديار مصر تفتخر برجلين فى طرفيها ابن منير بالاسكندرية وابن دقيق العيد فى قوص) .

وكان الشافعى يقول للربيع بن سليمان : يا ربيع ادع لى سرجا. يريد سرج الغول وهو رجل من اهل مصر عالم باللغة ولا يقول احد شيئا من الشعر الا عرضه عليه ــ فيأتى به ، فيذاكره ويناظره ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعى : يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم . كما كان الشافعى يقول عن فقيه مصر قبله ، الليث بن سعد : (الليث افقه من مالك غير ان أصحابه ضيعوه) .

وفرضت مصر شخصيتها فى الفقه : حين كيفت آراء الشافعى وحورت وبدلت فيها حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها عدولا منه عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا فى الرسالة الجديدة بالبيئة المصرية وبما خالط وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه .

ومثل هذا فعله **بمذهبه** . ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما اوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق . وكتابه (الأم) به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس . وشهادة الشعراء وصيغ الوقف .

اصبحت كتب الشافعى هى الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع . وربما دل ذلك على أن ما تضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم . وربما دل على ان **الكتب المصرية وحدها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث** ، قول احمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) لمحمد بن وارة اذ قدم الى بغداد من مصر : هل كتبت كتب الشافعى ؟ قال لا : قال ابن حنبل : فرطت . فرجع الى مصر فنسخ الكتب .. ولقد رووا ان ابن حنبل قال : (عليك بالكتب التى وضعها بمصر فانه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع الى مصر فأحكم تلك) . كما جاء فى كتاب الأستاذ عبد الحكيم الجندى عن الامام الشافعى .

وكان الشافعى نفسه يقول فيما يروى البعض عنه (لا اجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى) وفى هذا ما فيه من **اعتماده كتابه المصرى واعتداده به وحده** .

لقد كان الشافعى تلميذا لمالك . يهاجم فى العراق مدرسة الراى اى مذهب ابى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد .

ومن الحديث (**ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على راس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**) عن أبى هريرة رواه أبو داوود فى سننه والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى المعرفة .

هؤلاء المجددون الذين اقترنت بأسمائهم حركات البعث التجديدى فى تاريخ الاسلام فى البضعة عشر قرنا ، مصريون معظمهم بالمولد او المربى أو الولاء .

ففى حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الأستاذ الخولى (تجد مصر - كدابها - مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعاثها الذى يجدده تدينها المتفلسف وتفلسفها المتدين وعملها العتيد فى البعث ومن اجل البعث) .

وكما اتخذت مصر الاسلامية دورا هاما فى علم الحديث اتخذت **دورا ذائعا فى علم القراءات** . فعن (**ورش**) المصرى القبطى اخذ علماء

المغرب عن تلميذه (ابى يعقــوبه) الأزرق بن عمرو بن يســار المصرى واخذ الاندلس عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى .

وفى القراءات موسقت مصر الدين يطبعها الفنان .

كتب الشيخ البشرى مقالا عن (تقاليد مصر فى الفن) جاء فيــه ان متقدمى القراء فى مصر (لا يبدأون قراءتهم الا من البياتى ، وبه دائما يختمون) .

ويقول (على اننى لا ادرى من أين جاء مصر هذا التقليد، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد (ولعل ذلك يرجع الى أن هــذا البياتى هو نغمة البلد الأصلية ، أو هو من آصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين . ففى الحق ان هذه النغمة ، فوق ســعة افقهــا ، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة اليها والأنس بها ، مالا يجد لكثير .

أو لعله يرجع الى هدوء فى طبيعتهــا ، يلين للحنــاجر قبــل ان تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد) .

وفى يقينى أن ترتيل القرآن يسهم فى محو الأمية بتركيبالموسيقى القرآنية فى شعور الانسان السامع .

وبعد القرآن يأتى الآذان . وعمل مصر فيه يحدث عن التناســق والهارمونى فى ذرتها .

فان جميع مؤذنى المساجد فى القــاهرة كانوا كمــا يروى الشيخ البشرى فى كتابه « قطوف » (اذا ظهروا المــاذن للهتــاف بالأولى أو « الأولة » ــ ومن أولة الآذان هذه ، ابتدع بيرم ، فيما أرجح ، حين تشرب الروح المصرية ، الوان الأولة فى الغنــاء ــ وقفــروا وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصــدر اليهم عن مئذنة الشيخ صــالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ صــالح بنغمة الرصــد مثــلا ، اسرع مؤذنوا المساجد حوله بالصياح بها ، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للاسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق الا والقاهرة كلهــا تجلجــل بنغمة الرصد ، واذا بدأ بالبياتى ، أو بالحجاز ، أو بالسيكاه .. الخ فهكذا وما شاء الله كان !) .

وهذا اذا دل من ناحية على القصد الى ضبط المؤذنين لأصواتهم، وتحكمهم فى نبراتهم وعدم تاثرهم بالأنغام الأخرى ، والا اضطروا الى

الخطا ، ودفعوا برغمهم الى النشوذ (النشاز) اذا دل هذا على شيء فانه فى الموقف نفسه دليل على ان اهل مصر او سكان القاهرة على الأقل ، كانوا **اصحاب فن ، واهل ذوق ، وعشاق تطريب !**) .

ومن تقاليد مصر فى الفن او عمل مصر فى موسقة الدين ، ما استنته **من تقاليد فى حلقات الذكر** . وانا هنا ايضا اروى عن الشيخ البشرى بلفظه لأن الموضوع يتعلق بالسماع والعيان وهو مما فات جيلنا ان يشهده . يقول الأستاذ البشرى فى « قطوفه » :

(ان المنشدين الذين يجرون من الصنعة) على عرق ، لا يمكن ان يفسحوا فى حناجرهم الا على ذكر السادة الليثيه ، الى الامام الليث بن سعد المصرى ، رضى الله عنه ، وذلك لان اهل هذه الطريقة اصحاب فن موسيقى بقدر كبير، ففى طرائقهم بالهتاف باسم‌الله تعالى لا اله الا الله . الله الله ! ما يمكن للمنشد المفتن من ان يلقى أهازيجه ، موشحة كانت أو دورا او مقطوعة شعرية او مواليا ، غير متعثر ولا متحير ، بل لقد يكون ذكر الذاكرين لاسم الله تعالى ، على أساليب هذه الطريقة ، خير ما يعينه على الانشاد ، ويهديه فى سبيله السبيل) .

ومن تقاليد مصر فى الفن . . **فن الذكر المصرى** . فقد كانت مصر تجعل له قائدا هو بمثابة ضابط الايقاع . ومن مشاهير المصريين فى هذا الباب السيد على الركبى . (كان اذا جلس اعلام المنشدين لشانهم فى صدر المجلس ، جعل يدير اساليب التنغيم بالذكر تنغيما فنيا يهيىء لأولئك المنشدين أداء مهمتهم على أدق القواعد وأحسن الوجوه . ولقد يصرفهم هو فى فنون النغم ، بتوجيه الذاكرين الى هذه الناحية او هذه الناحية ، مسرعا مرة ومتمهلا أخرى ، ضابطا الوحدة بنقرة بخاتمه الفضى على حق سعوطه النحاسى . فكان بحق اكفأ « مايسترو » رأته العيون فى هذه البلاد) .

ومن تقاليد مصر فى « الذكر » : (انه اذا جلست الجماعة للانشاد ثم فرغوا مما استفتحوا به مجتمعين ، جعل كل منهم يتغنى فردا مستغيثا بالنبى صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، تسليمات الله عليهم ، ثم عاد الى التغنى ببيت أو بيتين من الغزل الرقيق ، والذى أسوق له القول ، هو أول من يبدأ بالانشاد يجب أن يكون أعلى الحاضرين سنا ، ولو كان انكرهم صوتا ، ثم يليه من يكبر سائرهم وهكذا ، وقد كان يجىء الشيخ يوسف المنيلاوى ، فى بعض الأحيان ، آخر المتغنين ، وهو غير مدافع ملك المنشدين !) .

واسهمت مصر فى تفسير القرآن حتى قصدتها الرحلة فى طلبه . حتى البخارى نقل فى تفسيره وتاريخه كثيراً من « الصحيفة المصرية » فى التفسير كما نقل عنها ابن جرير الطبرى الشطر الأكبر من تفسيره ونقل عنها معاوية بن صالح قاضى قرطبة ، **وشاد بها جمع من العلماء** حتى ليقول احمد بن حنبل فى مسنده ـ (بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا) .

وعلى الصحيفة المصرية ارتكزت التفسيرات فى سائر الأقطار الاسلامية بما شملت من تفسير مفردات غريب القرآن بل تفسير الآيات تفسيرا تاما مع ذكر ناسخها ومنسوخها .

وفى القرن الرابع الهجرى كانت مصر تمثل قمة الثقافة الدينية فقد كان فقيهها ابو بكر بن الحداد عالما فى وقت معا بالقرآن والحديث ، والأسماء والكنى ، والنحو واللغة وسير الجاهلية ، والشعر والنسب، واختلاف الفقهاء وكان أعلم أهل وقته .. وكان يدرس فى جامع عمرو واخذ عنه أعلام الجيل الذى بعده .

وقد تكلم المشارقة فى اعجاز القرآن ولهم فى هذا الموضوع كتب مشهورة ولكنه حديث الدراسة للمصطلحات البلاغية وفنونها ولكن **الدرس الشامل المستقصى .. الدرس الذوقى الفنى للآيات القرآنية** وفنونها الجمالية وتخديم الشعر والنثر لها **انما قامت به مصر** بحسها الشاعر الشفاف .

يقول الأستاذ الخولى (ان كل ما نملكه من المصنفات ـ المفردة فى بلاغة القرآن انما يرجع فيه الفضل الى المدرسة الادبية المصرية ، التى كانت ظاهرة الأثر فيما حولها من الشرق القريب).

وكم فى العصر العباسى من علماء الدين ممن أنجبت مصر بل ممن **كانوا اقباطا** امثال ابن القطاس سعيد بن زياد صاحب الحلقة فى المسجد، وسعيد بن تليد كاتب القضاء ، ويحيى بن بكير الفقيه المؤرخ .

ومن الظاهرات ذات الدلالة على شخصية مصر فى الاسلام انها وقفت من العقيدة موقفا يتفق مع طبيعة الاسلام البسيطة السمحة .. ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة او تعقيد . **رفضت مصر ان تتبع الآراء والأهواء التى عرفت فى بعض البلاد الاسلامية من الشيعة والخوارج والمعتزلة** . لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة مؤثرة اللباب على الحشو والقشور

والفضول . وتتمثل شخصية مصر فى مقاومة ذى النون ، والبويطى الذى توفى سنة ٢٣١ هـ معذبا فى سجن بغداد بسبب محنة خلق القرآن غير مقر بخلقه .

كما استنكرت مصر مذاهب الشيعة وسخرت منها حتى فى أوج حكمهم . فكم تهكمت مصر فى العصر الفاطمى من تعاليم الشيعة الاسماعيلية حتى اضطر الفاطميون كما يقول الدكتور كامل حسين الى (أن يغيروا عقائدهم حتى تتلاءم مع طبيعة المصريين) بعد أن باءت كل محاولاتهم لحمل مصر على اعتناقها بالفشل .

لقد زين ثلاثة من الدعاة للحاكم أن يدعى الألوهية وراحوا يدعون له بين المصريين فثار المصريون عليهم وقتلوا واحدا منهم وفر الآخران من مصر . واستدعى الحاكم ، الكرمانى (الذى يعرف فى الدعوة الاسماعيلية بحجة العراقيل) لتهدئة الخواطر . ولكن الكرمانى شايع مصر لا الحاكم وكتب رسالة فى الرد على أحد دعاة تأليه الحاكم وأنكر فى رسالته هذه ، الوهية الحاكم وكفر القائلين بها .

وهنا ثاب الحاكم الى رشده بعد أن لقنته مصر درسا . فعدل عن ادعائه . وقديما اعادت مصر الرشاد الى جده العزيز بالله بعد أن تهكمت عليه كدابها يوم ادعى علم الغيب فكتبت له ورقة أودعتها المنبر يقول فيها المصريون :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
ان كنت اعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

واقلع العزيز عن بدعته بل اعتذر اخوه العباس وكان شاعرا ، بلسانه فى قصيدة طويلة :

وكم من أوراق وضعتها مصر للفاطميين على المنابر تتحدى وتتهكم . ولعل اقساها عليهم تلك الورقة التى اثارت فيها فى دهاء مسألة نسبهم . ونسبتهم وفيها يقول شاعرنا :

انا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر فى الجامع
ان كنت فيما تدعى صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع
او فدع الانساب مستورة وادخل بنا فى النسب الواسع
فان انساب بنى هاشم يقصر عنها طمع الطامع

لقد مكنت الدولة الفاطمية لنفسها فى مصر بالمال والرجال ما يملأ حديثه بطون الكتب ثم مضت فقلبت مصر الصفحة غير مكترثة بما اصطنعته تلك الدولة على مسرح الحياة أو مجالات العقيدة ! وكذلك اتخذت مصر فى الاعتزال موقفا نابعا من طبيعة رأيها فى مثل تلك المقالات الكلامية الفلسفية التى تزاورت عنها مصر . وانك لتشعر أن صدوف مصر عن الجدل الكلامى لذو صلة الى حد بعيد بنظرها الى الفلسفة .

هذه الشخصية المصرية التى صدرت فى موقفها من الاسلام عن خصائصها هى فارتضته فى صورته البسيطة غير المعقدة ، تفسر موقف الاسلام منها فى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها . واذ حزب الأمر تطلع الاسلام والمسلمون الى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى . فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى ، والوجدان المصرى مذهبا ينقاد الناس له ، ويرتاحون اليه ، ويقرون عنده .

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الاستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفى مصرى بلدى السبكى **هو الشعرانى** ، وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول . وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان واهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا . وحسبنا تزكية لميل البيئة المصرية الى هذا التوفيق الفقهى الذى لا تسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهر من هذا الصوت) .

ولقد تميزت شخصية مصر فى الاسلام حتى على الرغم من اتخاذها أسماء عربية واصطناعها أنسابا عربية .

ولم تكن مصر وحدها بل فعله الفرس وهم أمة ذات حضارة وتاريخ حتى لقد كانوا يرون (حكم العرب لهم ضربا من سخرية القدر) ولكنا نرى أبا مسلم الخراسانى يصطنع لنفسه نسبا عربيا فيزعم انه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس . وأبو مسلم هذا صاحب الدعوة للعباسيين وصاحب الحظوة عندهم فما بالك بغيره ممن يتهددهم القلق على حاضرهم ومستقبلهم .

اذن فعلتها مصر للحاق بركب الحياة فى عنفوان الامتيازات المادية

والمعنوية التي كانت للعرب بحكم الدين واللغة والجنس مع ان الاسلام السمح لم يصطنع له دولة رئيسية مركزية كالامبراطوريات التاريخية المعروفة ولا شعارا من جنس غالب او شعب ممتاز ولكنه كان دولة عامة يقوم بها المسلمون من كافة الاقطار متساوين فى الحقوق والواجبات — او هكذا اراد الاسلام — ولعل هذا من دواعى ارتياح مصر الى العرب عند الفتح وعدم شعورها بالقهر بل لعلها شعرت بالخلاص من الروم . ان مصر فى الاسلام لم تشعر بتبعية سياسة تقليدية بل كانت جزءا من الدولة العامة ثم اصبحت قاعدة لها ومركز اشعاع .

لم يمض على مصر قرن من الزمان بعد الفتح العربى نظمت فيه خطوطها واعملت رايها فقررت ان تتعلم اللغة الجديدة حتى لا تدع للفاتح مجالا لعزلها عن المناصب والقيادات . وما ان تعلمتها حتى نبغت فيها ولم تكتف بهذا فمنذ القرن الثانى للهجرة ومصر تتهيأ للزعامة الادبية والفكرية فى العالم الاسلامى — الجديد — بما فيه الحجاز مهد العربية ومهبط الوحى ، وبما فيه العراق والشام وهما اقرب الى الجزيرة العربية فى المكان واللغة . ولكنها مصر .

ان سابقتها فى الحضارة والمعرفة تثبت لها خاصية التفوق والاستعلاء . وقد تزعمت مصر فى الاسلام وهى حديثة عهد به . لتخريج العلماء وايوائهم والتمكين لهم حتى كان بعضهم من شدة التصاقه بمصر يكنى بالمصرى كيوسف بن ابراهيم والد صاحب كتاب (المكافاة) .

فنون مصر وآدابها

- الفنون التشكيلية
- أدب مصر الفرعونية والمسيحية
- مصر في العربية
- مصر في الأدب الشعبي
- شخصية مصر في العصر الحديث

الفنون التشكيلية

مصر الزراعة هى مصر الفن .

فالزراعة عمار وعمارة .

الخصب يتبعه الفن الذى هو ترف مادى وعقلى هما المعنى الجميل للحياة .

زرعت مصر الحجر ، بعد الارض ، فشكلته فنونا واشكالا مختلفة .

من الحجر بنت البيت وشيدت المعبد ، وسوت التمثال ، ورفعت الهرم .

وعلى الحجر كتبت مصر .

حولت مصر الصخر الى حجر كريم حين روته بالمعنى ، وشحنته بالرؤى ، ووشوشته ، وحملته من أسرار الفن والادب والحكمة والدين ما جعله مصدر تاريخ ومظهر حضارة .

ان الحجر المصرى محظوظ فلم يرو حجر مثله من وجدان مترع بالحياة كالوجدان المصرى بما فيه من رى .

ومعنى هذا انه ولد فى قلوبهم شوق مبكر الى القيم .. الى الفن والعلم والدين دليل احساسهم بالحياة والكون وقدرتهم على التعاطف معه .

والقادرون على الانصاف والرؤية يرون الفن المصرى فنا انسانيا .

انه فن النبض . فن الصحو . فخطوطه كلها صاحية نشيطة رشيقة فيها حاسة الضبط والقياس Sense of Measure لأنه نابع من الطبيعة المصرية وفيض حيويتها . ولهذا احتفل المصرى فى فنه بالحياة

فعلى المعابد تجد كثيرا من الرسوم تدور حول الأزهار يشمها المصرى في أمان وفرحه .

فن فيه من ذخر الزعرة ومعانى النعمة .

فن يلفه سلام من روح النبات الذى أوحى به فهو انبثاقات من ضمير الزرع مرتكزة على قاعدة من الحجر .

كانوا صادقين . وكانوا متفائلين .

والفن المصرى فيه مع الصدق والتفاؤل ، **حب** .

لقد أحبوا كل شيء : الرمل • الحجر • الهواء • الأرض • النور .

اقول احبوا الحجر . كتب العالم الفرنسي ماريبيت يقول : (ان عاملهم كان يقطع الحجر من الجبل . وكأنه يقطعه من جلده) وهى عبارة قد تمر عابرة ولكنها عند التأمل مقياس على **عدم الاستخفاف والهدر** • مقياس وشاهد عميق على الحضارة والرهافة والاحساس .. بالقيمة . ان الله يقول (قوارير من فضه قدرناها تقديرا) فى دعوة للانسان الى الدقة الدقيقة .

كان المصريون مؤمنين بالفطره .

والتصوير المصرى **تصوير بالنور على الحجر** ولهذا هو ملىء بالرؤى •• وبين النور والحجر تتسلل المياه رمزا لانسياب الفكر •

ان التكعيبية والسريالية القائمة على التجريد وتجاوز الشكل بل تجاوز المنطق والتطويح الى ماوراء العقل ، يتفوق عليها الفن المصرى القائم على نقاء الشكل مع الاحتفاظ باللمحات الانسانية .

كثيرا ما يتجاوز الفن المصرى الشكل ولكن الى الأسطورة بشاعريتها وغناها .

ومن الدين الفن .

فحين يرسمون على الجدران ازهار السوسن النشوانة تعانق أشعة الشمس المصرية الوهاجة المنتشرة على وادى النبات الأخضر ، وتطفر الماشية فرحة فى الضوء الأبيض ، ويثب السمك فى النهر ، نيلنا العظيم مرحبا بالنور .

ويهتف العظيم اخناتون مهللا للنور ، متهللا فى فرحة غامرة وينظم

اناشيده ، مسبحة لخالق السوسنة الطفلة والطير السايح ، والسحابة الغادية .. منزها فى تواضع وهو ملك مصر والأنهار تجرى من تحته ، الاله الواحد الجميل كما كان يدعوه مخلصا خالصا .

ان الفن المصرى بسمة ايمان على صفحة الوادى .. ايمان صاف. حتى آلهتهم لا تكره البشر ، وتغار منهم وتحقد عليهم كآلهة الاغريق والرومان .

ان الفن المصرى كالطبيعة المصرية نور وحجر وصفاء .. ولهذا قدس قدماؤنا النيل والشمس ، فلوحاتهم فيها التحرر والعذوبة والانسياب من النيل .. ومعابدهم تفتح على الشرق .. وأبو الهول ينظر الى الشمس .

أن بيت الروح لبتاح حتب فى سقارة يمثل النور عندهم . فالفتحات فى الجدران التى ترسل منها الشمس خيوط الشعاع ، تلوين بالضوء .

ان شدة الاستضاءة فى الفن المصرى تعمل على تجميع النفس كالخفوت . فى قدرة الفنان المصرى ان يشكل كل شيء ... يشكل النور ويشكل الفضاء ويشكل الهواء .

ان الرسم المصرى لغة خاصة .

الفراغات فيه ، متنفس يعكس صفاء السماء المصرية .

والفراغات نفسها فيها سكون من سلام النفس المصرية .

وحركات الفن المصرى فى الرسم فيها رهافة وجدانية ورفه حضارى . انه شيء اكثر من الرقة .. انه رقة واناقة ولطف تعبير .

لقد احبوا الشمس وراوا فى انتصارها على الظلمة ، انتصار الحق على الباطل .

والفن المصرى تشيع فيه الوادعة من البسمات الرقيقة اللطيفة حتى لتبدو التماثيل وكأنها من لحم ودم .

الفن المصرى فن دافىء يحلو له ان يصور الأم من كل جنس تدافع من وليدها .. ومن ادراكه لقيمة وسلطان الأمومة ، يضع فى مقدمة القطيع طفل الحيوان الذى يسير فى المقدمة حتى يكون الصغير حافزا للأم على السير والتقدم فيه ومن خلفها يسير القطيع كله .

والفن المصرى كما يقدس الأمومة ، يرعى (الابوة) ويعظمها فيرسم الأب ضخما عاليا ويجعل الابن لايكاد يحاذى الساق ، اشارة الى تواضع الابن للأب واحترامه وتوقيره .

الفن المصرى فن ناعم يسجل للانسان رجلا كان ام امرأة ، اسمين على تمثاله : الاسم الأصلى ، والاسم الجميل اى اسم التدليل .

لاتكفى المشاهدة فى الفن المصرى .. انه يتطلب القراءة مرة بعد مرة .

ان القدم الثابته فى التمثال المصرى تعبر عن الحزم والحسم والتصميم والواقعية . وهى مع الثبات فيها اندفاع المركب فى النيل ، أو قوارب « ميراروكا » .

وحين تتحول الكتلة الى مرآه لقلب بشرى ، يولد فن النحت .. يقول هنرى مور وهو رائد فن النحت الحديث :

(أعطى كل شىء اذا اتيح لى ان اكتسب الانسانية الماثلة فى التمثال المصرى القديم .. هذا السكون والجلال) .

واذا كان الحصان رمز الفن الاغريقى فان المركب رمز الفن المصرى .

هناك الدفعة والسرعة .

وهنا التحرر والعذوبة والانسياب .

فى الجسم المصرى بسطة ورشاقة نخلة النيل . ان جسم نفرتارى فيه روح المسلة .. فيه الصعود والشموخ ... والأجسام المرسومة فى المعابد رياضية معتدلة حتى وهى جالسة أمام حجر الطاحون ، حتى عملية الطحن المرهقة تتم مع انتصاب الأجسام .

ان الخط فى التصوير المصرى مفعم طاقة .

انها الصحوة المصرية ابدا . الصحوة التى يعبر عنها جلسة الكاتب المصرى فى انتباهة رائعة يستوحى فكره لا يملى عليه املاء .

ومع هذا الشموخ كله ، كان المصرى يجمع الى الاعتداد ، السماحة . يصور هذا الفن المصرى الذى يجمع بين القوة والرقة ، وهو اعجاز عجزت عنه الفنون فى غير مصر .

ان فن بابل فيه وجوه شبه كثيرة من الفن المصرى ولكن قوته عنف ، وجديته جهامة ، ولكن الفن المصرى قوته تعكسها الاثار المصرية بقوة ارتكازها وثباتها وبقائها .. ثم تقابل هذا كله **رقة** فى الحركة حتى لتتمايل الخطوط فى الرسوم المصرية تمايل سنابل القمح فى حقولنا مع النسمة .

الحركة فى الفن المصرى القديم فيها من خفة ورفة الجناح بينما قبضة اليد فيها من صلابة الحجر .

الفن المصرى يمزج بين القوة والرقة امتزاج نور الشمس والخضرة فى الديانة المصرية القديمة . فى فن بين النهرين ، ثيران برؤوس آدمية مجنحــة . وهى جميلة فنيا ولكنهــا تنم **عن القوة والجبروت** ولــكن ابا الهول فيه مع القوة ، رفق وايناس وهدوء جليل وجميل .

ان القوة فى الفن المصرى جلد واصرار وطاقة استمرار ....

والرقة فى الفن المصرى راحة وواحة وسلام .

نعم الاعجاز فى الجمع بين القوة والدعة . فالمصرى يقبض على عصاة بيد قوية صلبة بينما اليد الأخرى تلين وتتسمح وهى تمسك بكف امرأته فى مودة ورحمة لا نظير لها فى فن آخر حتى ان (برستد) عالم الآثار الامريكى ، يعتبر ، العلاقات الأسرية المرحة المنطوية على الود .. التى تتجلى فى مقبرة بتاح حتب وتنطق بها النقوش ، يعتبرها كشــفا جديدا ذا اهمية اساسية فى تاريخ الاخلاق .

ان العلاقة بين الرجل والمراة فى الفنون التشــكيلية فى العالم ، اعمال معدودة ، ولكن هذه العلاقة فى الفن المصرى **موضوع كامل غنى** مميز .

لقد شكل الفن المصرى الاناء اشكالا فيها الحس الصافى للشــكل قبل الأسرات . اى قبل (مينا) و (خوفو) صــاحب الهرم ، بآلاف الســنين !! وابدع التحف من الرقائق المتموجة معلنــا انتصــاره على الصوان ، وسيطرته على المادة .

وليست المسالة التشكيل على قمته وقيمته ، ولكن **ادراك القيمة** .

ان الفن المصرى نهر آخر من الجمال ولكن البعض يغفل عن المنبع المتدفق لينظر الى البالوعة التى تتجمع فيها الشوائب .

وحقق الفن المصرى امنية الصورة لأن الفنان المصرى كان عنــده

تفتح وانفتاح وانشراح وتمهل فى التقبل فاذا رسم أحس احساسا طبيعيا موهوبا بالنسب فيخرج الأثر الفنى وكأنه منظوم من بحور رياضية . هنا يكون الفنان شاعرا موهوبا يجيد النظم ولو لم يعرف العروض . ويكون الفن من الرقة والدقة بحيث يؤكد النسب الشريفة ... النسب الذهبية . والفنان وسيلته الى النسب الفاضلة الذهبية ليس المسطرة ، ولكن نقاء النفس .

والفنان المصرى يجمع مع احساسه العميق بالنسب ، قدرته على تنويع الحركات مع اشاعة النسق فيها كما فى صورة قطيع الأبقار فى مقبرة خنوم حتب ، و (نى عنخ خنوم) التى كشفت عام ١٩٦٩ وهما من رجال قصر (اوناس) من ملوك الأسرة الخامسة .

ان الحركة فى الفن المصرى حياة نابضة . فالحمار وهو من الحيوانات الجادة يرسمونه وله رأس أخرى لتمثيل الحركة أثناء العمل .

متعة حقيقية أن نزور سقارة ونقرأ الجدران قراءة ... هنا لا تحيط بالوصف الكلمات .. لاتستطيع ... ماذا يقول الواصف بعد الذى قاله الفراعنة انفسهم فى وصف الفن المصرى .

(ان وهج النور الذى ينعكس على وجنات مشاهديه اكبر من النور المنهل من السماء) .

ماذا يقول الوصف فى فن قادر على عكس السكون والحركة فى مكان واحد .. قادر على ايحاء الصوت والصمت معا ..

انه فن حى لأنه يجمع مافى الحياة من حركات وسكنات واصوات وصمت وسائر الوان النشاط . ففيه حس التنويع والتقسيم الموسيقى. ومع هذا فهو فن الصمت .

قلما تجد فى الفن المصرى فما مفتوحا .

اذا زرنا المعبد المصرى او المتحف المصرى فيجدر بنا ان نلزم الصمت لنسمع الرسوم والنقوش وهى تتكلم ويعذب منها الكلام أو تصمت فتكون ابلغ بالرمز والايحاء .

سعيد سعيد من يسمع الغناء فى الحالين .

غير ملومين اولئك الذين ظنوا الفن المصرى ولد كاملا كما ولدت منيرفا من رأس ابيها جوبيتر فى الأساطير اليونانية .

انه كالعروس فى جلوتها .

وتذهب كل جلوة وتظل جلوة الفن المصرى .

دائما عليه رواء .

لقد لعبت الهضبة دورا كبيرا فى الفن المصرى الذى يبدو للعين الظاهرة فنا بسيطا وهو ابعد ما يكون عن البساطة المتعارف عليها .

بساطته « تماسك » و « وحدة الكتلة » و « قرار النغم » .

لم يرتفع فن التصوير فى أى بقعة من الدنيا كما ارتفع فى سقارة ولا يعدلها فى هذا الا ابيدوس .

وقدماء المصريين اصحاب هذا الفن ، **عندهم احساس بوحدة الوجود** حتى لتنبض جدران معابدهم بالصورة نبضا تخال معه أن الصور تنبع من الجدران !

انها وحدة بين الجدران والصورة ..

وفرق بين جدار ينضح بالصورة ، وبين صورة معلقة على جدار.

انه فن العطاء فما اكثر حاملات القرابين فى المعابد المصرية . ان الرحابة فى لوحاتهم فيها من رخائهم وكرمهم النفسى .

وكل بما عنده يجود .

والفن المصرى على جماله وروعته وغناه ، يوفر للعين والنفس قيما اخرى كبيرة . **انه يؤكد طاقة** العمل الجبارة لديهم .. فالعمل موضوع أساسى فى التصوير المصرى والنحت المصرى . العمل الجماعى الذى يشده خيط من النظام والتعاون والتقسيم والتوزيع .. وأخيرا **« روح الفريق »** .

ان «روح الفريق» واضحة فى الفن المصرى تمام الوضوح وأجمله ايضا .

وشىء آخر لا يغيب . **وهو « علمية »** الفن المصرى . ان الأسماك فى معبد « ميراروكا » بسقاره فيها واقعية علمية عجيبة حتى لتعتبر انها ادق واضبط من الأسماك المرسومة عن نماذج حية محفوظة للغرض العلمى .

ان اى حضارة فى العالم لم تصل الى أعطاء الخاصية المميزة Characteristic للاسماك والطيور كما فعلت الحضارة المصرية والفنان المصرى القديم .

(علمية) الفن المصرى تبدو فى ((**الاضاءة**)) حتى ان العلم الحديث لم يصل بعد الى مصدر الاضاءة عند قدماء المصريين . تلك الاضاءة التى مكنت لهم من الرسم والتلوين فى المقابر وعلى أعماق مختلفه بعيدة عن مصادر الشمس .

. **والانسان فى الفن المصرى جزء من الكون كله** حين نجد الانسان فى الفن اليونانى انسان مدينة وهو اطار ضيق عن مصر وتضيق به حتى ليفسر الأستاذ شفيق غربال ابتداءها نظام الرهبنة فى عهد الرومان بأن (النظام فى صميمه ولبه **ثورة الفلاحين المصريين** . هى فى ظاهرها ثورة على الحياة الدنيوية ، ولكنها فى حقيقتها وواقعها ثورة على المدينة ، وكل ما ترمز له المدن وحياة المدن ، وقد تردت فى وهاد الجدب والعقم والعنف والرذيلة) فالرهبنة المصرية كانت ثورة على أهمال الريف فى اسلوب الحكم الرومانى .

يقول و . أ . ل . كوبلاند : « بلغ المصريون شأوا من الانسانية السمحة لا يرقى اليه الشك ، واذا نحن قسمنا المصريين بمقاييس الفيناهم أقل قسوة من غيرهم ثم هم كانوا مشغوفين بالنظافة ونحن لانفتأ نشعر بالعطف على هذا العجوز سنوحى الذى نفى بين قبائل البدو فأخذ يحن الى مطارف الكتان النظيف التى كان ينعم بها فى وطنه .

وفى المعمار المصرى الأعمدة السامقة الثابتة (١) تحيطك بالقوة وتؤكد لك ان قومنا لم يهربوا من المادة ولكنهم جعلوها تشف وتبين . انت داخل المعابد المصرية تحس الطمانينة بين العمد الشامخة والجدران الفنية وصور الحياة التى تشعرك بالعمران .. بالعيش .

---

(١) يقول الاستاذ حامد سعيد : « ان الحياة التى بدات على هذه الارض من البداوة الاولى وانتقلت من الصيد وتنقل الرعاة الى الزراعة واستقرارها اتخذت من فن البناء رمزا لهذه الحضارة الجديدة واصبح الثبات والارتكاز والدوام ، وهى القيم الجديدة التى كان المجتمع يحاول ان يؤكدها تجد أكمل تمثيل لها فى فن العمارة » ـ (مجلة الأدب عدد أكتوبر ١٩٦٣) .

يقول ف . لوولن جريفث أستاذ الآثار المصرية بجامعة اكسفورد :
« كان المصريون القدماء مهرة فى صناعات كثيرة بصورة خارقة ولنا أن نعجب بقدرتهم على نقل النصب الهائلة التى بلغت زنة الواحدة منها ألفا من الأطنان من المحاجر الى المعبد البعيد ورفعهم المسلات الى وضعها العمودى فوق قاعدة ضيقة . وذلك كله بلا روافع هندسية . وقد أمكن فى السنوات الأخيرة تفسير هذه العجائب حقا .. وقد لا يمضى زمن طويل حتى نعرف بصورة قاطعة كيف غطيت أسطح هائلة من الصوان وغيره من الحجارة الصلدة بنقش دقيق وكتابة هيروغليفية فى خلال عهد ملك واحد » .

ويقول : « ان الكيفية التى تقام بها مسلة ثقيلة مع انها نحيلة لمن المسائل الكثيرة التى اثارتها مصر طلبا للحل ، والمسلة المصرية بشكلها العمودى التقليدى تمثل اسلوب مصر فى البناء وشخصيتها فيه .. ذلك الأسلوب الذى التزمته مصر حتى عصرنا الحاضر بعد كل مظاهر التحوير . وان العين المتأملة لا تخطىء وحدة الفن فى المسلة والمئذنة والبرج .. **انه الخيط الذهبى الذى يربط فن مصر على طول العصور** ويؤكد شخصيتها .

ان استقرار الحضارة فى مصر ولمدة طويلة على أسس سلامية اعان على نضج وجدانى عند الانسان المصرى يجمع بين الواقعية والمثالية وهى أعلى مراتب الوعى الروحى .

ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة أن فنها كان ينبثق من بين خطوطه اشعاعات قوية استطاع فى ضوئها اليونان والرومان معرفة السبيل الى التكوين والانشاء اذ عرفوا منها كيف يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح كالخطوط المصرية . يقول المهندس الدكتور محمد حماد فى كتابه « مصر تبنى » :

« لقد وصف أحد الفلاسفة القدماء العمارة بقوله (انها موسيقى متجمدة) فالعمارة المصرية اذا اردنا سرد تاريخها وتطورها خلال ذلك الاطار .. لوجدنا أنها سيمفونية خالدة متعددة الفصول متباينة المقاطع ولكنها مرتبطة تمام الارتباط .. ولم يتوقف اللحن خلال ذلك التاريخ الطويل الا ليجدد نفسه فى كل مرة .. ولكنه لم يتخل عن قوته .

لقد بدأ المقطع الأول من تلك السيمفونية الخالدة ، بمطلع قوى كانت قوته كافية لتوقظ احجار الجرانيت والبازلت الصلبة التى كانت تتوسد شاطىء النيل لتجسم منها أول امثلة لنظريات العمارة فى

العالم ، وتعلن عن ميلاد اول طراز معمارى عرفه التاريخ وتصدر جميع مراجع تاريخه المعمـارى .. حيث بدأ بالمصـاطب ، وتدرج ليـكون الأهرام .. وانتقل من لحن الى لحن ممثلا فى سلسلة من آثار المعـابد والنصب التذكارية والمنشآت المدنية ووضع اسس نظرية الانشـاء فى مصر ، وهنـا ارتفعت اعمدة المدنيـة المصرية لتلقى الظلال .. فعبرت البحر الأبيض وانتقلت الى شواطىء أوربا لتضع بذور المدنيـات التى ظهرت بعد ذلك فانعكست اعمدة معبد هرم سقارة وبنى حسن لترسم الطرز اليونانية ، والاعمدة المتراصة لتعكس ظلالها على الطرز الرومانية وزخارف العمارة الأتروسكية القديمة فى ايطاليا .. وهـكذا نرى انه كان للعمارة المصرية اثرها وفضلها فى ظهور الطرز المعمارية التى عاصرت مدنيات الغرب » .

ان الفن الفرعونى لغة وحده ، لغة يفصح فيها الرمز ، وتسـعد الايماءات ، فحاملات القرابين رمز لمصر نفسها .. مصر ذات العطاء ..

يقول ت . اريك بيت T. Eric Peet أستاذ المصريات بجامعة ليفربول ومؤلف كتاب « مصر والعهد القديم » :

(ان الرسـوم البـارزة فى الألواح الخشـبية المأخوذة من قبر « هيس » فى الأسرة الثالثة تعد من أكمل الأعمال الفنية فى العالم فهى تفسح لمن يراها آفاقا من الايحاء لا حد لها وليس ذلك راجعا الى كمال الشكل ، بل ان هذه الآفاق تجنح الى الاختفاء اذا بلغت هذا الحد من كمال الشكل) .

والتعاطف مع الحيوان المبثوثة صوره ورسـومه فى لوحاتهم رمز الطيبة والودادة التى تصادق كل شىء حى ، رمز أيمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصـوفة وأصحاب النظريات .. لا باعتبـارها عرفا واصطلاحا ، بل باعتبارها كما يقول الأسـتاذ حامد سـعيد ، « موقفا تجاه الحياة تتحقق فيه قيم ومشاعر الرواقية والمسيحية والصـوفية والبطولات النفسية دون أن تكون واحدة من هؤلاء بالذات » .

وتقديس المرأة يقولون به بغير حروف فالسـماء امرأة وايزيس الالهة المحبوبة امرأة وهاتور امرأة . والمصرى القديم لا يفارق المرأة فى صوره وتماثيله . وهو ولوع بسن الأزهار والتفتح فالمرأة فى الصـور المصرية فتاة فى ربيع العمر أو شابة فى اكتمال النضج حين الثـلاثين ، ولأمر ما ، لم تحمل الصور المصرية شيخا او عجوزا .. إنه تشـبثهم

بالحياة من فرط ما وفرته لهم مصر من نعيم .. ومن هنــا نبعت فكرة الخلود عندهم فخدموا طاقاتهم كلهــا لتحقيقها .. طاقاتهم الفنية .. والمادية على الســواء .. ان الموت الذى كانوا يكنون عنه من كراهة له انما هو فى رأيهم معبر الى الضفة الأخرى حيث تتواصل حياتهم كمـا الفوها بالتمام . ان جنة المصريين مصر خالدة . وانا اعنى « بالتمام » هنا فان المصرى من فرط تعلقه بمصر يرى انها « كنانة الله فى أرضه » ومن ثم خلق نيلا لها ونيلا آخر للاجانب كمــا جاء فى نشيد اخناتون . حتى الشمس فى عين المصريين لا تكون دائما فى غير مصر مثلها فى مصر توهجا ووضاءة .

يقــــول Griffith عن الرحالة المصريين الذين وفدوا على الشام فى الشمال وعلى النـــوبة فى الجنـــوب وتطلع بعضهم فيما وراء حــدود الامبراطورية الى بابل وآسيا الصــغرى وكريت . « ان هؤلاء الرحالين المصريين وجدوا الشمس مستعلية فى كل مكان يمموا شــطره ولكن لم تكن دائما فى غير مصر مثلها فى مصر توهجا ووضاءة » .

الفن المصرى القـــادر من يومه على صــــنع التحف من الرقائق المتموجة معلنة انتصاره على الصوان وسيطرته على المادة .

الفن المصرى الذى حفر على الخشب وهــو سريع البلى ، آثارا باقية . وهذه الآثار يقول عنها اريك بيت انها «أسمى من أن يقلده مقلد فان شــيئا لا يمكن ان يفوق التمثيل الدقيق والقصــد فى التخطيط البادبين فى هــذين اللوحين اللذين احتــواهما قبر (هيس) من ملوك الأسرة الثالثة » .

الفن المصرى فن النمنمة وترصــيع الذهب وتحبيب الحجــارة الكريمة .

الفن المصرى فن تشــــكيل المــرمر والاردواز والرخام الــزاوى والسربنتين والديوريت .

الفن المصرى فن التطعيم بالذهب والقيشانى والأبنوس والعــاج المبرقش .

الفن المصرى فن التزجيج الذى عرفتــه مصر فى عصــور عتيقة نائية .

الفن المصرى فن الحلى الأخاذ التى ابتدعتها انامل مصرية للاميرة

خنومويت ذات التاج الذى ابدعه لها الفنـــان المصرى من زهور زرقاء ورصعه بالعقيق الأحمر المركب على مخرمة ذهبية .

الفن المصرى الذى شكل من المرمر ساعة مائية قبل الميـلاد بزمن طويل (الأسرة ١٨ : ١٥٨٠ ــ ١٣٥٠ ق ٠م) .

الفن المصرى فن النحت الذى بلغ ذروته فى راس نفرتيتى وجيدها حتى ليهتف جريفيث منصفا : « ليس قبـل بداية عصر النهضـة فى فرنسا ما تمكن موازنته برأس نفرتيتى » .

والفن المصرى يقوم كالحيـاة على التفـاوت والتنويع فيجمع فى الجدار كما فى « بتاح حتب » بين دينـاميكية الصـيد ثم يتطرق الى حركة اهدأ حين ينظم فى خط ، اللاعبين بشد الحبل ثم يصل النغم الى قرار حين يهب الفنان المصرى الاطار الثالث للتجديف فى النيل .

وبين كل اطار وآخر كتابة تعينك على الاسـترواح والاسـتيعاب والاستعداد أيضا للاطار الذى يليه .

ثم تلحظ عينك ان المستطيل المكون من المجموعات الثلاث يوازى العصا المهيبة التى يمسك بها بتاح حتب كانه يجمع الحياة فى وقفة .. فى نظرة ثم تمتد عينك خلفه فتمتد « الحياة » مع البصر .. مجموعات أخرى من الكائنات والأحياء واذا الجدار سيمفونية رائعة .. او قصيدة فى شعر الحركة ، صاغها الفنان المصرى من التنوع والايقاع والوحدة .

والجدار المقابل يمثل بتاح حتب فى القصر . هنا تهدأ الحركات من احترام وخشية .. ان فى جلسـة بتـاح حتب اسـتقرارا وهدوءا سعيدا . يشيع هذا المعنى هندسة الرسم ومواءماته .

وان العلاقات الأسرية المرحة المنطوية على الود .. التى تتجلى فى مقبرة بتاح حتب وتنطق بها النقوش ، يعدها برستد « كشفا جديدا ذا اهمية أساسية فى تاريخ الأخلاق » .

ان الفن المصرى القـديم يعبر كثيرا بالهـارمونى الرياضى أو ما يسـمونه موسيقى الأفلاك وهذا يفسر القول بأن فيثاغورس تلميذ المصريين كما كان إفلاطون تلميذهم .

والحس الرياضى يعطى الفن المصرى اللمحة « المودرن » اللمحة العصرية لأنه يتفق مع العلم الحديث الذى اساسه القياس . هذا الرنين

الرياضى ينبعث من خـــلال الرســـــوم المصرية والفن المصرى بجميع اساليبه .

وخطوط الفن المصرى فيهـــا خبرة معمقة قد يجهدك فهمها وان كانت هى تجرى فى يسر ولكنك بعد أن تتفهمها تغدو أغنى نفسا وأرهف احساسا وأعمق ادراكا : تغدو شفافا فى صفاء البللور .

ان الآثار المصرية لا اقول القائمة الشامخة ولكن الخرائب . هذه الخرائب تنبثق منها رؤية البقاء .. انها عالقة بالخلود معلقة به .

ان انف ابى الهـــول المهشم ، يمر به الفنـــاء عارضا لا بقاء له . ويظل حضور أبى الهول بعد هذا فوق الأحداث وفوق الزمان .

ان آثارنا ليست منسوبة الى الماضى وحده والا اقتصر أمرها على قنى محفوظة **ولكنهـــا تخلصت من التـــاريخ والزمن وخرجت الى افق** المعنى ولهذا هى باقية .

هذا هو فن مصر الفرعونية .

اما العمارة فى مصر المسيحية فقد كانت فى **نفس الراهب** . كان فى داخل الراهب المصرى معبد مصرى بمعانيه لا بأحجاره .

ويجرى التـــاريخ فى مصر وتتعاقب الدول والعهـــود وتتصـــارع اللغات والأديان ، وفى دوامة الصراع بكل الوانه تختفى أشـــياء وتظهر اخرى **وتظل مصر وحدها هى الباقية** تطبع الكل بطابعها مهما اختلفت اسماء .

فروح مصر هى التى تطل من خلال الفنـــان المصرى مســـيحيا أو مسلما لا فرق بين الكنيسة والمسجد فى أســـلوب الفن وخطوطه المعبرة وان اختلفت التفاصيل .

يقول الدكتور مراد كامل (العمارة القبطية هى العمارة الفرعونية ، وهى العمارة اليونانية الرومانيـــة فى مصر وهى العمـــارة الاســـلامية فى مصر . وأما الفوارق التى تفصـــل بين كل منها فهى فوارق اقليميـــة اقتضتها السلطات الزمنية فى عهد ما ، ثم بعض اعتبارات دينية ولكنها فى الحقيقة ـــ تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمـــارة الفرعونية .

ومهما يكن فان ما دخل عليها فى كل ، من تحوير أو تكييف بما يلائم

ظروف البيئة ، لم يمنعهـا من ان تظل محتفظة بروحهـا وعنـاصرها الأساسية) .

وجاء الاسلام فكانت رؤيته للايمان أنه بنيان مرصوص فى عملية ربط بين النفس والبناء .. بين **العمارة والعمار** ...

والعمارة صياغة الحجر اى صلابة وصمود .

والحلى صياغة الذهب اى جمال وفن .

ومصر صـاغت الاثنين وعلمتها الصياغة الـكثير **فبنت** نفسـها **وجملتها** .

ولكن الكتب تتكلم عن وحدة الشمال والجنوب فى عهد مينا ولم تتكلم عن وحـدة الفن المصرى والنفس المصرية . وحـدة اطردت على مسار العصور .

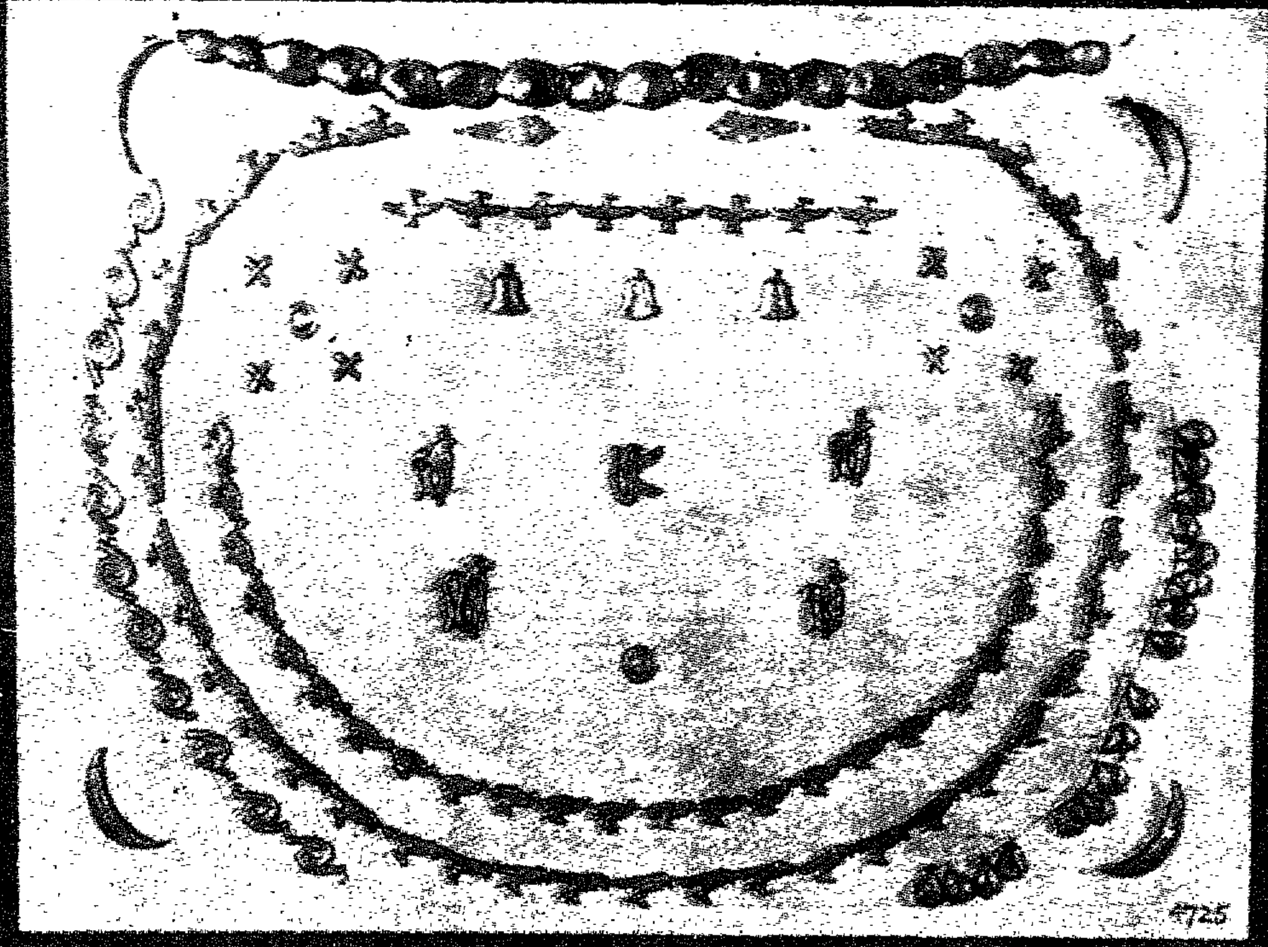
لقـد تلقى الفنـان المصرى التشكيلى اللغة العربية فاسـتخدم موسـيقاها فى فنه . فان من يتأمل الألوان فى رخام ارضية السـلطان حسن يجده لونا (بديعا) فيه تقـابل الألوان وتجانسـها على مثـال الطباق والجنـاس فى الأدب واحيـانا يسـجع الفنـان المصرى المسلم بالخطوط والتشكيلات .

واستلم الفنان المصرى فى العصر الاسلامى نظام الأحجار المتداخلة فى البناء ولكنـه زاد عليه (التقسـيم) بالألوان . كان ماخوذا بالنظام والموسيقى من اثر التـاريخ الطويل ، فخلق من (التقاسـيم) فى الفن الاسلامى ، افراحا تغنى .

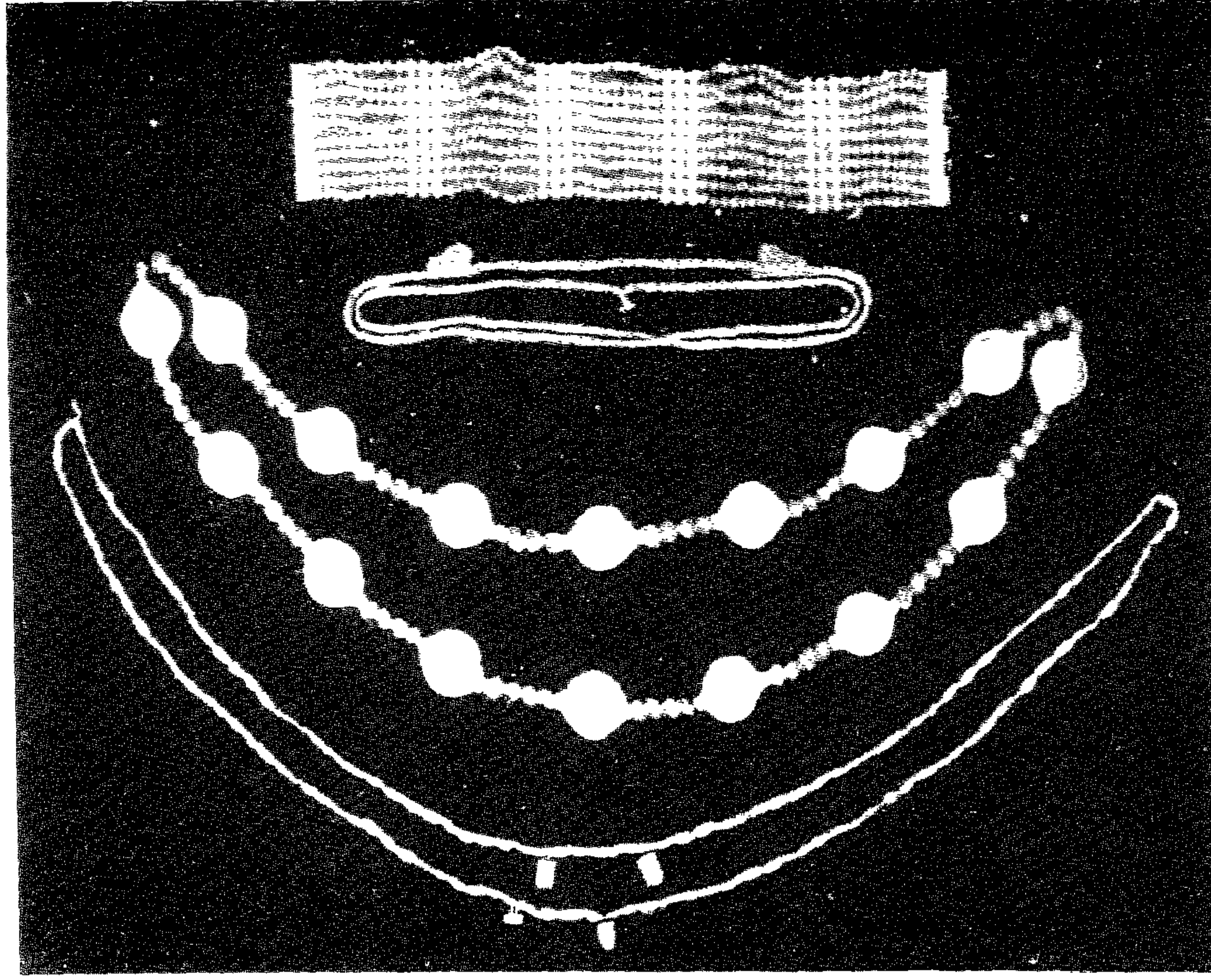
وتأتى القبلة (فتنشد) بالألوان وتقاسيم الخطوط فى (الحنية) تواشيح .

لقد موسقت مصر الدين حين رددت آياته ، ورتلتها ترتيلا ، لأنها تعرف بالحس الحضارى ان القلب البشرى يحن الى النغم والتنـاغى فاذا اقترن المعنى الشريف بالنغم الجميـل تلقت النفس سـيالا من الحنان .

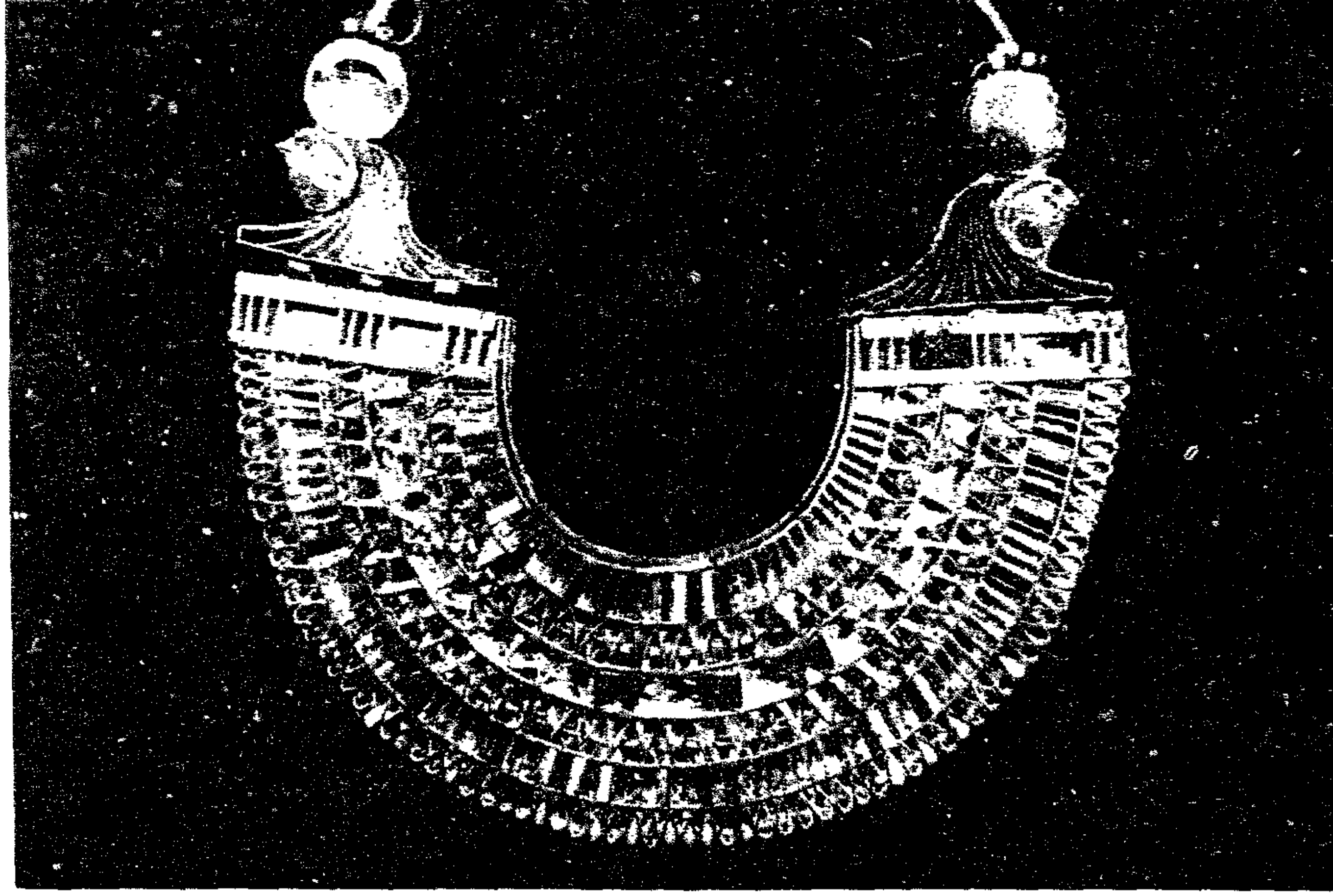
والفن الاسلامى فى مصر حين يطعم ويرصع ، يسـتجمع خبرات المسـكان الذى أنطق الحجر ، ولعب بالذهب ، ومهـر فى التشـكيل والتصوير .. وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضـياء



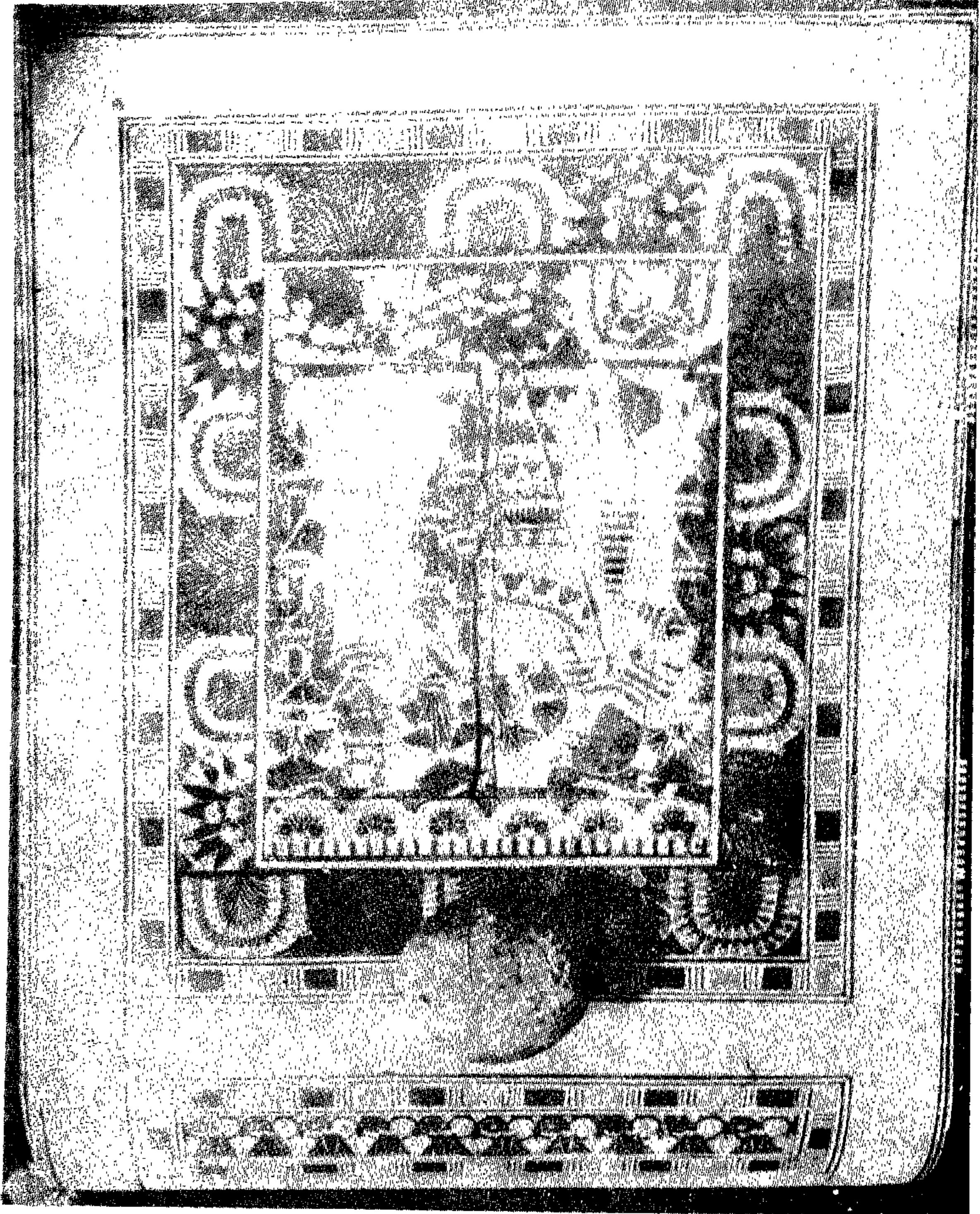
نماذج من حلى مصر القديمة



نماذج من الحلى فى مصر القديمة



حلى .. قلادة أو حزام



غطاء صندوق من مقبرة توت عنخ آمون ويرى الملك والملكة
وروعة الانجاز الفنى

الجواهر النــادرة فيما بين القصرين مما أغدقتــه ، على الفــاطميين ، القاهرة .

ففي العصر الاســلامي غلبت شــخصية مصر على الصناعة والفن فساد في الزخرفة استعمال الحفر والتلوين والتطعيم بل اقتنى الحكام المسلمون التماثيل ، هواية مصر المحبوبة منذ القدم مع توهم كثير من المسلمين تحريم الدين لها ، وما حرم الدين الا المعبود منها أو ما قصد به العبادة . ومتى ؟ في حداثة العهد بالاسلام .

لقــد كثرت التماثيل في العصر الفاطمي حتى كانت تهدى الى قاضى القضاة وحين نسب المقريزى الى صائم الدهر تكسير انف ابي الهول وكسر التماثيــل في مصر الاضمحلال ، علق على هــذا بأنه عمل يخالف الدين .

يقول الاثرى الاسلامي الكبير الأستاذ حسن عبد الوهاب في بحثه الذى القاه في مؤتمر الآثار فيالبلاد العربية المنعقد في دمشق سنة١٩٤٧ :

ان العمارة الاسلامية في القاهرة امتــازت بميزتين : الأولى انهــا احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية التي انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التي كانت تشترك معها فيها ، والثانية انهــا انفردت بمميزات اقتصرت عليها ، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال النجــارة والجص والرخام ، ميزتها على كثير من سائر البلاد الاسلامية) .



وصــافت مصر الاسلامية الى قديم فنها في الحفر ، الغائر منــه والبارز ، والتخريم والترصيع بالمينا .. فن التكفيت . ومن مصر خرج هذا الفن ، و باسمها سار ، وعنها اخذته أوروبا فقلدت ايطاليا دون أن تضاهى فلم تبلغ اوج مصر ولم .. تشاكلها .. ومضت (بيزا) بفخر اقتناء أروع تمثال برنزى يجمع بين جسم الأســد وراس النسر ، آية من مصر .

وابرز ما تجلت شخصية مصر القديمة في العصر الفــاطمي الذى تم فيه تعريبها وتأصل اسلامها .

ففي العصر الفاطمي الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول في تاريخ مصر من الناحية الدينية .. في العصر الفاطمي هذا أطلت مصر القديمة كالمتمدة على الحياة المصرية ذات القيمة ففرضت اســلوبها على الفن

فظهرت من جـديد طريقة الحفر العميق التى الفهـا اجدادنا وتجلت كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق (فى صـورة رائعة نشـاهدها فى حجاب كنيسـة الست بربارة بالمتحف القبطى . وفى المنبر الموجود فى مسـجد قوص ، وفى محراب السـيدة رقية والواح القصر الفـاطمى الصغير فى المتحف الاسلامى) .

وفوق قبة الامام الشـافعى رفع البنـاء المصرى زورقا دقيق الصنع وكأنه يلمح زورق آمون فى طيبة وزورق الحجاج .. اسـلوب مصر هو .. هو على مر العصور وان اختلفت اديان ونظم واحكام .

يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه « من روائع العمـارة الاسلامية فى القاهرة » ان الدولة الفاطميـة (احضرت معها فى مستهل حكمها بالقـاهرة بعض اساليب العمارة التونسـية ، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات واصبحت لهـا طابع قاهرى بحت فى جميع تفاصيلها) .

ويقول الفنان الأستاذ حامد سعيد فى حديثه عن الجمال الرياضى المصرى : (ان الأعمال المصرية لها جوها الخاص الذى يميزها حتى عن الأعمال التى خرجت مثلها من ثقافة واحدة الا انها فى بيئة اخرى كمـا هو الحال فى الفن الاسلامى فى الهنـد وايران والعراق وتركيـا وبلاد المغرب واسبانيا حيث تشترك جميعها مع الفن المصرى الاسـلامى فى وحدة ثقافية كبرى ولكن الفن المصرى الاسلامى يشيع فيه ذلك الجمال الرياضى الذى هو طابع الفن المصرى خلال العصور) .

ومهرت مصر بفنها وزخارفها الهندسية والنجمية اشـهر الآثار الاسلامية فى العالم مما يشهد به تابوت الامام الشافعى بقبته وتابوت الامام الحسين ومنبر مسجد ابن طولون .

وفن الزخرفة فن مصرى قديم وولع مصر به تحكيه آثارها فيـه ونقوشـها التى تدل مساحاتهـا الكبيرة على ان الزخرفة المصرية كمـا تقول : Pavla Fortova-Samalova فى كتابهـا Egyptian Ornament (لم تكن تنبع فقط من رغبة بسيطة فى التزيين ، ولكن من فزع المصرى بحيويته الدافقة من « الفراغ » .. تنبع من رغبة جميمة فى التعبير عن الايقـاعات العميقة للحياة فى اسـلوب منظور ، وتنبع من حاجة الانسـان الى وسم ممتلكاته الخاصة بشكل ما .

كما تعكس هذه الآثار احسـاس مصر بالله و قدرتهـا على التنويع

باستعمالها عددا محدودا من الالوان لتخلق منه عددا عظيما متنوعا) .

واعطت مصر فيما اعطت طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل وذاعت بفضلها فى شرق العالم وغربه كطريقة التعشيق وطريقة التجميع وطريقة الخرط مما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا . واذ عرفته اوروبا عن طريقهم فى الأندلس ، سمته « الأرابيسك » وشاعت تسميتها «لأرابسك» **وما هو الا فن مصرى قديم** تشهد به آثار توت عنخ آمون والمتحف القبطى والآثار القبطية التى تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع مصر القديمة . وانا لا احيل القارىء على المعابد المصرية المنتشرة على صفحة الوادى فتلك مهمة متعذرة فى زحمة الحياة ، الا على الدارسين والمفتونين ولكنى اطلب الى القارىء أن يطالع كتاب : Egyptian Ornament ليرى فنون الزخرفة المصرية ثم ادعه يقابل ويحكم بنفسه .

عنا اخذ العرب ما يسمى الآن «الارابيسك» وطوروه حتى وصل فى (الحمراء الى ٦٤٠ شكلا ولكنهم مع هذا عجزوا عن تجميع الوحدات الزخرفية فى كل شامل شأنهم فى هذا شأنهم فى كل شىء فهم يطورون الجزئيات ولكنهم عاجزون عن التجميع فى وحدة .. تلك الوحدة التى امتاز بها الفن الفرعونى . ان معبد ادفو على ضخامته يسمع الترتيل فى قدس الأقداس فى جميع ارجاء المعبد . لقد صمم البناء على هذا الأساس، انها الوحدة فى الفن .. وحدة تربط حتى بين الصوت والمكان.

واعطت مصر للفن الاسلامى ، الجامع الأقمر بواجهته التى تعتبر قطعة من الفن الجميل والتى نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite والتى اصبحت من اخص مميزات الفن الاسلامى كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق كما نشاهد فيها الأحجار التى تفنن البناء فى قطعها وتعشيقها وهى ـ ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة فى مصر فى عصر البطالمة فى مقابر كوم ابوبله ثم اختفت لتظهر من جديد فى هذه الواجهة . كما نشاهد ايضا كثيرا من العناصر الزخرفية التى كانت مالوفة فى العصر القبطى قد رسمت هنا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عند راسمها . والواقع اننا نلمس فى زخارف هذا المسجد و « جامع الحاكم » الروح الفنية المصرية وندرك انها اخذت تبرز من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبى الذى فرض على البلاد فى العصر الطولونى .

حتى الزخرفة بالأشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ودوائر

وخطوط متلاقية ومتقاطعة مما اشتهر به الفن الاسلامى تعود الى الفن القبطى الذى لجا الى هذا الأسلوب فى مرحلة من مراحله خدم فيها الرمز فى التعبير وتعمد البعد عن تصوير طبيعة الانسان حتى لا يتورط فى رسوم لا يرضى عنها رجال الدين .

ولما لم يكن رجال الدين فى الاسلام أقل تحرزا فان الفنان المسلم لم تطل حيرته اذ وجد فى مصر **الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية** التى تبعد عن تصوير الاشخاص فقبس منها . وهكذا نجد كما يقول الدكتور مراد كامل (صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره الى الفن المصرى الاسلامى) .

ومن اجل هذا وغيره يعتبر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن القبطى « حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة السابقة على الاسلام وبين الفن الاسلامى » .. فمن النقوش الموجودة على المعابد الفرعونية ومن آثار البطالمه ، ومن الفسيفساء الرومانية ، ومن التحف الساسانية والبيزنطية التى وصلت الى مصر عن طريق التجارة او الاهداء .. من هذه الأشياء استمد الفنان المصرى القبطى عناصره الزخرفية التى كون بها فنه الجديد ركيزة استمد منها بدوره الفنان المصرى المسلم فنه الجديد .. القديم .

واعطت مصر الفن الاسلامى مدرسة السلطان حسن التى تعد من اعظم الآثار الاسلامية فى العالم واروعها فى مصر .

ومصر هى التى استعملت لأول مرة الفسيفساء المذهبة حين زين بها البناء المصرى محراب قبة الملك الصالح نجم الدين ايوب التى انشأتها زوجه شجرة الدر .

ومصر اول من استعمل القبو فى التسقيف عندما بنت مشهد الجيوشى حين افتن الفنان المصرى فى محرابه فكان آية ..

ومصر هى التى طورت (القبة) التى غدت من معالم الفن الاسلامى وبلغت بها ذروتها فى عهد المماليك حين اهدى الفن المصرى ، قلاوون ، قبته ومحرابه ، مستمدة القدرة مما اسلفت فى فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان المصرى فى واجهات المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر زخرفية ..

واذ عاد من جديد النشاط الى المحاجر والنقش على الح
ابتسم القدر وتذكر الزمن .

وكما اعطت مصر الفرعونية للدنيا القديمة أواني الفخار الجميلة وابتكرت الخزف وحذقت صناعته وعلمته غيرها من البلاد ، اضافت مصر الاسلامية ، الخزف ذا البريق المعدني ثم ابتكرت مصر صناعة القراميد .

حتى الفخراني المصرى البسيط تفنن فى تشكيل القلل وزخرفة شبابيكها زخرفة تظفر باعجاب الرائى .

وابتكرت مصر فى عهدها الاسلامى الزجاج ذا البريق المعدنى « كما ابتكرت مصر الزجاج المموه بالمينا » . والمشكاوات التى اثرت عن مصر فى العصر المملوكى تشهد بعلو كعبها فى صناعة هذا اللون الحضارى. وتطلعت ايطاليا الى مصر مرة اخرى فقلدتها .

ان الزجاج المصرى عنوان شفاف للحضارة المصرية . وقد وصل الزجاج قمته فى مصر الفاطمية . يوم اعطته مصر فيما اعطت البلور الشفاف . لقد انشرح صدر مصر للعطاء .

اطلت مصر القديمة على الحياة الفنية فلعبت دور الطراز التى عرفت بها مصر دورها فى قصور الخلفاء والأمراء والحكام فى أنحاء العالم الاسلامى فخرجت الخلع والمنح من مصر الوهوب . وكانت الكعبة ابرز ما اقترن باسم مصر من اصحابها حتى صار تقليدا مصريا ان ترسل مصر كسوة الكعبة سنويا كما اشرنا .

ولبس العرب من مصر المطارف والقباطى والبدنة والقصب وكم سفر لمصر فى الخارج نسيجها وحريرها وطنافسها .. نعم طنافسها فقد اثبتت حفائر الفسطاط سبق مصر فى صناعة السجاد ومنافستها لايران فى هذا المضمار الذى يحسبه البعض وقفا عليها . وفى متاحف أوروبا بعامة وفينا بخاصة يقوم الدليل .

يقول اربرى A.J. Arberry (ان مصر تقوم وسط العالم الاسلامى فى الصميم ومن ثم كانت لها صلاحية الدور القيادى فى الحركات الاسلامية بما هى مهياة له .. تماما كما فعلت فى العصور الافريقية والمسيحية اذ كانت بمثابة مستودع تلتقى فيه افكار وثقافات الشرق والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من ان مصر لا تزال تمثل هذا الدور . تقدم الغرب الى الشرق الاسلامى وتقرب بنفس القدر

والأهمية الشرق الاسلامي الى الغرب .. كان هذا ولا يزال عمل مصر الأرفع . وفي هذا العمل لعبت مصر دورا لا ينكر ولا يجحد في مقدرات الاسلام) .

هذا ما فعلته مصر للاسلام بعد المسيحية . وعلى مقربة من مصر بلد صالت وجالت فيه الطائفية والحروب الأهلية مما يثبت أن الوسائل الحديثة والترف والظهور بمظهر أوروبا ليس الا قشرة تحتها جاهلية وامية نفسية فلم يستطع أن يرتفع الى افق المسيحية والاسلام اللذين مرا عليه بل نبتا على بعد خطوة منه .

ان العراقة اكبر كثيرا من التمدن واقتناء الآلات الحديثة .

ان الحضارة تاريخ طويل وأصيل .

أدب مصر الفرعونية والمسيحية

مصر مؤمنة حضارتها دينية .

ومصر فنانة انجازاتها الرائعة كنوز منشورة .

ومصر اديبة

اديبة بالمواعظ وآداب السلوك ، والأمثال ، والحكم الخالدة .

اديبة بالمقالات والرسائل .

اديبة بالقصص القصيرة حتى ليعود الاعتقاد بين علماء الآثار **ان مصر هى موطن القصة القصيرة .**

اديبة بالأناشيد والتسابيح .

اديبة بالأغانى التى نظمتها .

اديبة بالتمثيليات والمسرحيات . ان **مصر هى صاحبة اول بحث فلسفى واول مسرحية فى آداب الدنيا هى مسرحية منف** التى يحتفظ بها متحف لندن . والتى كتبت قبل الدراما اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة . (كتبت ٣٤٠٠ ق.م) . انها محاولة لتفسير أصل الأشياء .

لقد تدرجت الدراما الافريقية فى التكوين حتى بلغت مرحلة النضوج . اما الدراما المصرية الأولى (مسرحية منف) فقد وجدت كاملة ناضجة لم يعرقل سير الأحداث فرق المغنين كما فى الدراما الافريقية .

وعرفت مصر ادب السخرية كالذى سجلته رسالة حورى الى امنموبى .

ومن الطريف ان السخرية المصرية صالت وجالت فتهكمت من الحرف المختلفة ولكنها **عند الكتابة** وقفت خاشعة من عمق ايمانهم

بالكتابة حتى جعلوا لها الهـة سموها « سيشـات » وزوجوها من اله الحكمة من احساسهم بما بين الكتابة والحكمة من علاقة ذهبية .

كتبت الدولة القديمة على أوراق البردى، وكتبت الدولة الوسطى على الواح من خشب او على الفخـار والحجر الجيرى .. هـذا غير البردى .

كما حمل الينا البردى من آداب مصر الكثير ، مع اعتبار قائم وهو البرديات التى محيت نصوصها ليكتب مكانهـا نصـوص اخـرى أو البرديات ألتى ضاعت او نهبت .

بلا شك ضاع من الأدب المصرى القديم ، الشيء الكثير والا اين ادب الأسرة الثامنة عشرة التى نشرت فيها مصر جناحيها وطوت تحت لوائها البلاد والممالك ؟

يكفى أن الأهالى البسطاء كانوا يستعملون البرديات فى الوقود . ثم اكتشفوا أن السياح يهتمون بها ويشترونها وما دروا انها لا تقـدر بثمن . ولكنهم حسبوا الثمن الزهيد الذى يقبضونه شـيئا فبـدأوا يقسـمونها فيما بينهم عند العثور عليها . وينجم عن التقسيم أن يتفرق الكتاب الواحد ، أو الموضوع الواحد ، اشتاتا ، كل جزء فى مكان .

ويضيع مع هذا كله ، على الدارسين ، مكانها الأصلى ، وبالطبع تاريخ الحصول عليها .

وخرجت من مصر برديات قصـة سـنوحى ، وقصـة الأخوين وغيرهما لتستقر هذه الروائع الأدبية فى متحف برلين ، كما اسـتقرت مسرحية منف فى متحف لندن كما أشرت .

أما كتاب (الجميزة والنخلة) الذى كان يعتز به الملك امنحوتب الثالث ، وكان ملوك مصر يحبون الأدب ويقتنون كتبه ، فلم يعثر عليه أو لم يبق منه الا بطاقة الاسم فقط .

ومع هذا يقول الاثرى المصرى الدكتـور انور شكرى ان (فيما لدينا من الأدب المصرى ما يمكن أن يعطى صورة حية متعددة الجوانب تفـوق فى قيمتها وعددها ما خلفتـه الأمم التى عاصرت المصريين من آثار ادبية) !!

والأدب المصرى القديم حصاد ثلاثة عصور :

الدولة القديمة — الدولة الوسطى — الدولة الحديثة .

ابرز آداب الدولة القديمة ، متون الاهرام وهى منقوشة على جدران خمسة من اهرام الأسرتين الخامسة والسادسة وقد وفروا لها من الوان الجمال التعبيرى ما جعلها سورا نابضة حية كان لها فى نفوس المصريين جميعا وعلى مر العصور ، مقام كبير ، حتى اذا تعززت مكانة الفرد فى الدولة الحديثة استشرف الناس ، خاصتهم وعامتهم ، الى متون الاهرام فنقشوها على توابيتهم كالملوك سواء بسواء فى نزعة ديمقراطية من مصر الحرة .

وهنا اصبحت متون الأهرام ركيزة لكتاب الموتى .

بل ان متون الاهرام (تنبيء عن تركيب شعرى قديم بهيئة ابيات من الشعر الموزون المقفى المنسجم فى وضع كلماته ومعانيه ، وقد نقل العبرانيون هذا التركيب الشعرى الى ادبهم بعد الفى سنة منذ ذلك التاريخ ، وهو تركيب معروف فى الميزان باسم (توازن الأعضاء) .

ومن آداب الدولة القديمة : قصة خلق العالم ، ومواعظ بتاح حتب ، وكاجمنى ، وحديث الشاعر ايبور الى الملك الشيخ بيبى الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة . وبرديتان طبيتان (بردية ادون سميث وبردية ايبرز) ، دراما انتصار حور على أعدائه (فى الأسرة الثالثة) .

وهى منقوشة على جدران معبد ادفو وتحتوى على مقدمة وثلاث فصول مقسمة الى مناظر وخاتمة .

وهى عند الأثرى المصرى الأستاذ سليم حسن (تضارع الدراما الحديثة من حيث تمثيل حوادثها وحوارها اللطيف وتضحية فرق المغنين فى سبيل اظهار شخصيات الممثلين . هذا الى ان كل التمثيليات المصرية كانت على ما يظهر تحتوى على تعليمات مسرحية وقوائم بمعدات المسرح) .

تراجم الأشخاص .

وهذه الآداب من النضج والقيمة بحيث يذهب بعض الباحثين الى القول بأنه لابد ان يكون لمصر ادب قبل الأسرات انضجه اصحابه وطوروه ، وان ادب الدولة القديمة لابد أن تكون سبقته محاولات ومجاهدات فنية كان هو حصادها .

وقد اتسمت آداب الدولة القديمة بالوضوح والواقعية والصورة وروح الخلق والابداع ، والتشويق والفكاهة . تلك العناصر التى تؤكد مصريتها فى الفكر والأسلوب .

وابرز آداب الدولة الوسطى دراما التتويج ، وهى تقع فى ست واربعين منظرا .

ووصية (متمحات الأول لابنه سنوسرت الأول، وقصة سنوهى، وقصة الملاح الغريق الذى هبت عليه العاصفة والذى حطمت الأمواج شراعه وحملته اليه ، وقذفت به هو نفسه الى الشاطىء (لا رفيق لى الا قلبى ، راقدا فى غابة لا احتضن الا الفراغ .) مما تأثرته الأوديسة بعد هذا فجعلت يوليسيس يركب سفينة فى البحر ، يثير زيوس فى وجهها العاصفة أيضا فتتحطم السفينة ولا يبقى الا قطعة خشب وهنا يناقش الملاح الاغريقى قلبه اى انه (رفيقه) تماما كالملاح المصرى .

ولم تقتصر المحاكاة على يوليسيس فقد حاكى دانتى ايضا ، الملاح المصرى ، فى قوله :

(ما اعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت !)

انها بعينها كلمة الملاح الغريق .

وقصة السندباد البحرى فى الأدب العربى هى بعينها قصة الملاح الغريق . بل ان « ديورانت » فى « قصة الحضارة » يعتبرها اقدم صورة من صور قصة روبنسن كروزو .

وقصة حاسب كريم الدين فى الف ليلة وليلة هى بعينها القصة المصرية (الملاح الغريق) .

وتأثر (بالف ليلة) الآداب الأوربية الى حد بعيد وخاصة الأديبين الفرنسى والانجليزى .

وقد رسم الأدب المصرى صورة منمنمة للصحراء فى قصه (سنوهى) ، ورسم صورة ملونة للبحر فى قصة (الملاح الغريق) . وفى الاثنين رقرق الاديب المصرى ، الحنين ، الى مصر ، نشيدا ، والشوق الحانا .

أما الدولة الحديثة فقد ذهبت بمفخرة تسابيح اخناتون وتغنيه بجمال الطبيعة ، ومناجاته للشمس وقد رقرقها باللغة الشعبية لتكون أقرب الى الناس .

ما أكثر تعدد أعمالك .

وهى على الناس خافية .

يا أيها الاله الأحد
الذى لا يوجد بجانبه شان (لأحد)
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك

أيه أيها الاله الذى سوى نفسه بنفسه
وخالق كل أرض
وبارىء كل من عليها
والناس ، وكل قطعان الماشية والغزلان
وكل الأشجار التى تنمو فوق التربة .

انت الأب والأم لكل من خلقته .

وعرفت مصر فى الدولة الحديثة **أدب الرحلات** وخير مثال له رحلة ونامون .

ومواعظ انى (ادع بقلب محب ، ولفظ خفى ، ليستجيب الله ما تدعو اليه ، ويصغى الى ما تقول) .

والأغانى اغانى الفلاحين والعمال والرعاة .

اغانى السرور

اغانى الحب والجمال فى لغة جميلة وعاطفة سامية راقية (خمس مجاميع)

وهى اغان ترسم للطبيعة لوحات تكاد يسمع فيها خرير الماء وحفيف الشجر ورفيف الورد وغناء الطير .

وقد جاء نشيد الأناشيد على غرارها .. يعزز هذا ما جاء فى رحلة (ونامون) من أن أمير جبيل ١١٠٠ ق.م قد تعلق مغنية مصرية

اخى ما احلى الذهاب الى البحيرة .
والاغتسال على مراى منك .

لترى جمالى فى ثوبى الكتانى الرقيق .
حينما يبتل ويلتصق بجسدى .
سانزل معك الى الماء .
ثم اخرج اليك بسمكة حمراء جميلة .
على اصابعى ترقد .
تعالى وانظر الى .

انه غزل ولكن فيه براءة الطفلة تلهـو بسـمكة حمراء ترقد على صابعها . فيه طعامة بنت البلد ودلالها .

ولا يقل رد فتاها عنها جمالا وعذوبة :

(ان حب اختى (حبيبتى) على ذاك الشاطىء ، ويفصـل بينى وبينها رقعة ماء ، وتمساح على الشاطىء الرملى يربض ، ولكنى حينما انزل فى الماء اسير على الفيضان ، وقلبى جسور على المياه التى اصبحت كاليابسة تحت قدمى ، وان حبهـا هو الذى يبعث فى تلك القوة . حقا انه الحب يعمل له رقية الماء . وانى حينما انظر الى اختى آتية ينشرح صدرى . وذراعاى تفتحان لتضماها وقلبى يبتهج ..) .

وشجرة الجميز لها حضور مميز فى الأغانى المصرية .

(ان شجرة الجميز الصـغيرة التى قد غرسـتها بيديهـا تنطق بصوتها لتتكلم . ان همس اوراقها حلو كالعسل المصفى . ما أرشـق غصونها الجميلة فهى خضراء وهى محملة بفاكهة الجميز التى تفـوق العقيق حمرة . واوراقها مثل حجر الزمرد خضرة ، ومجلوة كالزجاج ، وخشبها لونه مثـل حجر « نشمت » ـ أبيض تعلوه زرقة ـ وحبتهـا مثل شجرة « البسبس » . انها تجذب اليها اولئك الذين لم يجـدوا فيئا لامتداد ظلها الظليل) .

وشجرة الجميز تبادلهم حبا بحب فهى تقول او هكذا رووا عنها :

(انى لا أحب الثرثرة ولا اتحدث عما أرى) .

لقد احبوها حتى تمنى راحلهم لو تسـكن معه اغصـان هـذه الشجرة . وهى الى اليوم تزرع بالقرب من القبور لتروى ظمأ الموتى من الظل والشراب كما يعتقد فلاحونا الى اليوم . وهم يعتبرون قطعها من الأمور المحرمة .

وعرفت مصر الادب التعليمي التهذيبي وهو امر طبيعي في بلد ترسل بالحكمة وعرف الكتابة وصنع اوراقها واشتق من نباته البردي اسم الورق في اللغات الاوربية الى يومنا هذا . فلفظة Paper من البردى .

(اذا كنت في جماعة جلست في بيت رجل اكبر منك فتناول ما يعطيك وضعه بين يديك وانظر الى ما امامك) .

ومن مصر اخذ سفر الأمثال هذه الحكمة فقال :

(اذا جلست تأكل مع متسلط فتامل ما هو امامك تاملا) سفر الامثال ٢٣ : ١

كما نقل سفر الامثال كثيرا ، من تعاليم امنوبى مثل :

(لا تتعب طلبا للمزيد . ولئن جاءك المال مسروقا فلن يبيت معك سواد الليل . فاذا اتى الصباح لم يعد في بيتك لانه انما يصنع لنفسه اجنحة كالأوز يطير نحو السماء) .

وفي سفر الأمثال :

(لا تتعب لكى تصير غنيا . كف عن فطنتك . هل تطير عينك نحوه وليس هو لانه انما يصنع لنفسه اجنحة كالنسر يطير نحو السماء)

ومن حكم امنوبى :

(لا تستصحب رجلا غضوبا ولا تلحن في محادثته) .

ومن ورائه سفر الأمثال يقول :

(لا تستصحب غضوبا ومع رجل ساخط لا تجىء) ٢٢ : ٢٤

من ادب مصر :

* لا ترفع ابن عظيم على من كان ذا مولد وضيع ولكن خذ لنفسك الرجل لفضائله .

* لا تكن فظا فمن الخير أن تكون شفيقا .

وفي الأدب المصرى دعوة الى المرح وراحة البال .

افرح حتى تنسى قلبك
ان الناس سوف يترحمون عليك
وزد ما عندك من مسرات
ولا تدع قلبك يبتئس

وافعل ما يحلو لك في الأرض
حتى يأتيك يوم النحيب
فان ساكن القلب لا يسمع العويل
ولا ينقذ الصراخ انسانا من عالم الأموات
الا ترى معى ، فيها ، نزعة خيامية !
ودعا الملك رمسيس ربه في المعركة :
انى ادعوك
وانا وسط اعداء لا اعرفهم
فاجد آمون اعز لى من مليون راجل (أى المشاه)
ومئات الألوف من المركبات
ومائة الف رجل من الاخوه والبنين
ان جهد الجمهرة من الناس عدم
لأن امون اعز منهم
ان امون يستمع لى
ويجيبنى اذا دعوته
وينبسط الى يده
ويدعو من ورائى
الى الامام الى الامام
فانى معك ويدى معك
وانا اقرب اليك من مائة الف من الرجال
انا سيد النصر الذى يحب القوة .
وفى القرآن الكريم :
(وما النصر الا من عند الله)
(يد الله فوق أيديهم)
(واذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان)
روح اسلامية قبل الاسلام .

... ...

وفى ادب مصر الساحرة ، قصص خارقة يتمثل فيها تمساح الشمع تمساحا حيا ثم يلتقطه الكاهن اوبا اونر فيعود سيرته الأولى .

انه يشبه عصا موسى الذى ربته مصر . عصا موسى التى امسك بها (**فالقاها فاذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى**) .

ويشبه طير عيسى

(**انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا ، باذن الله**) .

اما التمساح الذى غاص بالفتى سبعة ايام فيذكرنا بقصة يونس والحوت .

وفى القصص المصرية ينفلق ماء البحيرة ويظهر قاعها ليلتقطوا حلية الفيروز التى سقطت من صاحبتها فى نزهتها .

وبنو اسرائيل يفرحون بنجاتهم من فرعون مصر الذى تعقبهم (**فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**) .

وفى القصص المصرية راس الثور تعود الى جسمه بعد انفصالها عنه ويسمع له ، على البعد ، خوار .

(**واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا**) .

وفى قصص مصر يفعل السحر الاعاجيب نفيها ينطق الحيوان ، ويستحيل النبات حيوانا ، ويخرج القلب من جوف صاحبه ، ويظل مع هذا حيا . !!

خوارق وخوارق بها أو بدونها ، مصر ساحرة .

وفى الأدب المصرى القديم **اقدم صورة لقصة سندريلا** وقدمها الصغيرة وسائر احداث القصة المعروفة .

وفى الأدب المصرى **قصص على لسان الطير والحيوان** تشير الى الضعف الانسانى وعيوب البشر وتأتى فى السياق ، الحكمة والمعانى السامية .

كتبت مصر هذا **قبل كليلة ودمنة وقبل لافونتين** .

« الكلام الجميل اخفى من الزمرد »

« آتونى بمن يحدثنى بكلام جميل واحاديث مختاره ليبتهج قلبى بسماعها » .

لقد بلغ من عمق نظرة المصريين الى الادب انه كان عندهم مرقى الى الوزارة ومراكز التشريف .

وكان الحكيم «بتاح حتب» يسمى مواعظه : المقولات الجميلة .

وكانت بحق جميلة ونفيسة . انه يقول :

(الكلام الجميل أخفى من الزمرد) .

اليس الزمرد حجرا كريما غاليا ؟

والذين يغالون بالادب ليس الحكماء وحدهم بل الملوك ايضا . وعندهم من كل الطيبات ولكنهم بالانسان الاعلى فيهم هفت ارواحهم الى الادب الجميل حتى ليقول الملك سنفرو والد الملك خوفو :

(آتونى بمن يحدثنى بكلام جميل واحاديث مختارة ليبتهج قلبى بسماعها .)

ان بهجة قلبه فى الادب .

والملك خيتى يوصى ابنه الملك مريكا رع : (كن فنانا فى الكلام لتكون قويا فان قوة « الرجل فى لسانه . وان الكلام لأقوى من اى قتال) .

الملك صاحب الجيوش والخزائن يرى القوة فى الكلمة ...

أفق من المعنى نفذت اليه مصر لم تطمس شفافيته الماده ، وكانت متوفرة عندها .

انه سر من اسرار الحضارة المصرية .

سر وجود .. وسر بقاء .

ويبلغ من حب المصريين الادب انهم كانوا يصفون بليغ العبارة بقولهم : (كل مايخرج من فمه مغموس بالعسل .)

ومن امثالهم : (ان فم الانسان ينجيه ، وكلامه يدعو الناس الى احترامه .)

ترى كم عدد أواني العسل وقناني السكر التى كان يملكها الفلاح الفصيح ؟

لقد أكمل من الشكاوى تسعا ولكن رصيده من العسل اضعاف هذا العدد بلاشك .

ويزيدها حلاوة استمراء مليكه لها ، واستزادته منها .

كان الملك الفنان بدوره يحب الكلمات التى تقطر شهدا فأرجأ انصاف الفلاح الفصيح وهو مقتنع بحقه ، حتى يسترسل فى النغم أى البلاغة .

يقول ارفين سيد

(ان المصريين من الامم التى كان لها ضلع وافر فى العلوم القانونية . وان القضايا امام البلاط تشكل فى الادب المصرى جانبا أكبر من نظائره فى آداب الامم الاخرى) .

لقد اجتمع للمصريين سحر الكهنة وسحر البيان حتى وصية امنمحات الاول لم تستطع اخطاء الناسخين أن تحجب جمالها .

اما قصة سنوحى فان الكتاب العالميين يعدونها **ذروة من الأدب العالمى** . كما يدخلون فى **عداد الأدب العالمى اغانى الحب المصرية بما فيها** من وصف للطبيعة ، طبيعة مصر ، وطبيعة النفس الانسانية حتى قيل ان مليها طابع «هين» .

وترى هل كان الشاعر الالمانى معجبا بأدب قدماء المصريين ، فان وصفه لمرض الحب مطابق تماما لوصف الشاعر المصرى القديم القائل :

« عندما اشاهد عينيك

حينئذ تتلاشى كل احزانى وآلامى » .

كان المصريون اول من كتب الأدب لذاته . لقد رفعوا «امنحوتب» الى مصاف الالهه لا بوصفه مهندسا طبيبا ولكن بوصفه أديبا . وكان على الكاتب المصرى القديم .. كل كاتب عندما يشرع فى الكتابة أن ينزل من قلمه نقطتين من المداد قربانا لامنحوتب .

ومن الطريف أننا الى اليوم ، نفعل هذا لا شعوريا . انها تحية القلب المصرى ووفاؤه الذى لا يغيض لسدنة الحكمة وفرسان البيان . تحية للخلق والابداع .. للفنون .. لامنحتب .

كان المصريون يعتبرون ((الكتاب)) اخلد للذكرى من البنين ، ومن المعابد والاهرامات والمال . تقول احدى برديات الاسرة التاسعة عشرة عن اصحاب القلم (انهم خلقوا لأنفسهم القبور والاهرامات في قلوب من يذكر اسماءهم . وان اسما تتداوله أفواه الناس لنافع في الآخرة . ان الانسان فان وجثته هباء ، وجميع معاصريه يغدون ترابا ، ولكن الكتاب هو ذكراه الذى يبقى من فم الى فم . انه لأنفع من بيت مشيد ، ومن قبر في الغرب ، ومن قصر مدعم ، ومن نصب في معبد .)

لقد كان لقب **الكاتب اعظم الالقاب** بلا استثناء عند المصريين من عمق اجلالهم للكتابة . لقد كان الواحد منهم يحرص على تلقيب نفسه به ، ويسجل هذا لنفسه في مقبرته . قد يكون أميرا أو شريفا أو وزيرا أو قائدا للجيش .. ولكنه حريص الحرص كله على أن يلقب نفسه بالكاتب .. وكأن القاب التشريف الاخرى لاتغنى عنه شيئا .

لقد كان حور محب قائدا لجيش مصر وملكا لمصر ولكنه في تمثاله اتخذ هيئة الكاتب المصرى وجلسته .

هذا هو الشرف الحقيقى والباقى فى عين مصر المتحضرة .

ان اللقب عندهم (الكاتب) .. ثم يأتى بعد هذا سائر الالقاب . ولو كانت الامارة والوزارة . والملك نفسه .

انه وعى مصر بالجوهر .

انه نفاذ مصر الى النفيس والكريم من القيم والمعانى .

وسبق مصر فى الكتابة يؤيد اقتباس أمثال سليمان من حكمتها، كما يؤيد نهل مزامير داود من سبحات اخناتون وترانيمه .

وتأثر الزابور بقصة الحكيم والشاعر المصرى أبوور وموقفه من مليكه الشيخ .. ذلك الموقف الذى ترسمته قصة ناثان مع داود .

وقد قام بالمقارنة والمقابلة علماء الآثار الغربيون ممن لايحمل قولهم على عاطفة وطنية أو زهو قومى .

وقصة (الاخوين) تقف وراء قصة يوسف .

كما تأثرت بقصة (الاخوين) آداب الهند والحبشة وآسيا الصغرى، وروسيا والمجر وايطاليا والمانيا وفرنسا وغيرها .

ومن الأدب المصرى استمد الأدب الاغريقى والرومانى بل استمد ادب العالم كله من حكمة بتاح حتب .

يقول الن جاردنر : Alan H. Gardener

(ان الادب اليونانى لم يقفز الى الوجود مكتملا كما خرجت فينوس من الأمواج ولا كذلك الفن اليونانى .. اننا لن نعرفهما الا اذا عرفنا الطريق الذى سلكه **النفوذ المصرى على التوراة وعلى الأدب اليونانى** فمما لاشك فيه أن هذا او ذاك لم يكن ليوجد بالصورة التى كان عليها لولا اثر مصر فيه) .

والى مصر يعزوا أساتذةالمصريات ماجاء فى أدب «شارلس مورجان» و «فرجيل» و «سبنسر» من اعلام الغرب .

لقد بلغت مصر اعلى مراحل التعبير حين **عرفت التجريد فى اللغة** واطلقت الاسم (معات) على معانى الحق والعدل والخير .

و (معات) اقدم اسم معنوى ذو معان متعددة فى تاريخ بنى الانسان .

ووضعت مصر اسلوبالحوار ومساره قبل حوار عيسى ومحاورات أفلاطون .

... ...

ويمتاز أدب مصر بالدقة والوضوح والصدق والبساطة والعذوبة ، وحبه للتوقيع والترجيع **فى تماثل** يحكى الطبيعة المصرية .

النيل له **ضفتان** .

ومن يمين وشمال ، **سهلان** .

يكتنفهما من شرق وغرب ، **صحراوان** .

والنيل نفسه فى تصور المصرى ، **نيلان** :

نيل فى السماء (المطر) للأجانب والصحراء ، والنيل الحقيقى لمصر .

والوادى **وجهان** الوجه القبلى والوجه البحرى .

وتاج مصر يجمع الرمزين معا .

طبيعة مقطرة ممطرة .

طبيعة منظومة من بحر النيل .

قصيدة كلماتها خضراء .

وحروفها مذهبة .

وأمرى هذا التلاقى على مصر ، اسلوب **التماثل** فى البناء والفن ، **والتناغم** والترجيع والتوقيع فى الأدب .

المعبد المصرى فيه المقاصير **صفان** مقاصير الشمال ومقاصير الجنوب .

والآلهة **نوعان** ارباب وربات .. ازواج وزوجات .

حتى الروح لها قرينة .

وعند المصرى ، العالم **عالمان** : **مصر** : عالمه ودنياه ، والعالم الآخر اى السماوى .

والمصريون فى التسمية عندهم :

الاسم **اسمان** فلكل شخص اسم حقيقى والاسم الجميل اى اسم التدليل .

ولكل شخص **حياتان** : حياة فى الدنيا والحياة والأخرى فى ايمان بالبعث والنشور .

والكتابة الهيروغليفية صفوف . وانهر متوازية .

فلا غــرو أن يجىء الادب المصرى بعــد هذا جملة متشــابهات فى تقسيم يبلغ بالجمال حد « التقاسيم » .

ان الطباق فى الأدب العربى ، لفظ وضده .. ولكن المقابلة فى الأدب **المصرى نظير ونظير يتناغيان .**

وهناك راى يقول (ان الانسجام فى الطبيعة المصرية قد طبع الفنان المصرى على التقسيم والتوزيع المنسجم) .

ولعل هــذا هــو السر فى أن المصريين عنــدما تشربوا حب اللغة العربية ، طربوا للقرآن الكريم .

واخذت مصر دورا كبيرا فى علم القراراءات ونغمت مصر الآذان كما راينــا .

بل انى لاحظت ان اللغــة ترق وتترقرق كلمــا قربت من النيل . وتجف الفاظها وينضب ماؤها كلما بعدت عن النيل والدليل لهجة القاهرة الجميلة ، ولهجة الصحراء . عند اطراف البحيرة .

وبدخول اليونان ثم الرومان كانت الديموطيقية وهي اللغة الشعبية من الهيروغليفية هى السائدة .

وبظهور المسيحية ومحاربة الرومان لها ، ودفاع مصر عنها لونا من المغايرة واثبات الوجود حتى غدت المسيحية فيها دون ســائر البلاد قبطية .

لهذه الاعتبارات ، وبها ، صارت الديموطيقية بدورها ، قبطية ، بعد أن خلصت الحياة المصرية من اللغة اليونانية التى كانت لغة الحكام بل ان المصريين الفوا بها ، ولهم كتب كثيرة فى العلم والادب يحسبها بعض الناس يونانية بل يحسب مؤلفيها يونانيين لا مصريين بما فى اسمائهم من مقاطع يونانية اشهرها الواو والسين فى نهايات الأسماء .

على ان العالم فى ذلك الوقت كان موجات موجات ، تبعــا للمــد السياسى والحربى .

فعندما غلب اليونان عسكريا ، سادت معهم اللغة اليونانية واصبحت لغة عالمية فى ذلك العصر ..

وكذلك الرومان .

وكذلك العرب . اذ انتشرت اللغة العربية فى العراق والشام ومصر والمغرب بل عبرت البحر الى الاندلس مع طارق بن زياد .

ولم يكن الانتشار بالطبع دفعة واحــدة او طفرة بل كان يتفــاوت سرعة وبطئا حسب شخصية كل بلد وظروفه .

ولم يكن عند مصر المسيحية فى غمرة موقعة الشهداء وقتا للادب او الفن كما كان ادب مصر وفنها فى عصور الفراعين بشموخها . فاقتصر الادب القبطى على اقوال الآباء وسير القــديسين والاصــلاح الاجتماعى والآداب الكنسية وشيء من قصص .

واوضح عمل أدبى لمصر فى ذلك العهد **ترجمة الكتاب المقدس .**

بل تجاوز دور مصر، الترجمة ، **الى الكتابة نفسها** فقد جاء المسيح مصر ومن مصر دعى (من مصر قد ناديت ابنى) هوشع ١١ : ١ متى ٣ : ١٥ . وجاءمصر الحوارى مرقص وكتب فيها انجيله .

واشهر كاتب وفيلسوف فى ذلك الوقت كان اوريجانوس الذى اشرت انه لم تعرف المسيحية فى مصر وفى العالم المسيحى كله فيلسوفا مثله .

حسب مصر المسيحية ان علماء الشرق والغرب تلقفوا كتاباتها الدينية مترجمين وشارحين ، وتصدرت بما اعطت فى هذا الباب ، العالم المسيحى .

ودخل العرب مصر ودخلت اللغة العربية ولكنها وقفت ساكنة لم تشترك فى الغزو . وظلت مصر على لغتها بل ان بعض العرب تعلموا القبطية بل تخاطبوا بها كالقاضى خير بن نعيم وغيره ... الى أن عربت الدواوين سنة ٨٧ هـ مما اضطر الموظفين الاقباط الى تعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم . وتبع هؤلاء أهلوهم ومن يعيشون فى كنفهم .

وصاحب هذا كما اسلفت انتشار الاسلام لياذا به من الصراع بين المذاهب المسيحية ، او مهربا من الجزية ، أو لحاقا بالنفوذ وأصحابه، أو اقتناعا به لسماحته التى لاتعرف لونا أو جنسا اذ بعث رسولهللناس كافة .

والاسلام اكبر ظهير للغة العربية فالقرآن عربى مبين والصلاة لاتكون الا بها .

ووجد الشعب المصرى نفسه أمام ثنائية لغوية خشى منها على وحدته . وواجه الامر الواقع وان شق عليه . ولكن اللغة العربية صارت مهمتهااسهل من ذى قبل . وعوض الشعب المصرى هذا بفرض شخصيته على العربية فلم يكد يمر على اللغة العربية فى مصر بضعة قرون حتى تاثرت بالمصريين . تأثرا يفرد له الحديث .

مصر فى العربية

لقد اخذت مصر فى بداية عهدها باللغة علوم العربية عن العراقيين ... والحجازيين بالطبع ولكنها لن تلبث أن اتقنت هذه العلوم وصارت هي المركز الذى تؤخذ عنه حتى ليصفها ابن خلدون فى مقدمته بأنها (أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم) فمنذ القرن الثانى للهجرة قامت مصر بدراسات ادبية ونحوية ولغوية ونبغ من أبنائها الكثيرون ثم رحل اليها من الاندلس الباجى الاشبيلى وابن لبابه وغيرهم . وقامت مساجد مصر بدور كبير فى الثقافة الاسلامية حتى لقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء . مائة وعشرين مجلسا من مجالس العلم. فكانت مطمح طلاب العلم وأساتذته على السواء وفيها تخرج أعلام وتلقى مشهورون . ادى عن مصر هذا الدور الحاسم ، جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار فى دكاكين الكتب المناظرات ثم ، الجامع الأزهر فيما بعد حيث كانت مصر تشع العلم وتجرى الرزق .

قامت مصر مقام مدارس بغداد فى المشرق ، ومدارس قرطبة فى المغرب فقد ورثها جميعا بعد أفول الدولتين الاموية والعباسية ، الجامع الازهر الذى انفرد (بامامة العلم فى بلاد الاسلام) .

تلك الامامة التى شهد بها حتى الترك — وما اكثر ما بين مصر وبينهم — فقد كان الوزير العثمانى «أحمد باشا» يقول عن مصر انها (معدن العلوم والمعارف) .

اختص الأزهر كما يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى (أول مرة بتدريس فقه الشيعة . فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق جامع عمرو ثم صار الأزهر لكل المذاهب . وقصده الغرباء والقى فيه الدروس مشيخة العلم وناظورته ، طوال القرون الماضية مثل عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون .

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة ، اقبل المسلمون من مشارق الارض ومغاربها على الازهر ، فكان ملاذ الشعب والدولة — حتى اذا كان الاحتلال العثمانى (٩٢١ هـ — ١٥١٧ م) بقى الازهر يحمل المشعل ، فحفظ للامة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم .

وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نهض الأزهر ، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين ، وهاهو ذا اليوم يحمل تبعاته فى نهضة الامة الاسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا ، من كليات أصول الدين والشريعة والقانون واللغة . الى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها) .

وفى خارج مصر حدث بناء المدارس فى القرن الخامس . كالمدرسة البيهقية والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية لدراسة الدين والفقه .

ولكن لم يبق على الزمن الا الازهر يصدر العلم الى بلاد المسلمين ويوفر العلماء . يقول الاخ السورى الدكتور اسعد طلس ، فى حديثه عن العهد العثمانى بالشام ، (ولولا الازهر فى مصر لانطفأت شعلة العلم فى الشام) .

ويقول ايضا فى كتابه : «مصر والشام فى الغابر والحاضر» (استطاع — اى الازهر — خلال المحنة الشاملة ان يستبقى شيئا من مكانته فيغدو ملاذا اخيرا لعلوم الدين واللغة ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية تحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ويدرأ عنها التدهور النهائى ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ... وربما كانت هذه المهمة السامية التى القى القدر زمامها الى الجامع الازهر فى تلك الاوقات العصيبة من حياة الامة المصرية والعالم الاسلامى باسره هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالته وأعظم ما وفق لاسدائه الى علوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل) .

وتعددت مراكز الحياة الفكرية فى مصر وفيها نبغ عدد من العلماء ذكرهم الحافظ السلفى فى **معجمه** . وكانت اسوان وقوص واسيوط من مراكز العلم فى مصر وحواضره وكانت الاسكندرية .

وقد اشتهرت الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى بمدرستين كبيرتين .. للثقافة الاسلامية بعامة والحديث بخاصة وهما : المدرسة

العوفية نسبة الى ابن عوف احد فقهاء الاسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك ، والمدرسة السلفية وشيخها الحافظ بن طاهر السلفى .

وبعد غارات المغول والتتار فى الشرق وحركات الأفرنج فى الغرب (اسبانيا) كثرت الرحلة الى مصر وتجمعت الحركة الفكرية فى القاهرة . وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهم والتى اعتمد عليها العرب فى تكوين شخصية حضارية لهم ، **حفظت فى هذه الهزات تراث العرب الادبى والفنى بل ونشرته بينهم فى مختلف بلادهم .**

وبعض دور مصر فى العلم، **العلماء** وما علموا. ومن ابناء مصر الذين عاشت على كتبهم الثقافة الاسلامية حتى عصرنا الحاضر :

على بن منجب الصيرفى الذى نقل عنه صاحب جريدة القصر ، **وابن برى النحوى** الذى أخذ عنه ابو موسى الجزولى صاحب المقدمة فى النحو . قدمت مصر ايضا **جمال الدين بن هشام** صاحب اللبيب الذى اشاد به ابن خلدون فى مقدمته ، **والقفطى** النحوى اللغوى العروضى الاديب صاحب المواقف الأبية عند السلاطين والامراء الذين كانوا فى اجلالهم له يخدمونه .

والقفطى (على بن يوسف) صاحب التواريخ .

والسخاوى صاحب الشروح .

والبوصيرى صاحب البردة .

وابن ظافر الأزدى صاحب بدائع البدائة .

والليث بن سعد ، وابن الوزير التجيبى ، وعبد الحميد بن الوليد المصرى ، والشاعر المصرى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الاكبر ، والشاعر سعيد بن عفير الذى كان الوالى عبد الله بن طاهر يقول (رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير) .

الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه .

ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين وملوى واول من الف بالعربية من الأقباط . وكتابه « تاريخ البطاركة » **موسوعة** استمد منها المقريزى الكثير من **خططه** كما نقل عنه القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » .

ومن رجال مصر من الاقباط الذين اسـهموا فى التاليف فى علوم العربية وآدابها :

سعيد بن بطريق ، وبنو العسـال ، وجرجس بن العميد المعروف بابن المكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) .

والمفضل بن ابى الفضائل صاحب ، نهج السـديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .

وبطرس ابو شاكر ويعرف بابن الراهب .

وابن كبر وهو شمس الرياسة ابو البركات .

وأسـعد بن مماتى الشـاعر الأديب صـاحب الحظـوة فى الدولة الايوبية .

وممن آوتهم مصر :

عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة

والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى

وابن خلكان ، ونجم الدين المغربى القصرى .

والخطيب التبريزى البغدادى

والشاطبى صاحب القصيدة المشهورة فى القراءات (الشاطبية) وعدتها الف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا .

وممن سمو على مصر :

الهمزانى صاحب التصانيف الفائقة .

وابن الجلاجلى ..

ومحمد بن خلف المقدسى

وابن سعدون القرطبى

وابن ظفر الصقلى

وابن الحاجب وهو ممن نشـأتهم مصر اذ ولد بها . وهو صاحب كتابى الكافية والشافية فى النحو وله المؤلفات الثقة فى العروض وعلم الأصول والجدل وعلم الفقه .

ومن صنعتهم مصر على عينها القاضى الفاضل الذى تعلم فن الكتابة عن ابن الخلال المصرى . والقاضى الفاضل يعتبر أحد اربعة معالم رئيسية فى تاريخ الأدب العربى أو اربع طبقات : ابن المقفع ، الجاحظ — ابن العميد — والطبقة الرابعة على رأسها القاضى الفاضل .

ومع الرجال النساء .

فقد كان بمصر من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات ، من بينهم :

تقية بنت غيث بن على الأرمنازى وخديجة بنت أحمد بن ابراهيم الرازى المدعوة مليحه والجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى .

وست الأكياس المصرية التى نوه بها السيوطى فى حسن المحاضرة .

ومن معطيات مصر فى العربية الموسوعات كصبح الأعشى للقلقشندى المصرى .. **والقواميس** كالذى وضعه ابن منظور الذى يعد اعظم موسوعة لغوية فى اللغة العربية . (وهكذا وضعت مصر لسان العرب) .

ولم تكتف مصر بالتفوق فى العلوم العربية البحتة بل ابتدعت من وحى طبيعتها علوما وفنونا اهدتها الى اللغة العربية فيما أهدت . **فابتدعت مصر فن ((الخطط والأخائذ))** على يد ابن عبد الحكم يقول الدكتور كامل حسين ان هذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين مما أخذه عنهم مؤرخو مصر الاسلامية كابن زولاق — والكندى والقضاعى وابن دقماق والمقريزى من أصحاب الخطط . كما يبدو أثر مصر واضحا فى كتاب « المغازى » لابن اسحق .

ونبغت مصر فى فن السير لسابقتها فى تدوين التاريخ وتسجيل الحوادث فملىء الأدب الشعبى المصرى بفن السير . فالمصريون هم الذين وضعوا سيرة «عنترة بن شداد» و «وسيرة البدوية» ثم « سيرة الهلالية » وسنفرد للادب الشعبى فصلا يفصل ما أوجزته هذه الاشاره.

وفى مصر دون باقى بلاد العالم الاسلامى عرفت الكتب العربية التقسيم والتبويب والموضوعية حين جرى علماء العراق على طريقة الأخذ من كل شىء بطرف .

ولعل اسلوب مصر الحضارى فى التاليف يمت الى عراقتها فى المعرفة . وقد غلب اسلوبها كشخصيتها حتى أن الفارابى عندما دخل

مصر ومعه كتابه «المدينة الفاضلة »ساله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .

وقبل ان ارد بالبحث مناهل مصر فى الشعر والنثر أقف وقفة على عطاء مصر فى البلاغة . **فقد كانت مصر مدرسة بلاغية أدبية** تقابل مدرسة **المشرق** البلاغية الكلامية . ولمدرسة مصر ، فضلا عن المسامته ، آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر ، نقدا عليه مسحة من التهكم مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسهم الرازى والتفتازانى .

كانت مصر فى تصنيفها للبلاغة تستبعد بروحها الفنية ، الفلسفة الكلامية . **استبعاداً فيه بغض لها حتى ليسمى رجلنا السبكى** ، هذا الاستبعاد ، تطهيرا .

وعمل مصر فى البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الافراح فى شرح تلخيص المفتاح) يتميز بتبرئتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاها عمليا .

كما تتميز بالموضوعية فى البحث ، والتعمق ، والمقارنة ، والربط، والتحقيق والتصحيح ، والاستنتاج ، واللمح ، والأناقة الحضارية ، واللباقة والرهافة ، والذوق الشاعرى وما يملك من رفيف وتفويف .. والدقة وسمة الأفق . والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عصر ولا تزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية فى ذلك العصر .

هذه مصر فى البلاغة وهى فى (علم البديع) ابدع . فقد وصل المشارقة وعلى رأسهم السكاكى الى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت مصر على يد ابن ابى الاصبع الى بضعة وعشرين فوق المائة ! منها عشرين من ابتكارها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع مافى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء والا فلماذا لم يلتفت غيرها الى عشرات الأنواع التى لمحتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس ؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت اليه مصر بالذوق الحضارى :

النزاهة : نزاهة الهجاء عن الفحش .

والتدبيج : وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان .

والتصرف : وهو اللعب بالكلام فى براعة وغندرة .

والتهكم والتندر : ومصر بخفة الظل لا تجارى فيه .

وطبيعى أن تهتدى مصر الى هذه الألوان يوحى من طبيعتها وبمدد من ماضيها . ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين **اذاعت فى الأدب العربى شعره ونثره فن التورية** ولا أحسب غير مصر قادرا على التورية بكل هذا الظرف والرقة اللذين اشاعهما ابن نباتة فى بيتيه وقد اهدى اليه صديق تمرا رديئا :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته	بيد الوداد فما عليك عتاب
واذا تباعدت الجسوم فودنا	باق ونحن على (النوى)احباب

وبعض عطاء مصر فى البلاغة والبديع كتب كثيرة منها :

* (تنقيح البلاغة) لأبى سعد محمد بن احمد العميرى ، النحوى ، اللغوى .

* (رسالة البلاغة) للقاضى الفاضل .

(الطريق الى الفصاحه) للشيخ الرئيس علاء الدين . النفيس المصرى ..

* (معالم الكتابة ومغانم الاصابة) لعبد الرحيم بن على بن شيث يخالف فيه اصطلاحات البلاغة المأثورة عن المشارقة .

* (سر الفصاحة) لأبى محمد عبد الله بن محمد الشهير بابن سينا الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) .

* (الاشارة الى الايجاز فى بعض انواع المجاز) لسلطان العلماء أبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المصرى (ت ٦٦٠ هـ) .

* (بديع القرآن) للأديب الشاعر المصرى زكى الدين عبدالعظيم، بين فيه ما فى القرآن من فنون البديع فأحصى من ذلك مائة باب وثمانية ابواب .

* (تحرير التحبير فى علم البديع) للأديب الشاعر المصرى ابن أبى الأصبع .

ومن رجال مصر فى هذه الحلبة ممن الفوا الشروح والحواشى والتقارير والأصول ، والمتون ممن حاول الاستاذ الخولى لهم عدا :

الأنصـــاري ـ والعزي ـ والأخضري ـ والخفـــاجي ـ والعليمي ـ والطبلاوي ـ والبهوتي في القرن الحادي عشر .

والحفني والملوي والدمنهوري والسندوبي في القرن الثاني عشر .

والاجهوري ، والامير ، والصـــاوي ، والبـــاجوري ، والعطار ، والخضري ، والمرصفي ، والدسوقي ، والبناني في القرن الثالث عشر .

والابياري ، والانبابي والشربيني والطهطاوي في القرن الرابع عشر

هؤلاء بعض أعلام مصر في البلاغة وان استيفاءهم لكثير .

وبعد البلاغة ، **الشعر** .

لقد تحولت مصر الى الاسلام والى العربية ولكنها مع هذا التحول الكبير لم تفقد شخصيتها بل ظلت واضحة مؤثرة ، متميـزة آسرة فاضطر العرب الفاتحون الى أن ينـدمجوا في المصريين ويتزوجوا من المصريات فحضرتهم مصر وصقلتهم مصر وكان من اثر صقل مصر لهم او تهذيبها طبائعهم ان اختفى من الشعر العربي آثار البداوة . فالشعر العربي في مصر حتى ما كان منه من نظم القبائل العربية المهاجرة اليها، تسمح وجرى سهلا واختار البحور القصـيرة التفاعيل وشـاعت فيه الفكاهة المصرية التقليدية والسخرية اللاذعة .

كان من أثر مصر أن سرى في الشـــعر العربي السـمات المصرية معاني ، وفكاهة وسـهولة .. كل هـذا بفعل البيئة المصرية والطبيعة المصرية المتبسطة في مساهلة وعذوبة تنفر من التعقيد .

كما ظهرت الحوادث المصرية وصورة البيئة المصرية التي فرضت على الشعراء عدم ذكر الاطلال والديار والرسوم .

وظهرت العاطفة الجياشة في الشعر المصري فاضفت على الأشعار المصرية قـوة ترتاح النفوس اليها كأبيات المعلى الطائي في أولاده التي غلبت على أبي تمام حين جمع مختاراته المعروفة بالحماسة فضـمنها هذه المقطوعة التي تعبر عن كل اب :

لولا بنيـات كزغب القطـا ... جمعن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسـع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وانمـا اولادنا بيننـا ... اكبـادنا تمشي على الارض
ان هبت الريح على بعضهم ... اشفقت العين من الغمض

اما الفكاهة فتتمثــل فى قصة الشاعر الملقب بالجمــل الاكبر مع احمدبن المدبر :

اردنــا فى ابى حسن مديحــا	كمــا بالمــدح ينتجع الولاة
فقــالوا اكرم الثقلين طرا	ومن جدواه دجلة والفرات
وقالوا يقبل المدحــات لكن	جوائزه عليهن الصــــلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى	عيــالى انما تغنى الزكاة
فاما اذ ابى الا صــــــلاتى	وعاقتنى الهموم الشــاغلات
فيأمر لى بكسر الصاد منها	فتصبح لى الصلاة هى الصلات
فيصلح لى على هذا حياتى	ويصلح لى على هذا الممات

لقد ظهر الشعر المصرى ظهورا واضــحا فى القرن الثالث للهجرة وقد تكلم ابن خلكان عن شعراء مصر ، والثعالبى .

ومن الشعراء من تأثر بالبيئة المصرية الخالصة كالشاعر كشاجم الذى كان كلما رحل عن مصر ، عاد به الحنين .

ووفد ابو تمام على مصر طفلا فروته من النيل وروته من الشعر . فانشد بها اول انشاده كما يذهب بعض المؤرخين حتى ليعده الكندى وابن زولاق والسيوطى « مصريا » ودعوه شاعر مصر الأكبر .

وهكذا ،ينمى الى مصر شعراء فحول بالمربى والتعليم بل ان شعراء مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى كانوا فحول الشعر العربى فى الأقطار الاســلامية قاطبة . وفى هذه الآونة تصــدرت مصر فى الأدب صــدارتها فى العلوم والفنون .. والسياسة وكان ذلك منذ أواخر القرن الخامس للهجرة .

ويذكر الدكتور اسعد طلس من رجال مصر ما بين القرن السابع والقرن التاسع :

(ابن نباته المصرى (٧٦٨ هـ) وابن ابى حجلة (٧٧٦ هـ) وشمس الدين الهوارى (٧٨٠هـ) . وهؤلاء شعراء مجيدون خلفوا آثارا تدل على ســــمو كعبهم فى الادب المصرى الاسلامى . ومن الادباء المصريين الفحول فى هذه الفترة الشهاب القلقشندى (٨٢١ هـ) والبدر الدماميني (٨٢٧ هـ) والشمس النواجى (٨٥٩ هـ) والمؤرخ بيبوس المنصورى (٧٢٥ هـ) وابن دقماق (٨٠٩ هـ) والمقريزى (٨٤٥ هـ) وابن تغرى

بردى (٨٧٤ هـ) وابن منظور (٧١١ هـ) والشهاب النويرى (٧٣٢هـ) وغيرهم .

وقد كان لهؤلاء الأئمة تلاميذ من الشاميين قصدوهم الى ديار مصر وتعلموا عليهم فى الأزهر او فى غيره من المعاهد المصرية ، ولو رحنا نستقصى اسماء هؤلاء الطلاب لجئناك بسفر ضخم) .

وصدارة مصر الفنية وثروة مصر المادية جذبت اليها الشعراء والكتاب والعلماء فانتجعوها مسحرين . وترطبت السنتهم باسمها وترنم شعرهم بذكرها .. حتى الذين هجوها لم ينجوا من تأثيرها وعلى راس هؤلاء الجاحدين :

المتنبى الذى تحدث الدكتور طه حسين طويلا عن اثر مصر فى شعره فذهب الى ان مصر اضطرت المتنبى الىأن يعرف شيئا من الهدوء والى أن يكثر التفكير ، وامعان النظر فى الحياة الى أن يحاول ان يستقصى أسرار الحياة ، فظهر فى شعره فى مصر رنة حزن وشكوى الدهر ، ثم ينتهى به الأمر الى لون من السخرية بالدهر وحوادثه ، والى الاستهزاء بكل ما يمر به فى الحياة وان يهزأ بالناس وبالمجتمع وبأمير مصر الذى كان رفعه فى شعره .

المتبنى هذا بكبريائه الجوفاء المصطنعه قصد ، طراق ابواب مداحا كطائفته .. المتنبى تاجر الشعر الذى كان يقول القصيدة فى احد الأغنياء ثم يصرفها الى آخر اذا أمل عطاء أكثر ، كصنيعه مع ابن حنيرابة وابن العميد مما يحكيه ابن خلكان .

هان فنهم وهانوا .. هذا المتنبى قصد والى مصر (العبد) كما يقول فلما أهمله هجاه ثم تطاول علينا .. ولو كان كبيرا حقا لما اراق شعره تحت أقدام الممدوحين بعامة وكافور بخاصة ما دام (العبيد انجاسا مناكيد) أم هم كذلك حين يمنعونه فقط ؟ وترك المتنبى مصر وهو يتمزق غيظا لأنه لم ينل منها مأربا . واذ ادعى الزهد ، وشى بحسرته بيته الذى خاطب به سيف الدولة :

من عبيدى أن عشت لى ، الف كا
فور ولى من نداك ريف ونيل

كان حلمه الريف والنيل فلما قصرت يداه عن العناقيد المصرية التى لا تفنى شنها حربا على الثعالب الأخرى .

لقد فطن المصريون كعادتهم الى دخيلة نفس المتنبى هذا فأذلوا كبرياءه المفتعلة بالاعراض عنه ثم بالتهكم منه ونقده نقدا فنيا .

فقد ورد فى كتاب الصبح المنبى وكتاب اخبار سيبويه المصرى لابن زولاق ان محمد بن موسى الملقب بسيبويه كان يقول : مدح الناس المتنبى على قوله :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدوا له ما من صداقته بد

ولو قال ما من مداراته او مداجاته بد لكان احسن واجود . واجتاز المتنبى به ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ احب أن اراك . فقال : رعاك الله وحياك . فقال له :

بلغنى انك انكرت على قولى . « عدوا له ما من صداقته بد » فما كان الصواب عندك ؟

فقال له . الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة ولا يسمى الصديق صديقا وهو كاذب فى مودته . فالصداقة اذن ضد العداوة ولا موقع لها فى هذا الموضع . ولو قلت ما من مداراته او مداجاته لأصبت . فتبسم المتنبى وانصرف ، وسيبويه يصيح عليه ابكم الرجل وجلائل الله .

فى اكثر من صورة ظهرت شخصية مصر فى الشعر العربى بل بلغ من شخصيتها ان شعرها يعلن عنها بغير دليل من اسماء شعرائها فلا تستطيع ان تنسبه الى غير مصر . وهذا اقصى ما يطلبه المرء من دلالة الشخصية .

فالرقة والسهولة والخيال الشاعرى والذوق الشفاف الناعم الناهم والموسيقى الداخلية ودفء القلب وعذوبة الروح وفيوضها كل هذا الرفيف يحمل على أجنحته عبير مصر ورياها .

حتى الألفاظ كانت من مصر .. نفس الالفاظ التى يصطنعها الشعب المصرى ، والخاصة به هو ، حتى لكأنها لغة فى اللغة .

هذه اللغة المصرية او اللهجة المصرية تمتاز كما يقول الدكتور ابراهيم أنيس فى كتابه (اللهجات العربية) بالميل الى همس كثير من الأصوات وهو امر طبيعى فى بيئة مستقرة كالبيئة المصرية ذات الحضارة منذ القدم .

(على أن لهجة كلامنا قد اختصت ببعض التطورات الصوتية التى لا نعرف لها نظائر فى تطورات اللهجات القديمة ، مثل عنايتها

بتلك الأفعال الرباعية المتكررة المقاطع فقد ملئت بها لهجة كلامنا ، واتخذت في افواهنا طريقا خاصة ، لا نظير لها في غيرها من اللهجات العربية القديمة) .

كان الادباء المصريون كتابا وشعراء ينبعون في كتابتهم عن طريقة مصر الشعبية في التعبير حتى النحو اخضعوه لهذه الطريقة فنجد أحمد ابن يوسف مثلا في كتاب (المكافأة) يستحل من مخالفة الفصحاء ما لا يحل ، في عرفهم فيطابق بين الفعل والفاعل في الافراد والجمع ويؤنث ماسلكته قاعدة (التغليب) من المذكر ويشبع تاء الخطاب ويكثر من استعمال الالفاظ المصرية الخالصة مؤثرا لها علي نظائرها في الفصحى بل مؤثرا لطريقة مصر في استعمال ما كان مشتركا من الألفاظ بين العامية والفصحى فيستخدم كلمة (نفر) .. الدلالة على شخص واحد حين تعربها الفصحى عن الجمع والقبيل .

ومن شعراء مصر الذين يمثلون شخصيتها ...

ابن سيناء الملك — ابن النبيه — البهاء زهير — الأسعد بن مماتى — المهذب بن الزبير (الأسوانى) ابن مطروح — ابن الجزار — السراج الوراق — ابن الفارض — ابن قلاقس — ابن قادوس الدمياطى .

وقد تذوق ابن سعيد حلاوة شعر مصر فعللها مبهورا أو شبه مبهور :

اسكان مصر جاور النيل ارضكم فاكسبكم تلك الحلاوة فى الشعر
وكان بتلك الارض سحر ومابقى سوى الريبدو على النظم والنثر

واحلى ما تكون هذه الحلاوة .. فى الغزل ، فالمصريون أهل ظرف ورقة وهم عاطفيون ومخلصون وفيهم طيبة وصفاء وفيهم ودادة وسماحة وسخاء .. وفيهم وقدة حس وذهن تزيد الذكاءبريقا وسحرا فهم اذا تغزلوا أفتدوا واسعدوا واطربوا . وقد عبر عنا شاعرنا ابن النبيه فى أبياته الرقيقة الآسرة :

أفديه ان حفظ الهوى او ضيعا ملك الفؤاد فما عسى ان أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلوا فقد جهل المحبة وادعى

وهذه الصفات النوابغ لم تتخل عن المصريين حتى فى العصور الوسطى عندما اظلمت طبائع الناس . وطبع الناس كما يقول الدكتور

زغلول سلام فى كتابه «الادب فى عصر صلاح الدين» (طبع الناس فى القرون المظلمة وفى عصور الطغيان بطبائع العبيد فان نصيب مصر من خلق العصر كان قليلا ، فلم يشتهروا بالدناءة والدس والنميمة والخيانة كما كان الحال فى بغداد فى القرن السادس مثلا . وجل ماكان يدور على ارض مصر من دسائس وخيانات انما كان معظمها من صنع الوافدين من الأتراك والمماليك فى سبيل نزاعهم على الملك ، كذلك كانت الاحداث الدامية . . والثورات من صنع الجند المجتلب او من صنع الأعراب البدو ، فى الجنوب وفى صحراوات مصر) .

ويؤيد هذا حكايات اللصوص التى كانت فتنة السمار فى ليالى القصص . فالنفس المصرية فى هذه الحكايات لاتخلو من مروءة وشهامة وبارقة رحمة حتى ولو كان صاحبها من غير زمرة الاخيار . فكتاب المكافاة يعكس صورة اللص تجمع الى النهب والسفك ، صفات الوفاء بالعهد والميثاق كقصة محمد النورى واشباه لها غير قليل .

وكم بين أحمد الدنف وبين اعراب الف ليله وليله . .

ومن شخصية مصر فى اللغة العربية انها حين تكلمتها طرحت منها ما لا يتفق مع مزاجها المترف وشخصيتها الخاصة . وما لم تطرحه مصرته . فحين كان شعراء العرب فى مصر يلتزمون « العمود » والبحور التقليدية ، كان المصريون ينطلقون على سجيتهم المجنحة الرفافة ، فالالفاظ رقيقة سهلة مضيئة ، والبحور آثروا منها القصيرة التفاعيل ، والقصائد الطويلة استبدلوها بالمقطعات . ولأمر ما سمى المصريون ذلك اللون الذى استحدثوه من الشعر الشعبى « البلاليق » . وهو اسم طائر مختلف الوانه ، شجى صوته ، له تطريب .

وفتن شعبنا (بالبلاليق) بالفاظها الشعبية المصرية حتى فرضه من افتتانه على سائر الفنون الادبية فى عصر المماليك الى جانب فن الموشحات .

ومن الألوان المصرية فى الشعر العربى شعر الأديرة . وقد وجد هذااللون فى غيرمصر حيث تتناثر الأديرة فتغنى البحترى بدير العاقول ، وابن المعتز بدير السوسى . ولكن انتشارها كان بمصر ومن ثم كثر شعر الديارات بها .

ومن فكاهات الشعر المصرى فى العصر الأخشيدى الشعر

(**(الحلمنتيشي)**) وهو شعر كاريكاتيرى ساخر من كل شيء حتى من صاحبه ... ساخر من القصائد القديمة التى كان يعبث بها فيغير الفاظها وينفض عنها تزمتها وتوقرها ويخلع عليها حلة جديدة فكاهية كما فعل عامر الانبوطى بالفية ابن مالك . وقد أحب قومنا هذا الصنيع من ظرفائهم فعمد اليه ، مستجيبين ، شعراء الفكاهة فى العصور الوسطى وما بعدها حتى يومنا هذا فكان حسين شفيق المصرى وعبد السلام شهاب ومحمد الهيهاوى ومحمد مصطفى حمام امتدادا للشاعر أبو الرقعمق وابن مكنسة واضرابهما .

ومن الالوان التى استحدثتها مصر فى الشعر (**(فن رثاء الدول)**) .. وهو كما يقول الدكتور كامل حسين (فن جديدة كل الجدة فى تاريخ الادب العربى) .

حقيقة وصف البحترى ايوان كسرى (ولكن شعراء مصر لم يستمدوا صورهم وعواطفهم من التاريخ بل شاهدوا الاحداث وسجلوها وعبروا عن مشاعرهم نحوها) .

حتى ما لم تستحدثه مصر طورته وتفننت فيه **ففن الاجازة** مثلا اخضعته مصر لطبعها الحضارى فقسمته قسمين اجازة معاصر لمعاصر واجازة معاصر لقديم .. وجعلت له تقاليد خاصة لم يكن معروفا بها . واذ غدا فن الاجازة على يد مصر خلقا جديدا اطلقت عليه اسما من صنعها فسمته (**التمليط**) .

ويبدو **أن مصر عافت المدح الذى يطبع الشعر العربى** ويرخصه **فاستحدثت القصائد الغزلية** التى لا تبقى للمدح الا ندرا من مقال أو مجال . واطالت مصر هذه المقدمات لا أدرى أسخرية من المدح والممدوح ام حبا فى الغزل لمواءمته طبيعتها الرقيقة الدائئة .

على كل حال استحدثت مصر هذه الطريقة ثم كلفت بها كعادتها ، وسمتها (**(الطريقة الغرامية)**) . ولها فى هذا الباب قصة قد يقرؤها المرء للحظتها لم يعبرها ولكنها على عفويتها تؤيد معنى كبيرا وتعمق خطا ممتدا على سير التاريخ وعلى طول الزمن : هو نزوع مصر الى السهولة **وانطباعها على العذوبة والرقة والاناقة الحضارية** .

جاء فى خزانة الادب « لابن حجه الحموى » أن ابن سعيد المغربى خلال زيارته لمصر اجتمع بابن سناء الملك فسأله أن يرشده السبيل الى الطريقة الغرامية هذه فوجهه البهاء زهير الى قراءة بعض دواوين

الشعراء على أن يراجعه بعد ذلك ، فغاب ابن سعيد مدة اكثر فيها من قراءة هذه الدواوين الى ان حفظ أغلبها .

ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا في الغراميات . وفي غضون حديثهما انشد البهاء (يابان وادى الأجرع) وقال اشتهى ان يكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال :

« سقيت غيث الأدمع »

فقال البهاء المصرى : هذا والله حسن ولكن الأقرب الى الطريق الغرامى أن تقول :

« هل ملت من طرب معى »

لقد كان ابن حجه يسمى **مدرسة مصر فى التورية** مدرسة (السحر الحلال) وقد لعبت هذه المدرسة دورا كبيرا فى شعر هذا العصر .

لم تتكلم مصر العربية ، بالمعنى الجامع ، الا منذ عدة قرون فاذا بها تستحدث فيها كل هذه الآثار ... وتضع لها قاموسها الأكبر **والأشهر والأصح !!** ..

لقد تكلمت مصر العربية ولكن أصحاب اللغة الاصليين يرجعون عند مظنة الخطأ والصواب الى القاموس الذى وضعه ابن منظور المصرى : (لسان العرب) .. وكفى .

مصر فى الأدب الشعبى

لهذه الشخصية اكثر من اثر فى الادب الشعبى وبعض هذه الآثار: الانشاء ، والايواء ، والتحرير ، والتحوير ، والتمصير ، واشاعة قيم جديدة ، وتسوية نماذج جديدة ايضا .. حتى السير العربية الأصل ، العربية الابطال **مصرها الشعب المصرى** كملحمة بنى هلال اذ نقاها من تصرفات البداوة وموروثاتها ومواضعات حياتها كنظام الرياسة وبواعث الحروب .

هذب الشعب المصرى هذه السيرة وحضرها وارتفع بها فابو زيد الذى لايعدو ان يكون احد فرسان القبيلة أصبح على يد مصر قائد جيش نظامى يعرف التحضير والتجهيز والتحصن والتعبئة . كما مد له المصريون فى الشجاعة حتى ليأتى بالخوارق فى بابها وفقا لمزاج مصر فى التهويل . وعلموه مختلف العلوم والفنون ، واللغات وهى **لمسة حضارية طبيعية من مصر** • وجعلوه واسع الحيلة يعرف مداخل الامور وخوارجها وكأنه « ابن بلد » — يفهمها وهى طايرة — وانعكس هـذا على الأمثال الشعبية المصرية التى تقول : (سكة أبو زيد كلها مسالك) .

والحسن بن سرحان ارتفعوا به من أمير قبيلة الى ملك الملوك ولكنهم قيدوه بالشورى . فهو لا يبرم امرا **لا** تراه الجماعة ، كما جعلوه كريما واسع العطاء فى فيض — وكأنه النيل — وجعلوه عادلا عفوا انعكاسا لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة . وبهـذا غـدا الحسن بن سرحان بمجامع الصفات **المصرية فيه** ، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجيه السمت والشارة ، باذخ العطاء ، « الفنجرى » : عامل أبو على .

ومصر فى سيرة الهلالية **(المحروسة)** فحين يتطلع اليها دياب ابن غانم ترده عنها (الاقطاب) . وحفظها المصريون لدياب هـذا فالأرض الأحمق يسمونه (زغبى) نسبة الى زغبـة قبيلة دياب . وانتهى الأمر بأن قتله الفنان المصرى مسموما .

وقد استحدث المصريون فى سيرة الهلالية : (ديوان مصر) من شعورهم بانفسهم ووعيهم لذاتيتهم .

واشاعت مصر فى القصص الشعبى **قصص الفكاهة** كما اشاعت فيه **الحياة الاسرية** ... دفء البيت .. وهذا اللون خاص بمصر فى الف ليلة . فالحياة المصرية الخاصة هى وحدها المفصلة فى الليالى . فمنذ يستقبل وليدنا الحياة تسجل الليالى : ففرحة المولود ، .. والسبوع ، والنمو ، والتربية ، وممارسة الحياة ، وزفة العرس ، والزوج والزوجة ، والأم ، مادة خصبة فى الطبقة المصرية من الف ليلة وليلة .

واشاعت مصر فى القصص الشعبى كالهلالية والظاهر بيبرس والف ليلة ، **فنها القديم ((السحر))** . فالغزالة المسحورة تستدرج غريمها ديابا ، **والجن له ملوك وملكات تنشب بينهم وبين ابطال** السير المعارك وكانها العنف الذى يقابل الوداعة المصرية ويموج سطحها الأملس بدوامات الحربية والهوى انتصارا لهذا الفريق او ذاك تسلية فى بادىء الأمر ، ثم حقيقة .

واذ تم تمصير السيرة تحمسوا لها كالعادة حتى ليخلعون اسماءها على الابناء ويرسمون صورها على الجدران بل الصدور .

بل ان الشعب المصرى **((مفرط)) الرياسات فى الملاحم الشعبية .** ففى سيرة الظاهر بيبرس لم تعد الرياسة وراثية كمشيخة القبيلة بل غدت بالانتخاب .. انه نزوع مصر الى الديمقراطية وكانها تهتبل هذا اللون من الأدب لتبث فيه مثلها حتى ولو لم يسعد بها الواقع . وتمضى مصر تقعد القواعد وترسم الصور للمجتمع والاشخاص وتنقد ما يغاير هذا **لتؤكد ذاتيتها .**

وحين سقطت بغداد فى يد هولاكو آوى القصص الشعبى الى مصر .. الى القاهرة **فاضافت وحورت وسوت وصقلت** كما فعلت فى **((الهلالية)) و ((الف ليلة وليلة))** .فبثت فى الاولى عواطف الفلاحين واستحدثت فى الاخرى طبقتين او لونين :

اللون الاول طبقة «الشطار» التى **شاع فيها طلب العدل** .. اما اللون الآخر فهو **((وصف الآثار المصرية))** .

وقد اضافت بلاد اخرى الى الف ليلة ، ولكن مصر هى التى

بلورتها بعد أن اعطتها اضافات هامة ثم صبتها فى القالب الاخير الذى تعرف به بعد ان لمسها القاص الشعبى المصرى اللمسات الأخيرة .

تقول الدكتورة سهير القلماوى فى « الف ليلة وليلة » : (ولئن حملت كل النسخ التى بين ايدينا الاثر المصرى فما ذلك الا لأن الكتاب آوى الى مصر فيما آوى اليها من كتب كونت تراث المدنية الاسلامية . ولما لم يكن مكانه المكتبة ، فقد آوى الى العامة وعاش عيشة مطلقة خارج جدران دور الكتب . وهنالك ترك الشعب المصرى فيه أثره الحى القوى . فلما رد الى تلك الشعوب الأخرى التى كانت محتفظة ولا شك ببقايا منه على الأقل ، رد اليها مصريا قوى المصرية) .

ولسنا وحدنا فى هذا القول فقد ذهب اليه لين وفون هامر وشوفان « Chauvin » وليتمان واذا كان البحث المتخصص قد انتهى الى تقسيم الف ليلة الى قسمين قسم بغدادى وقسم مصرى فقد نص كتاب « الف ليلة وليلة » للدكتورة سهير القلماوى على أن القسم البغدادى غير وحور واتسع فى مصر ثم استحدثت مصر القسم المصرى بل وضعت قصصا اقدم من زمن الرشيد . ولا تتردد الدراسة المتخصصة فى رد القصص الموضوع فى مصر الى اصول فى الادب الفرعونى فقصة على الزيبق يردها نولدكه الى القصة المصرية القديمة كنزرامبسينيت . Rampsinite وقصة القرد الكاتب يلمح فيها شبيجلبرج Spiegelberg توت المصرى القديم الذى يصور فى صورة قرد .

وبعد صنيع مصر هذا اخذت « الف ليلة » طريقها الى اوروبا بالنقل والترجمة بما تحمل من طابع مصر ممثلا فى حكمة النصيحة واصطناع الصبر والأناة وما الى هذا من مظاهر السلوك والعمل الذى تضرب جذوره كتباتنا فى بيئتنا الزراعية . وفى الكتاب من مصر من حيث الشكل ، ظاهرة التكرار وكأنه يحاكى الفن المصرى الاسلامى فى تكرار الاجزاء والوحدات الكاملة . والمزاج المصرى يرتاح الى التكرار بما فيه من الطبيعة المصرية .

حتى أولياء الله يتخذون مصر مقرا ومقاما ، وحين تقوم مصر بدورها القيادى فى المنطقة على مسرح الأحداث الكبرى ، يؤكد هؤلاء الاولياء دورها الكبير بما قر فى نفوس الجماهير من ايمان مسلم به بالغيبيات والكرامات ايمانا يؤيده الادب الشعبى الذى يجعل من شخصيات الاولياء قوى غيبية تتدخل فى كثير من المواقف تدخلا مباشرا . ففى قصة الظاهر بيبرس نجد السيدة نفيسة تجمع بينه وبين عثمان

ابن الحبلي ويتصافيان في رحابها وبين جنبات جامعها ؛ كما نجد المغاوري يجمع بين الظاهر بيبرس وجمال الدين شيحه ، ثم يجمعهما بالقائد البحري محمد فارس البطريق المغربي . اما السيدة زينب في القصة فهي روح .. ونفحات تلهم النصر وتدنيه بما تجمع من صفوف وتضم من شتات وتوثق من روابط .. روح تبارك المواقف وتسعدها .

ولأمر ما يقوم القصص الشعبي الذي انشيء أو حور أو تطور في مصر على (**بطولة الأم**) وحمايتها لولدها . هل يلمح المؤلف ولو ، لا شعوريا، **ايزيس وحورس؟** ان قصة على الزيبق وهي القصة الشعبية المصرية الخالصة المصرية تقوم على حماية أمه الشجاعة وتوجيهها (حتى ينتهي الأمر بقتل الكلبي قاتل ابيه واسلام مقاليد الامور اليه .. تماما كما انتقم « حورس » من « سيت » لأبيه « اوزوريس » .. تماما كما كان خيال عامة الشعب في مصر القديمة مغرما كما يقول برستد بتأمل صورة الأم التي اخفت نفسها في مستنقعات الدلتا التي قامت فيها بتربية « حورس » الشاب حتى اذا (ما اشتد ساعده ، صار قادرا على الانتقام من قاتل أبيه) .

وقصة الظاهر بيبرس وعلى الزيبق وهما من عمل الفنان الشعبي المصري تصطبغان باللون المصري حتى في الصفات . فقد عمدتا الى الى عقد البطولة (للمهارة ، والحيلة ، والذكاء) أى للفهلوة المصرية حين اسندت قصة عنترة ، البطولة ، الى الفروسية .

والبطل على الزيبق منذ حداثته مولع بالتندر والسخرية شان المصريين .

وقصة على الزيبق تنبع من احساس خفي **بعود مصر في الايواء** فتبدأ القصة بلياذ أحمد الدنف ورجاله ومن بينهم والد البطل ، الى مصر حيث يستقرون بالقاهرة والاسكندرية .

أما قصة سيف بن ذى يزن التي شكلتها مصر او شكلها خوفها على النيل فهي تجمع الى صفات المهارة والحيلة والذكاء ، **علوم الاقلام والحكمة والسحر** أيضا وهي **صفات ومهارات مصرية** .

ويحلو لخيال الراوي المصري أن يقف بسيف بن ذى يزن عند صومعة في الجبل يسكنها انسان يرد على تحية الملك اليمني بقوله : « عليك السلام ورحمة الله وبركاته . وأهلا وسهلا بملك بلاد اليمن وغيرها من الامصار والدمن . الحاكم على هذه الاقطار وسائق النيل من بلاد الحبشة الى أراضي الامصار ، وتجعل القصة من نيل مصر الها

معبودا حتى «لم يعرفوا لهم معبودا سواه» .. وتجعل القصة لنيل مصر «كتابا» محرزا فى صندوق من خشب الآبنوس الاسود ومصفحا عليه بصفائح الذهب الاحمر ، والصندوق موضوع فى تابوت من خشب الساج ومصفح بصفائح فضة وموضوع عليه مقام عال من الخشب وعليه ستارة من الحرير الملون ومبنى عليه قبة محكمة من حجر الرخام الابيض وبابها من الحديد الصينى واقفالها من الحديد والبولاد .

انه خوف مصر التقليدى على النيل من فرط تعلقها به الى حد تدب فيه الوساوس والأوهام ..

وكلما لاح الهلال احضر القاص الشعبى المصرى اكابر بلد «قيمر» جميعا والوزراء مع الامراء والنواب والحجاب .. احضر الجميع وعلى راسهم الملك الذى (يفتح باب القبة ويفتح بعده باب التابوت وبعده يطلع الصندوق ويفتحه وينظر الى الكتاب ــ كتاب النيل لاتنسى ــ ويسجد له دون رب الأرباب . فاذا فعل ذلك ورآه ارباب دولته سجد لذلك الكتاب سجد أرباب الدولة جميعا اتباعا لسجود الملك . وكذلك الامراء والوزراء يسجدون فتنظر الرعايا سجودهم فيسجدون جميعا تبعا لهم ...) او تبعا لرغبة مصر فى تطويع الآخرين لمشيئتها ولنهرها المرموق الموموق .

مقام عال .. قبة من الرخام وركوع وسجود يشترك فيه الملك والرعية على السواء .. كل هذا لكتاب النيل فى نظر القاص الشعبى (الذى يجلب لهم النيل ويجرى المياه) .

بهذا كان يحدث الشعب سماره فى الليالى والحلقات .

بل أن مصر فى قصة سيف بن ذى يزن جعلت لكتاب النيل « كرامات » .

وقصة سيف بن ذى يزن فى الأدب الشعبى عليها طابع مصر فى الأخيلة والأفكار . فرواسب الفنان المصرى تشكل فى القصة (تابوتا) مصفحا بالذهب ــ كالتابوت الذى تفتقت عنه حيلة (سيت) ليضع فيه اخاه (أوزوريس) .. والصندوق الذى وضع القاص المصرى كتاب النيل فيه انما يلمح أصبع الشهيد الذى كان الأقباط يضعونه فى الصندوق ويعتقدون أن النيل لا يفيض الا اذا فتح الصندوق ــ تماما كما تروى القصه ــ والقى الأصبع فيه بين مظاهر التوقير والحفاوة ثم يعاد الأصبع الى الصندوق لينتظر العام التالى .

وهكذا صبغت مصر قصة سيف بن ذى يزن باللون الذى يحلو لها ان تتملاه .

وهكذا فعلت مصر فى باقى القصص الشعبى .. لابد أن تترك طابعها بصورة ما بحيث تتميزه العين ولا تخطئه فهى تارة تكيف احداث القصة على هواها وتارة تجعل البطل مصريا او تجعل الأبطال جميعا مصريين وطورا تطبع القصة بطابع مصرى ولكن يدق فهمه على النظر العجلان او الادراك غير المتعمق فمثلا فى « الهلالية »تنزع مصر الى « التجميع » على يد ... الجازية « التى كانت صورة للوفاء والولاء .. ونحن فى الريف المصرى نسمى الجسم الخشبى فى الساقية والذى يربط اجزاءها ، الجازية » .

بل ان مصر تعمل وجدانها فى القصص الشعبى فتنزع فى قصة الظاهر بيبرس الى توحيد المنطقة تحت رايته .

وفى قصة الظاهر بيبرس تسخر مصر من « عدل » الحاكم بصورة عملية فتنشىء ديوانا شعبيا لا يرتشى ولايتجبر ولايتكبر .. ديوانا مصريا لا يميل فيه « ميزان » العدل ويتقدم اليه أبناء البلد والفلاحون فيجدون اذنا صاغية وصدرا رحبا . وكأن مصر الأسلامية بهذا الديوان تتجاوب مع رغبة بعيدة أبداها فى مصر الفرعونيه ، الفلاح الفصيح .

وفى القصص الشعبى حلم مصر الدائم بظهور « المخلص » الذى يرفع عنها اصرها ، ويوكل اليها أمرها ويعيش بها ولها . ولا يهم الفنان المصرى فى سبيل تعميق افكار مصرية معينة ، وتوكيد اغراض مصرية بعيدة أن يشكل الحقائق التاريخية تشكيلا يرضى الوجدان المصرى ويشبع رغباته الحاضرة فيمسخ القاص « قراقوش » وزير صلاح الدين الأيوبى ويجعل منه اضحوكة ولو كان راى التاريخ فيه غير هذا ولكن مصر تكره « اجنبية الحاكم » وهى تريد أن تعكس بغضها للحكم الأيوبى والمملوكى وكرهها للأتراك ، فيؤلف فنانها الشعبى النوادر الساخرة والحكايات التى تظهر « قراقوش » هذا غبيا احمق متعسفا . ويؤيد راى مصر وينتصر له (ابن مماتى) فى كتابه « الفاشوش » . وحاكاه فى هذا (السيوطى) فألف « فاشوشيا » آخر . وتبعه ثالث فألف « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » لتشبع مصر ضحكا على دولة الأيوبيين .

بل ان القصص الشعبى تجاوز « قراقوش » الى صلاح الدين نفسه حين جعل القاص المصرى « على الزيبق » يلعب بالسلاطين ولم

تستثن « صلاح الدين » الذى يعتبر عادلا نسبيا ومحبوبا نسبيا .. لم تنس القصة الشعبية كلية انه غريب فانتصرت لعلى الزيبق ومنحته الجراة ليتهجم على بيت السلطان ويسلبه خزانة المال .. ثم تجعل القصة صلاح الدين عاجزا عنه ، تقصر يداه عن النيل منه ! بل تجعله يقر بعجزه وقصوره فلا يجد بدا من مسالمته فينادى السلطان بالأمان لعلى الزيبق ليضمه الى رجاله الذين يحفظون الأمن ! ويطلب منه أن يثبت مهارته باحضار « صندوق التواجيه » من المدينة المرصودة .. وبالطبع يظفر على الزيبق بالصندوق بعد كفاح « شاطر » ..

وتتصل سلسلة انتصارات على الزيبق فيتولى درك مصر ثم يضم اليه ــ كالعادة ــ درك الشام ودرك بغداد .

وتتنفس مصر فى الأدب الشعبى فتنقد نقدا كاريكاتوريا فما لا يعجبها من خصال ومظاهر سلوك ، تسلط عليه النكتة اللاذعة ، أو « القفشة » البارعة (١) ، أو « القافية » المحبوكة فتمسخه مسخا يغدو بعده أضحوكة وهزأة .

وكم وضعت مصر على لسان جحا من اقوال وحكايات وتعليقات حتى ليعد جحا رمزا مصريا وان عرفته شعوب اخرى فى الشرق وحملته اشياء ..

وكانت مصر تسخر من حكامها الأجانب بالألقاب والأسماء والكنى . فعبد الله بن عبد الملك الذى رفع الأسماء (المكيس) ، وكافور (أبو المسك) ، ونائب بيبرس الأجرد (دقين) ، وطشتمر (حمص اخضر) .. ومثل هذا فعلته مصر بالرومان فالقيصر سبسيان دعته (تاجر السردين) (٢) .

وكانت مصر تسخر من الأجانب ، فى عصر المماليك ، **بالزجل الهزلى** كما فعلت بفيل تيمورلنك .

سخر المصريون من كل طبقة فالشعراء والزجالون بل ائمة المساجد اشتركوا فى السخرية الوانا . فألف ابن سودون ديوانه الهزلى « نزهة النفوس ومضحك العبوس » الذى سخر فيه من كل شيء حتى

---

(١) حتى الامثلة العامية لا تخلو من هذه « القفشات » وكأنها سليقة وطبع في المصريين، ومن مظاهر الامثلة الشعبية « عيشك كويس يا خالتى من سوء بختى يا بنت اختى » .

(٢) حتى فيما بينهم يطلق المصريون الألقاب والكنى على أصحاب اللوازم منهم أو السمت الخاص وخاصة بين الأدباء .

اللهجات فيعتذر « فنين » فى خطابه بانه لو كتب الذى فى خاطره لكان الكتاب (يجيء من هون لفين) . كما الف واعظ آخر من شربين كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » الذى سخرت فيه مصر من السلب والنهب والحرمان بل سخرت فيه مصر من أسلوب خطبة الجمعة « وكليشيهاتها » ، ومن مخاطبتها بطونا خاوية وأجساما ضاوية لا ينقصها الوعيد والتهديد بالعذاب .

انى اتجنب الشواهد الا لضرورة ملحة ولكننى أورد خطبة جمعة لدلالتها العميقة على باع مصر فى السخرية من كل شيء اذا ارهقتها المظالم :

(الحمد لله مزيل الحزن — أمنية يباعد منها الواقع المرير — ومزين الأرز باللبن ، واشهد ان اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن — أن الشهادة الدينية أمر مسلم به والا ففيم الصلاة — واعلموا ان القشطة لا تترك وان المهلبية أحسن وابرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم واعلموا انكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وبأعمالكم محاسبون، وعلى رب العزة تعرضون ، وسيعلم الذين جاعوا اى منقلب ينقلبون . اللهم وأرض عن الأربعة الأعيان : التين والزيتون والخوخ والرمان وأرض اللهم عن الستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة : الماوردية ، والمهلبية والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المخشى المحمر والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر، والقطايف الغارقة فى السمن والعسل والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، والخرفان المعلوفة ، واليخنى السمين والقرمزية متعنا الله واياكم بهم أجمعين . اللهم وادم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ابن القنانى من أصله من القصب الملوانى . اللهم ايده بأرماح القصب وبسبايط الرطب وبعناقيد العنب واجمعنا عليه من أول النهار وفى وسطه وآخره . اللهم واهلك الثلاثة الفجار : العدس والبسلة والبيصار .

هؤلاء هم الفجار الذين يواجههم الشعب اما الفجار والكفار الخ من الأمم البائدة فهو لا يعرف عنهم شيئا ولا يضيره الجهل بهم ولا تزيده المعرفة .

عباد الله من أراد حل القبول أن تسدل عليه فليأكل الموز بالسكر بين والديه ، وتفكهوا قبل الطعام واقتدوا بسنة خير الانام، ولا تتضاربوا ولا تتخاذلوا ، وكونوا عباد الله اخوانا) .

في هذه الخطبة مرام بعيدة للسخرية اقربها ان الجائع المحروم لا بال له ولا فراغ في صبره او صدره للخطبة الموضوعة والألفاظ المصنوعة والدعاء المتكلف الذى لا روح فيه ولا مسوغ له والا فكيف بعد كل هذا الحرمان يطلبون منا الدعاء لهم بالنصر والدوام والتأييد، انما الدعاء للعز الغارب أن يعود .

ان خطبة الجمعة لا معنى لها الا أن تعيش في مشاكل الناس الحقيقية .. في الامهم .. في آمالهم .. اما أن تدعو للظالم ثم تنثنى تخدر المظلومين بالجنة وتحذر الضحايا من سوء المنقلب وعاقبة الظلم ـ وهم عاجزون عنه وراسفون فيه ! ـ فلا .

هذا هو اسلوب مصر العملي في النقد اللاذع .. اسلوب راسخ بما فيه من اعماق وبما يبقى منه على الزمن ، ويلحق اللعنة بمن تخيفوها ..

وهكذا كان الأدب الشعبي المصرى يتعقب الباغى ويدمغه حين كان الأدب الفصيح يتزلف اليه ، ويمدحه وهو ناقم عليه (فاذا استعلى نفر قليل على المدح المهين الكاذب ، تحدثوا في الزهد أو الولاية .

وهكذا تسخر مصر من الحكام ، خاصة ، الغرباء بالنكتة تارة وبالقصص الشعبي آونة أخرى .

وحين نقول النكتة لا نعني امرا سهلا . فالنكتة المصرية وراءها بديهة حاضرة وذكاء لماح وقدرة على اصطناع التورية وتخديم الألفاظ في براعة وسرعة وفن ولباقة أيضا .. لقد كانت النكتة المصرية وحدها ترعب الأقوياء ، حتى حرم الرومان على المحامين المصريين المرافعة في محاكم الاسكندرية لأنهم كانوا يغضون من هيبة القضاء الروماني بالمزاح والدعابة ، في أثناء الدفاع وشرح القضايا !

وهكذا تشكل النكتة المصرية عنصرا من عناصرالشخصية المصرية ، ومقوما من مقوماتها بما لها من دور وظيفي وسلوكي في صراع الشخصية المصرية مع الاحداث التاريخية . انها **نكتة مرتبطة** وان كان لها وجهان :

الأول : **حفظها للذات** بما تنفس عنها وتعوضها شعورا بالاستعلاء على الطرف الآخر الذى تنتقصه و (تكشفه) في آن .. والآخر : انها **عامل تعويق** اذ تصرف الانفعال **الايجابي** خاصة في المواقف التي يستطيع الانفعال أن يوقف البغي أو التمادى فيه .. وهي تصرف الانفعال

باثارة الضحك الذي يحدث خلخلة في صرامة الموقف تضعفه فتستحيل ناره الى رماد ! وكفى الله القتال المؤمنين والكافرين على السواء ... وبعدها نحس السلبية والتفريط فنستعلى عليه بالافراط في المباهاة ، والتزيد في الحديث ، والمبالغة في التصرف مما يكبدنا في حياتنا اليومية الكثير في سبيل مظاهر خارجية نتوسع فيها بقدر رغبتنا في تأكيد الذات .

بل ان عملية التعويق التى تقوم بها النكتة من الخطورة بمكان اذ انها بالجانب السلبى منها وراء الكثير من عيوبنا الاجتماعية .

ومن عمل الشخصية المصرية فى الأدب الشعبى آثار مصر فى فن : « خيال الظل » .

ان ابن دانيال اعظم المبرزين فى فن خيال الظل لم يستقم فنه الا بعد ان أوى الى مصر عندما دهم التتار بلده الموصل . ومع تبريزه وتفوقه لم يقو على فرض تمثيلياته على مصر او يحمل فنانيها على ادائها وعرضها بل التقطت مصر هذا الفن ومارسته بطريقتها هى فاخملت ابن دانيال حين عفت فصفت تمثيلياتها من المجون والاقذاع واتسمت كدأبها فى فنون الأدب بالفكاهة والنقد .. بل عمدت مصر الى بث الحياة المصرية فى هذا اللون من الفنون الشعبية وقبسته بعضا من تاريخها وفرضت عليه اماكنها وصور العيش فيها .. امعانا منها فى ربطه بعجلتها .. فى تمصيره .

وراحت مصر بعد هذا تغاير فى التقاليد التى وضعها ابن دانيال فوضعت تقاليد فنية جديدة فى الاستهلال والختام فكانت تمثيلياتها « لعبة التمساح » و « لعبة المنار » اللتان عثر عليهما المستشرق (بول كاله) فيما عثر عليه من مخطوطات القاهرة سنة ١٩٠٩ ، طبقة اخرى غير ابن دانيال حتى لتعلو الدراسة المتخصصة ، التمثيلية المصرية « حرب العجم » او « لعبة المنار » .. من اروع ما خلفه فن خيال الظل .

وفى هذه التمثيلية وحدها دلالة كبيرة على شخصية مصر وعملها ونزوعها الى الفن والى الجد والتجميع والكفاح والظفر بالنصر والتغنى به غناء يغرى ويشحذ العزائم للجهاد فى الحروب الصليبية التى اخذت مصر فيها دورا طليعيا قياديا من حيث الفن الحربى والتبعات . هذا حين نجد ابن دانيال الذى يقرن به فن « خيال الظل » يخدمه — وفى

نفس العصر والظروف تخديما غثا مبتذلا فيعرض كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس (لمناقرة الديكة وتناطح الخراف ومصارعة الثيران ويستعرض الانحراف الاخلاقي ويسخر ببعض الأوضاع) .

ولقد بدت خصوصية مصر وصقلها فى أسلوب التمثيليتين فقد كان اسلوبا فنيا راقيا يعتمد على التصوير والأدب معا ويجعلهما صالحتين للعرض أمام الخاصة المثقفة والعامة على السواء .

ولقد دخلت التمثيليتان بما وفرت لهما مصر ، الفن الشعبى ، حين اخرجت منه الدراسة المتخصصة بابات ابن دانيال على شهرتها .

وعن مصر اخذت تركيا فن خيال الظل وتاثرت بها فاستعارته اليونان . وعن مصر اخذه الشمال الافريقى .. وعن مصر ايضا انتقل الى شمال حوض البحر الأبيض المتوسط .

وهناك فنون من الأدب الشعبى وعلى التحديد من الشعر الشعبى، نشأت فى غير مصر مثل « القوما » و « كان كان » ثم لحقتها مصر وادخلتها بوتقتها فانجلت حتى لتروع ابن خلدون حين يتحدث عن هذه الفنون فيقرر ان (اهل مصر القاهرة اتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها فى اساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب) .

ومثل هذا فعلته مصر بالموشحات التى اقترنت باسماء شعراء مصريين بالأصل أو المولد أو المربى .. بل ان الشاعر المصرى ابن سناء الملك هو الذى الف فى فن التوشيح كتاب « دار الطراز فى عمل الموشحات » .

وزكى شاعرنا ، الصفدى فى كتابه « توشيع التوشيح » كما زكاه صاحب كتاب « المقتطف من أزاهر الطرف » الذى نقل عنه ابن خلدون موشحة ابن سناء الملك التى طارت شهرتها شرقا وغربا : (حبيبى ارفع حجاب النور عن العذار) وان كان هذا لم يحل دون نقد الدكتور الاهوانى له فى كتابه : « ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر » .

ويسلمنا الحديث عن الموشحات الى الوان من الأدب الشعبى كان لمصر ذوق خاص فيها كالموال .

نشأ الموال فى بغداد ولكنه تفتح وازدهر فى مصر .

فقد استحدثت مصر فى فن الموال من الناحية الفنية « السجع المشطر » فنظمت لأول مرة « البسيط » مجزوءا متصرفة فى عدد اغصان الموال . ومضت تتصرف فى عدد شطرات الموال ، وفى القافية ، وتنوع فى الوزن دون أن تخرج على البحر . ويتمثل صنيعها هذا فى الموال الذى استشهد به ابن خلدون فى مقدمته .

هدى جراحى طربا	والدما تنضح
وقاتلى يا اخيا	فى الفلا يمرح
قالوا وتاخذ بتارك	قلت دا اقبح

وبرعت مصر فى فن الموال حتى طعمت به امثالها الشعبية .

وفى القرن التاسع عشر اريد بالموال شر فاغرى الحاكم التركى متشئيه بالسلبية والاستخداء اللذين انعكسا على الموال ليشيع هذين المعنيين حتى يتهيأ لحكمه ان يعيش . فكان الموال يتمطى من الكسل، ويتباطا فى الترديد ، ويتكثر بالتكرار والمط ، ويتلهى بالبدر والحسن كأن كل شىء على ما يرام ، وكأن مصر فرغت من همومها ولم يبق الا ان تتسلى . ولأمر ما سمت مصر الموال الشائع فى ذلك الوقت « الموال الأعرج » وان كان للتسمية أصل فنى .

وشاعت مواويل الصبر لا تسليما بالأمر الواقع ولكن احساسا بمرارته ، الاحساس الذى يسبق الانتفاض . فقد مهد الفنان الشعبى لهذا الانتفاض بممارسة اسلوبه الأصيل ابان المحن والشدائد فسخر الموال من الحكام فى « أدهم الشرقاوى » كما سخر منددا بالغاصبين من اتراك وفرنسيين وانجليز . فلما وقعت واقعة دنشواى انطلق الفن الشعبى من اساره يتوعد فى موال (زهران) ، ووجد نفسه فى موال : (مصطفى كامل) . وبدا يؤرخ للاحداث ويفسح عن رايه متخليا عن سلبية بغيضة . وتدعمت ايجابيته على الأيام فشارك فى التعبير عن واقعنا الاجتماعى ابان الحرب العالمية الأولى ، حتى اذا كانت ثورة سنة ١٩١٩ انطلق الموال مع الجموع المصرية يردد صيحاتها وينـدد باعدائها ويدعو الى مقاطعتهم اقتصاديا ، وبهذا تكون مصر قد اضفت على الموال ((قيمة)) يوم جعلته مكلفا مشاركا .

ومن فنانى الموال فى تلك الحقبة بيرم ومحمود رمزى نظيم وحسين شفيق المصرى والدكتور سعيد عبده الذى يعد من رواد الموال المصرى بكل خصائصه الفنية المصرية فضلا عن أن مواله كان هادفا فهو يشتعل

ثورة على الانجليز ، وهو يقطر ألما لنواحي النقص فى مجتمعنا (موال الجامعة) وهو يناقش السياسة والساسة بالموال .

كانت مواويل الدكتور سعيد عبده تطب لنا على طريق المقاومة وكانت تمنحنا الجلد عليها ، وتنفحنا بالقوة الدافعة بما تصفه من نضالنا ، وبما تبدده من أوهامنا حتى لم يعد المستعمر فى عنفوان بطشه، اسطورة ، كما كان يحسبه البسطاء .

واستخرجت مصر من البحر البسيط بقدرتها على اللعب الفنى ، **صورا عدة للموال** من حيث التنسيق والقافية . فالموال الأعرج والموال النعمانى وهو من تخريج أهل الصعيد ومواويل « الفرش والغطا » التى ينشدها المغنون على طريقة « الموال النعمانى » **بل بلغ الصعايدة بفن الموال مبلغا ينظمون معه المواويل ارتجالا** على البديهة فى سرعة ولماحية وشفافية ايضا . وهم يسمون عملهم هذا أو فنهم هذا : « الرمى » وهم حين « يرمون » فانما يتناولون جوانب الحياة كلها فيكون موضوعهم سياسيا أو اجتماعيا أو وطنيا أو فكاهيا أو اقتصاديا . وفى كل الحالات نجد الحكمة مبثوثة والحادثة مسرودة ، والمعنى الغريب مقتنصا فى براعة وحذق ، والصياغة بعد هذا لا هى بالمكرورة ولا بالمستهجنة .

وفى مجال الابتكار فى صياغة الموال يأتى بيرم المصور بالمعجب فيجزىء الأشطر ويغاير بينها فى الطول ويخدم مع القافية الاصلية قافية داخلية وينوع فى وزن الموال ويقفى اشطره .

وقد أجاد بيرم « الاه » فى الأوله ، والثانية ، والثالثة .. وهو طراز .. راق الزجالين فخفوا الى تقليده وما زالوا على تقليده عاكفين حتى اليوم .

وحين خدمت مصر الموال تخديما جديدا فنزلت به الحياة وعبرت به عن الوانها ، تطور الموال على يدها فى أغراضه والفاظه والحانه، وفنونه حتى غدا فنا شعبيا يضيف اليه ابناء الشعب على اختلاف مشاربهم وأعمالهم حتى ليكاد أبناء البلد يوقعون أحاديث نفوسهم على ارغول .

واذ بلغ الموال هذا الحد من التنويع والاطراف ، غدا قادرا على بلورة معان بعينها وبث مفاهيم جديدة بل اشاعة قيم حاضرة يملى لها المد الثقافى والحضارى والاجتماعى الراهن .

ويأخذ المــوال في حياتنا الحاضرة دوراً ذا قيمة فهو يؤرخ لها ، ويسـجل انتصاراتها ويعكس مشاعرها ، ويروى أحداثها ،ويغنى للجموع الهادرة ، ويبارك القــوى العاملة ، ويدعو لكل حــركة بناءة ، ويتفتح للحياة المصرية بل يعيشها متجاوبا معها في حب وفرحة . فحكى الموال وقص وصور وعاش مع الشعب فنبع منه وخفق له ، ومعه ، وجرى بأسلوبه البسـيط والفاظه الصادقة الرضية السهلة ، وحمل شـجاه فجاء صافيا رقيقا عذبا حبيبا الى القلوب والأسماع .

هذه الوان من شخصية مصر في الأدب الشعبي ... بعض الوان .

شخصية مصر فى العصر الحديث

كثيرون يعدون الحملة الفرنسية بداية يقظة اى انها ايقظت مصر من سبات عميق . ولكن مصر حتى فى ذلك الوقت قاومت نابليون الذى كان قد اجتاح اوروبا قبيلها بدون مقاومة . قاومته مصر حتى خرج منها ليلا ، وقتل فيها قائده الأول كليبر ، واسلم بها قائده الثانى مينو وتزوج مصرية من رشيد .. واذا الحملة الفرنسية تنحسر عن مصر بعد ثلاث سنين !

حتى الثقافة حين شحذتها الحملة الفرنسية فيما استخدمت من اسلحة ضد مصر قاومتها مصر بهذا السلاح نفسه اى بالوراثة الثقافية فيها والذكاء فكشفت لعبتها ولم يخدعها اشراك رجالها فى الحكم ، او الدراسة العلمية ، او اسلام مينو .

وحاولت انجلترا أن تخدم الثقافة أيضا وركزت على اللغة فتكلمت الهند الانجليزية ، ولكن مصر تزودت بالثقافة الانجليزية دون أن تتكلم الانجليزية نفسها فى حياتها اليومية . وفشلت انجلترا فيما نجحت فيه فى الهند . وظلت مصر تتكلم العربية وتعلمها لأبناء الدول العربية والشرقية فى الأزهر .

ازاحت مصر الحملة الفرنسية ، وأزاحت الحملة الفرنسية الرماد عن الجذوة المصرية التى لا تنطفىء أبدا فقامت فى مصر حركة علمية من اوائل القرن التاسع عشر ازدهرت فى عهد اسماعيل فعممت المدارس وانتشرت الصحافة وقام التمثيل وترجمت العلوم اذ قام بمصر قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ على رأسه رفاعة الطهطاوى ترجم الكثير من الكتب العلمية الأجنبية فى مختلف العلوم الحديثة .

واخمد الاحتلال الانجليزي هذه النهضة ولكن مصر ما لبثت ان هبت من جديد توفد البعوث الى الخارج وتنشىء المدارس فى الداخل وتعمل لحريتها وعقلها معا حتى بلغت من الاثنين غاية تعدها **نقطة انطلاق** الى ما هو أكمل .

لم يعق الاحتلال على عتوه وجبروته ، مصر عن أن تنشىء ((**الجامعة**)) فى القاهرة ثم فى الاسكندرية . وبهذا توهجت الشعلة فى يد مصر على الرغم منه اذ غدت جامعتاها وازهرها قبلة الطلاب من سائر العالم العربى والاسلامى .. **يدين العالم العربى لأزهرها بالقيادة الروحية ، ويدين لجامعتها بالقيادة العلمية ، ويدين لأدبها بالقيادة الفنية** . فحين تدهور الأدب العربى فى العصر التركى ووهنت اللغة حتى كادت أن تكون جثة باردة لا نبض فيها ولا حياة ، **اقالت مصر العثرة على يد البارودى**[1]. ومد لحركة البعث حافظ ، وشوقى الذى عقد له لواء الشعر ، وبويع بامارة القوافى ، ومطران ربيب مصر .. ثم جاء العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى فلم يكتفوا بعملية الاحياء والبعث بل دعوا الى التجديد والاستشراف الى آفاق أخرى بعيدة .

واذ **بعثت** مصر الشعر ، **وطورته وجددته** ، شرعت **مصر الكتابة السهلة** العذبة بعد ان غرق العصر الى أذنيه فى مقامات الحريرى وتقليدها ! فكانت كتابات لطفى السيد وكتاب (الجريدة) صيحة فى عالم الكتابة العربية تحررها من ربقة القيود الصناعية بأسجاعها الثقيلة ومعانيها المتهافتة .

واذ اشتد الاقبال على الثقافة الغربية وتوسع الاطلاع بها ، بلغت مصر بالنثر الفنى كما يقول رجل الأدب الاستاذ الزيات (**منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره**) على يد العقاد والمازنى وطه حسين وحسين هيكل والزيات واحمد أمين ورصفائهم .

ولمصر ، وباسمها ، هذه القيادات الأدبية بما لها من سبق الريادة واشعاعاتها .

يقول الأخ السورى الدكتور أسعد طلس بعد ان نوه بالجامعات المصرية (وأما الطباعة المصرية على اختلاف دورها وتعدد مذاهبها فانها ذات فضل عظيم على القارئين فى الشام من اقصاه الى اقصاه . ولولا كتب مصر ومجلاتها ونشراتها لكان للادب فى الديار الشامية شأن آخر) .

ففي ميدان القصة شرعت مصر الترجمة والاقتباس فعرف الأدب العربي القصة بمفهومها الحديث في الأدب الغربي ثم اكدت مصر دورها بقصة « زينب » للدكتور هيكل و « عودة الروح » و « اهل الكهف » لتوفيق الحكيم و « ابراهيم الكاتب » للمازني و « سارة » للعقاد وما قدم طاهر لاشين ويحيى حقي ومحمد تيمور ومحمود تيمور وما تبع البداءة من آثارهم حتى سامتت القصة العربية المستوى العالمي عند نجيب محفوظ مع مصرية الروح والطابع والمكان .

ثم استحدثت مصر الشعر التمثيلي على يد شوقي . وعلى نهجه سار عزيز اباظة .

وفي مصر كتبت المسرحية .. كتبها توفيق الحكيم . وهي في باب الأدب المسرحي ريادة امتدت آثارها الى يومنا هذا . واقول ريادة من حيث المفهوم الفني للمسرحية كما يتمثلها الأدب الغربي . ولا يناقض هذا نشأة التمثيل العربي في لبنان لعامل الارساليات الأجنبية . ولكن التمثيل شيء والتأليف المسرحي شيء آخر .

ويتصل بعامل الارساليات الأجنبية ان عرف لبنان الصحافة واسس الصحف . ولكن الصحافة في القرن التاسع عشر التمست في مصر البيئة الصالحة فمؤسسو بعض الصحف ، من باب النشاط التجاري ، لبنانيون أو سوريون ولكنهم عاشوا وعاشت صحفهم في **مصر ، وباقلامها** ، بل ان اول صحيفة عربية بالمعنى الفني كانت الوقائع المصرية) ١٨٢٨ . وظلت وحدها في الميدان أكثر من ربع قرن .

على أن مصر انشأت مجلة (اليعسوب) الطبية .

وفي سنة ١٨٦٦ اصدرت مصر صحيفة « وادي النيل » ، « فنزهة الأفكار » ثم مجلة « روضة المدارس » .

وتوالى بعد هذا صدور الصحف والمجلات علمية ، وادبية ، وفنية لتؤدي في مصر ، وتؤدي عنها ، **رسالة النور** .

وهنا تطل شخصية مصر .

تصدر الصحف ثم تقرأ صحف مصر .

وتعمل الاذاعات وتسمع اذاعة مصر .

وتنشر المؤلفات وتثق البلاد العربية بما الفت مصر وهي ثقة غالية دونها الثروات وحساب المكاسب والتجارات .

وتحقق الكتب ولكن البلاد العربية تمتد بتحقيقات مصر العلمية . **ان مائة مليون عربى قبلتهم مصر فى اللغة بعلومها وفنونها ، وأربعمائة مليون مسلم قبلتهم مصر فى الدين .**

وفى الطب .. وفى الذرة .. وفى الهندسة تتالق فى سماء مصر الأسماء الكبيرة ، والكثيرة على المستوى العالمى مما شهد به لهم الغرب وأذكر على سبيل المثال لا الحصر (دكتور على ابراهيم) و (دكتور نجيب محفوظ) و (دكتور مصطفى مشرفة) و (دكتور سيد كريم) .

ولمصر فى الرسم والنحت والعمارة أساليب وفنون ومدارس وريادات .. وروائع .

وقد تكون ريادتها فى العصر الحاضر ليس لها التفرد العالمى الذى ذهبت به فى الماضى ، ولكنها **مركز اشعاع لما حولها** وما بالقليل هذا ولا بالهين الشان .

وهنا تطل شخصية مصر .

تغنى أصوات كثيرة ولكن القلوب تهفو الى أم كلثوم ، والأسماع العربية ترهف لأم كلثوم .

مصر تبعث أعذب الأغانى وأرقها .

ومن مصر تسرى أقوى الألحان وابقاها .

ومن مصر تصدر الأفلام .

ومن مصر تتجه مختلف الاذاعات .

وتقوم الجامعات فى البلاد العربية **ولكن باساتذة مصر .**

وتنبعث النهضات ولكن **بمساندة مصر** بالرجال والخبرة . وتهب حركات التحرير فتؤازرها مصر **بالتأييد والتوجيه والاذكاء .**

ويمتحن الأحرار فيتطلعون الى اللياذ بمصر وفيها تحلقت حول جمال الدين الأفغانى الندوة .. واليها قصد الكواكبى .. وبها اتصلت حياة الأحرار ، وأسباب أصحاب الدعوات .

ثم واصلت مصر الدعوات الى الحرية السياسية يقوم عليها مصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد ومحمد عبده الذى سفر لنا فى الشام فالتف حوله السوريون ١٨٨٥ م (يتلقون عنه دروس

العلم والحكمة والخير) كما يقول الدكتور اسعد طلس . كما احدث الشـــيخ محمد عبده فى بيروت (انقلابا عظيما) .

بل ان بعض الدعوات السياسية فى بعض بلاد الشرق يخطط لها فى مصر اذ قبل ان تولد الباكستان كان رجالها بلمون بالقاهرة ليضعوا الخطط لتحرير بلادهم . وليس الى الشـــك من سبيل ان جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب فى مصر ... وفى مصر كتبت فصول من قصة تحرير اندونسيا .

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا .

ان القاهرة حلم الملايين فى القارتين .

كما قامت فى مصر الدعوة الى الاصلاح الدينى على يد محمد عبده والمراغى . ومن مصر نبعت الدعوة الى تحرير المراة اضطلع بها قاسم امين وتبعه الزهاوى فى العراق .

حتى الدعوة الى القومية العربية تصدرها مصر ، وينبغ فى البلاد العربية موهوبون فى كل فن ولكنهم لا يتالقون إلا فى مصر ، فاذا غادروها انطفأوا ! . والأمثلة كثيرة .

ومن مصر تخـرج اليـوم البعوث العلمية بعـوث المدرسين شرقا وغربا وجنوبا لتنشر **رسالة مصر التعليمية** فيما حولها وتمد اشعاعاتها الى مسافات بعيدة .

ان مصر اليوم تمارس فى المنطقة عملها التقليدى الذى مرنت عليه منذ قديم .

وبعد : فانى حين أذكر لمصر عطاءها الباقى فى الفنـون والعلوم انما ابتغيا رسم ملامحها وابراز شخصيتها واظهار دورها التقليدى لأننـا بحاجة اليـوم الى التعرف الى هذه الشـــخصية والتملى من هذه القسـمات .

وقد سلكت الطريق العلمى والتزمت الحقائق المجردة الثابتة التى لا يقوى على جحودها انكار أو مكابرة . فاذا بدت الحقيقة كبيرة شامخة فهذا واقعها بلا تفاخر أو مباهاة انما هو **انصاف وتسجيل** يحتمه موضوع الكتاب ويمليه طبيعة البحث .

حقائق نحرص عليها

حين تقف آثار المجد المصرى مستقرة ثابتة ، شامخة لا تنال منها الأحداث او الناس أو الزمن نفسه ، يتحايل نفر على قلب الحقائق حتى يجدوا ثغرة الى النفس المصرية تهز ثقتها أو تشككها فى ذاتيتها .

والمصريون يواجهون مثل هذه الحملات او التحديات بالدفاع او الصمت ، ولكن الاجدى ان نتناولها فى موضوعية علمية أبقى من الجدل والغرض والاجحاف .

- الأهرام والسخرة
- مصر والغزاة
- أصل الشعب المصرى
- اسم مصر
- مصر فى القرآن الكريم
- فرعون .. وفراعنة
- الأقباط والمسلمون

الأهرام والسخرة

الهرم

يقف الناس منه فريقين :

بعض يراه صرحا للعمارة والعلم وبراعة الادارة وخلود الفن .

والبعض الآخر يراه صرحا شاهدا على الاستعباد والسخرة .

ان الاستبعاد قد يستطيع ان يبنى هرما ولكنه لايستطيع ان يحقق اتقانا أو يفجر فنا سعيدا فى بغددة ، فالنقش فى الهرم وفى المعابد المصرية فيه فرحة وغنائية يندر وجودها فى فن آخر .

وقد اثبتت الدراسات حرص الطبقات الكادحة على ان تدفن على مقربة من هرم خوفو بعد موته بأربعة قرون ، بما رسخ فى نفوس الشعب من سيرته ومآثره .

اى أن الاهرامات كانت مساجد ذلك العصر فبناتها كانوا يتبركون ببنائها ، ويتبركون بأصحابها .

يقول الدكتور أحمد فخرى : (ان دارس التاريخ يجب الا ينسى انه من الخطأ الكبير ان تحكم على ما حدث فى العصور الماضية بآرائنا الحالية ، او ما تؤمن به الآن من قيم اخلاقية او مبادىء . كان خوفو ملكا مقدسا ، ولا شك ان رعاياه كان يسعدهم أن يشتركوا فى اقامة مبانيه الخالدة .وقد شيدت فى ايامة كثير من آيات العمارة والفن . فاذا كان هذا الشخص حقيقة ملكا ظالما متسلطا عاتيا فمن غير المعقول ان يكون فى استطاعته ترك البلاد فى حالة اقتصادية مستقرة ساعدت ابنه (خفرع) على بناء الهرم الثانى ، وهو بناء يكاد يماثل هرم ابيه فى عظمته .

---

(١) كتاب (الأهرامات المصرية) ص ١٥١ .

واذا كان لادعاءات اولئك الكتاب - المعارضين - أى نصيب من الحقيقة ، لاستحال الاستمرار فى حفظ الطقوس الدينية الخاصة بالملك (خوفو) قرونا كثيرة ، فلدينا من العصر البطلمى ، أى أكثر من الفى سنة بعد موته ، آثار تشير الى استمرار وجود كهنة (خوفو) حتى ذلك العهد) .

وعلى النقيض من هذا ، المؤرخ الشهير « بلينى » الذى لم ير فى الاهرامات الا (استعراضا سخيفا ، لا فائدة منه لثروة الملوك) . ولكنه لم يلبث ان تساءل فى دهشة لا تخفى : كيف استطاعوا رفع الاحجار الى هذا الارتفاع العظيم ؟

ويبدو أن «بلينى» لم يكن،فى دهشته ، وحده فقد راع الهرم ، الكثيرين حتى لقد قدم بعض المغرمين بالاحصائيات ، كما يقول الدكتور فخرى ، كثيرا من العمليات الحسابية ، ليعقدوا مقارنات بين ارتفاعه وحجمه ، وبين الآثار الأخرى الشهيرة . واستنادا الى تلك التقديرات يقول عالم الأثريات ان (مساحة الهرم الأكبر يمكن أن تتسع لمجلس البرلمان ، كاتدرائية القديس بولس فى انجلترا ، ويبقى منها بعد ذلك مكان كبير غير مشغول . وهناك حسبة أخرى يتضح منها ان المساحة التى تشغلها قاعدة الهرم تكفى لان تشيد فيها كاتدرائيات فلورنسا وميلانو والقديس بطرس فى روما ، وكذلك كاتدرائية القديس بولس ودير وستمنستر فى لندن .

ولو اننا قطعنا جميع احجار الهرم الى احجار صغيرة ، حجم كل منها قدم مربعة واحدة ، ووضعنا هذه الأحجار كل منها الى جانب الآخر لأصبح طولها ثلثى طول الكرة الأرضية عند خط الاستواء . وعندما كان نابليون فى مصر حسب انه يوجد فى الهرم الأكبر، وما جاوره من اهرامات ، أحجار تكفى لاقامة سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متر واحد ، وقد أيد أحد الرياضيين الذين كانوا بين علماء الحملة الفرنسية هذا التقدير الذى حسبه نابليون !

ويغيب فى البهر حقيقة أخرى رائعة وهى **الطرق الصاعدة** التى اكدت الاكتشافات الاثرية وجودها بالضرورة لبناء أى هرم . وتشييد الطرق الصاعدة **عمل كبير ومجهود ضخم لا يكاد يقل عن تشييد الهرم نفسه)** .

وغير الطرق الصاعدة يلحق بكل هرم معبد جنازى وهيكل وسفن وسور خارجى مما يسمونه (المجموعة الهرمية) .

يقـول الدكتـور احمد فخرى مرة اخرى (ان العقل ليحار اذا ما اعملنا التفكير فى كمية العمل الذى يحتاج اليها مثل هذا البناء حتى لو استخدمنا المعدات الميكانيكية الحديثة) .

واحتار العلماء (١) .. انه معالتسليم بأن المهندسين المصريين احلوا القوة البشرية محل القوة الآلية فى تشييد هرمهم ، الا أن ذلك لا يفسر المعجزات الفنية والمعمارية التى تجمعت فى بنائه وانما يضيف اليهـا معجزات بشرية لا تقل عنها فى صعوبة تفسيرها ، ذلك انه من السهل أن نتحدث عن حشد آلاف من الرجال ، وليكونوا ثلاثين‌الف رجل مثلا، كيف تم تشغيلهم .

كيف تم تدريب الفنيين منهم .

كيف أمكن تحقيق التعاون بينهم ؟

الهرم معناه تنظيم جبار للمجموعة الانسانية التى قامت به . هذا التنظيم والتخصيص والتصميم والتنفيـذ . والاشراف هـو فى ذاته **حضارة فى مستوى رفيع .**

ان توجيه العمال الراغبين فى العمل الى القيـام بأعمال انشائية يستلزم وجود الزعامة المصحوبة بقوة الابداع .

ان الهرم المصرى ليس بناء فحسب ، وليس نقوشـا فحسب ، **ولكنه جراة أيضـا** .. الملك المصرى الذى وقف على الهضبة وحلم بأن يكون له فوقها هرم باذخ ثم انطلقت من نفسـه **ارادة التصميم** ثم **عزم التنفيذ** فاذا بالحلم حقيقة .. هـذه المراحل غير المنظورة فى الهـرم من ابلغ معانيـه .. جراة تضمر ان تسـوى الهضبة وتنقـل اليها الأحجار الضخمة وتبنى ثم تعلى البناء فيكون لها ما تريد .. جراة .

الهـرم معناه ان الانسـان المصرى والفنان المصرى قد اختار ، اختار ان يضع نفسه فى مجـال الخلق . وان يجعل من نفسـه مرقبا ومنطلقا للتشكيل .. للبناء .. للتشوق الى الرائع والجليل .

وحين بنت مصر الهرم الأكبر . بنت الانسان المصرى على طريقتها فى بناء الهرم .

ان اكتشاف **قالب الطوب** ، اكتشاف عظيم .. **وتشكيل الحجر** ، اكتشاف عظيم .. فما أصنعه يصنعنى ، وما أبنيه يبنينى .. فدخول التجربة خبرة ، وقدرة ، وتشكيل للنفس .

---

(١) اقرأ جورج سارتون فى كتابه (تاريخ العلم) .

ان العروض فى الشعر لون من ادراك النظام والحساب الدقيق .

والهرم او ذلك الكيان الرياضى الصارم الأخاذ الجليل .. انه طائر ذو اربعة اجنحة . ولهذا يجب على من يزوره أن يقف قبالة الزاوية ثم يرفع بصره الى القمة ويحتضنه من الجناحين فى عملية تجديد للنفس وللوجود البشرى المصرى .

بنت مصر الهرم الأكبر . وبعده بنت هرم خفرع ثم هرم منقرع ، وقبله بنت هرم زوسر وهرم سنفرو .

ان ولع مصر **بالبناء** ، لون من البناء النفسى . ولعل البناء اكسبها النضج النفسى .

هل الحجر اوحى اليها القوة ؟ ام ان قوتها اختارت الحجر للبناء ؟ وهذا يفسر ان مصر الاسلامية فى اول عهدها بالاسلام ، بنت بالطوب فى مرحلة الانطواء لتتبين الجديد .. حتى جامع ابن طولون على ضخامته مبنى بالطوب .

واذ اتخذت مصر فى الاسلام دورا قويا ، بنت بالحجر وبالروح القديمة نفسها — والروح غير الطراز — وخير شاهد على هذا جامع السلطان حسن .

نعود الى السؤال التقليدى : هل تم البناء رهبة او رغبة ؟ سخرة او رضاء ؟

الدكتور عبد العزيز صالح اشار الى ان البناء كان يجرى فى مواسم الفيضان ، والى ان البناء كان يعفى منه طوائف المتعلمين من موظفى الحكومة وكهنة المعابد وربما كبار الشخصيات من أهل المدن والقرى ايضا ، اى كان قاصرا على اليدويين .

كما اشار الى ان العمال كانوا مسحرين بالعقيدة الدينية ، فالملك كان راس الديانة ووريث الارباب من الناحية النظرية على اقل تقدير ، بل كان يعتبر ملكا فى الآخرة أيضا ، والجهد فى سبيله شفاعة .

كما اشار الى ان العمال خصصت لهم **شون الغلال** وخصصت لهم **مساكن لايوائهم** . ولم يتركوا فى العراء ، وقدم لهم الطعام والشراب ، وتضمنت النصوص قول بعض من تولوا رياسة الأتباع والصناع :

(لم اضرب انسانا وقع تحت يدى ولم استعبد احدا فى العمل) .

وقول احد اثرياء الأسرة الرابعة :

(كل صانع عمل فى مقبرتى ارضيته)

وقول آخر : (انفقت على قبرى هذا من متاعى الحلال ولم يحدث اطلاقا أن اغتصبت متاع شخص ما) .

انه اذا كان لكل طائفة من الحكام آفة ، وكان من آفة حكام بلاد النهرين الأقدمين حب البطش وسفك الدماء والنهم الى الجبروت ، وكان من امر الحكام الرومان الأقدمين مثل امرهم ، وكان من آفة حكام العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت اموالهـا فى سبيل بناء القصور وحياة الاستمتاع ومدائح الشعراء فقد كان من هوى ملوك المصريين انهم اهتموا بالمعابد والاهرام .

وقد يتساءل بعض الناس لماذا لم يهتموا بالنـواحى العمرانيـة التى تعود على الشعب كله بالخير ؟

وهنــا اقول ان ملوك الاهرام بذلوا الكثير من اجـل التعمير والتحضير . وبعض هـذا ، الزراعة ، علم ذلك العصر وصناعته بما وراءها من رى وشق الترع والقنوات ، والتقويم السنوى وكل ما حمله عصرهم من حضارة بفنونها وعلومها . .

فعلوا هذا قبل بناء الأهرام ، بل لعلهم بسبب هذا كله وبه ، بنوا الاهرام . . بعائد الزراعة وخيرها . . وبدافع استمراء نعيمها واستبقائه بعد الحياة . فما يفكر فى الخلود محروم او مجهود ، ولكن نعيم الحياة فى مصر جعل جنة المصريين ، مصر خالدة .

بل ان امين سامى (باشا) صاحب كتاب تقويم النيل يقـول ان النيل كان يجرى فى ذلك العهد بالقرب من الهرم . فكانت الرمال تطمر مجراه . وكانوا يقاسون فى ازالتها اشد العذاب فبنوا الهرم ذا السطوح المائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس . وضمنوه فوائد اخرى منهــا انه يمكن به تعيين الجهـات ومعرفة الفصول .

ودفن خوفو به من قبيل دفن اصحاب المساجد فيها . .

ثم لمـاذا الاهرام دون سائر الآثار فى مختلف الحضـارات القديمة تسلط عليها فكرة السخرة ؟ مع انها بنيت فى بيئات لا تنتظر انحســار

فيضان ، أو يوثق علاقتها بالحاكم نهر مقدس يجعل مرضاته باعتباره سيد النيل ، بركة وضرورة معا ؟

ليس رمز الصخرة .

ولكن الهرم رمز الصمود والثبات فى الشخصية المصرية .

ان الهرم حصاد بلد زارع . والزراعة استقرار فجاء الهرم فى اتزانه واستقامته دعوة للنفس المصرية أن تأخذ هيئتها ، هيئة الهرم ، المتزن المستقر .

ان الهرم مثال لتماسك الذات المصرية بما هو بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا .

فى العمارة المصرية ، من مصر ، روح الايمان . يتطلع المصرى الى الهرم فى المحنة .. ويرى السحاب يمر من فوق الهرم .. يتحرك وهو ثابت .. يمثل السحاب الأحداث .. ويمثل الهرم القلب المصرى فى ثباته واستقراره .. ثبات عرفته مصر حين بنت الهرم ورفعت المسلة وهى قاعدة تحلم بالقمة فتلملم نفسها وتجمع اطرافها لتعلو وتنفتح للضياء ..

وتعتنق مصر بعد هذا الاسلام .. وترفع المئذنة على مثال من المسلة . حتى الشموع فى العصر الاسلامى شكلتها مصر على هيئة المسلة أو المئذنة .

وتحتفظ الشمعة بكبريائها مهما بكت . اذا قلبت الشمعة تسقط منها دمعة .. ولكن اللهب يتجه الى أعلى لا الى أسفل !!

تماسك وتمسك بالشعلة .. بالوهج . انها روح مصر ..

ان الهرم حوار بين الانسان المصرى والمطلق . كتلة تطمئنه وسط الفضاء اللانهائى .. كتلة تملأ جزءا من الفراغ ثم عاد الانسان المصرى فلغاها حين صقل سطح الهرم بالطلاء الأبيض استزادة من النور .

وهذه الثنائية فى الشعور عبرت عنها أساطيرنا حين جعلت البطل يقدم قدما ويؤخر اخرى .

ان الهرم مصعد الى الشمس فان (اشعة الشمس عندما تسقط مضيئة بين فجوات السحب فى السماء فانها تظهر كما لو كانت اهراما هائلة الحجم تربط بين السماء والارض . وتقرأ فى اكثر من موضع فى

نصوص الأهرام وصفا للملك الراحل وهو يستخدم أشعة الشمس كطريق صاعد يرقى عليه الى السماء) .

انه معراج للروح الى السماء .. الى نور النور .

ان الهرم يرفعنا من الأرض الى الأفق ، وينتمنا من الوهاد الى اشراق واشراقة القمة .

ولو جاز ان نجارى من يقول ان الهرم قبر لخوفو فان فكرة تمييز القبر ، كانت كومة من التراب توضع فوقه لتدل عليه .

اذن مصر حولت الكومة الساذجة المتواضعة الى احدى عجائب الدنيا السبع .. والوحيدة الباقية . الى الهرم الكبير .

هذه صناعة الثقافة .

هذا فن خلق القيم .

ويكمل سيمفونية الهرم ، ابو الهول .

قرار واستقرار وطمأنينة .

لقد حققوا فيه حبهم للنور .

انه فى هيئته ووضعه من الهضبة يمثل فكرة انتظار مشرق الشمس .

كان ابو الهول ، فى الأصل ، صخرة ضخمة تعترض طريق المصرى الى الهرم فشكلها تمثالا واحال العائق الى فن رائع .

كم تخطت مصر الصعب .. كم اقتحمت العقبات .

ويتصل بالهرم **معبد الوادى** .

ومعبد الوادى قطعة من الأدب المعمارى تقف أمامه فيهول العين حتى يذوب فضولها فلا تنطلع الى الداخل ، ولا تتسلل نظرتها من فتحات النوافذ كالأبنية الحديثة ، فان البناء المهيب يحجب ما بداخله . ان معبد الوادى يلزم الزائر بالوقوف على الباب والصعود البطىء من مدخل ضيق ينفتح بعده على المعبد .. معبد أرضه من المرمر رمزا الى الماء ، وجدرانه من الجرانيت رمزا الى الصلابة والقوة .

ان معبد الوادى يترجم معماريا الهضبة والصحراء ، حين يترجم معبد زوسر معماريا الوادى ذى النبات بلمسة الحنان فيه .

معبد زوسر أو معبد الهرم المدرج ، يمر الداخل اليه بممر ضيق طويل ليخرج الى الرحابة الرحبة فى البناء وفى المكان . هل يوفر الفنان امنحتب للمكان عنصر المفاجأة ؟ عنصر الدهشة الجمالية ؟

هل هو درس نفسى أن الضيق بعده الفرج ؟

والممر الضيق الصاعد ببطء فى المعابد المصرية لون من الادب المعمارى ..

انه تحضير للدخول ، وتحضير للنفس ، وتحضير للصمت ، يفتح بعدها المكان قلبه وجناحيه .

وينشرح الصدر .

وكان الزائر سلم .

... ...

ان الهندسة المجردة Geometry قياس الأرض . ولكن الهندسة المصرية ، اكبر تجربة لتحقيق القيمة ، حين ترتفع الى صفاء النفس .

الهندسة المصرية عليها غلالة شفافة من مشاعر القدسية والرقه الذى هو اناقة حضارية . عمارتها تتحول الى بستان .

ان عاصمتها بمعناها الكبير الجامع أى (منف + عين شمس + الفسطاط + القطائع + القاهرة) أحظى عواصم العالم معماريا باهراماتها ومعابدها وكنائسها ومساجدها وفنونها التشكيلية .

... ...

نعود مرة أخرى الى السؤال التقليدى .

هل الهرم رمز السخرة ؟

انا اراه رمز مصر وحضارتها بفنونها وعلومها ومعتقداتها فى البعث والخلود ، الخلود الذى يقف الهرم شاهدا عليه بشموخه الثابت ، وثباته الشامخ حين يتغير فى العالم كله : الزمان والمكان والناس .

مصر والغزاة

حيث يوجد الكنز ، يكثر اللصوص .

قالوا ان مصر تعاقب عليهـا لغزاة . وقصدوا بهـذا أن يرموا الشعب المصرى بالاستكانة والخضوع ، بل حاول الاستعمار تعميق هذا المعنى فى نفس الشعب حتى يستسلم لقدره فيه .

قضية أو نظرية آن الأوان لكى نناقشها .

ان موقع مصر الجغرافى وخصوبة تربتها فرضا على المصريين أن يدفعوا عنها فى غير انقطاع الهجمات التى تأتيها من الشرق والغرب من اولئك الذين تدفعهم قـوة الحياة فى بيئاتهم الأصلية أو اولئك المغامرين الذين يحلمون بالمجد .

ولكن الزراعة علمت المصرى الثبات كالجذور ولهـذا لا تثيره كثيرا العواصف . كل العواصف تزول ويظل هو الباقى . ان غزاته فى نظره برابرة همجيون أو بداة « محرومون » . وهو اللفظ الذى اطلقته مصر على الهكسوس على الرغم من انتصارهم واستيلائهم على الدلتا . وهى صـفة توحى باعتزاز النفس المصرية بذاتها المعنوية والمادية .. بذاتها الحضارية حتى ولوغلبت سـياسيا .

لم يضع هدرا ، النضج الحضارى الذى استقر فى أعماق الانسان المصرى ، والذى كثيرا ما يكون قد قر تحت قشرة متواضعة أو خشنة أو فقيرة ، ولكن المصرى المتواضع او الفقير يعرف (الاصول) و (العيب). يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

(كان من المستحيل على المصرى ان يجتاز هذه الحضارات التى يكمل بعضها بعضا دون ان يمتص رحيقها .. ومن بين ذلك الرحيق أن

يفرق بين ما هو عابر وما هو دائم ... ومن هنا جاءت صفة الصبر عنده .. وجاءت صفة السكينة والهدوء التى يقابل بها الأحداث عادة لأنه موفق ان المستقبل له آخر الأمر) ...

ان الغزاة فى القديم غزوا مصر بعد أن نعمت طويلا بالحرية والرخاء والفن . والأمم كالأفراد يضعفها الترف . وكل أمة يتعاورها المجد والاضمحلال ... لم توجد الأمة التى اطرد مستواها على وتيرة واحدة ... وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ثم ان النصر فى الحرب لا يدل على افضلية مطلقة ... هل تزن اسبرطة فى التاريخ وزن اثينا وهى التى قهرتها وحكمتها ؟ أين اسبرطة من اثينا فى القديم والحديث ؟ .

ان الذى القى القنبلة على هيروشيما كان يعمل لحساب رئيسه فى أمريكا ، فلا يدل هذا على أن القائد الأمريكى أكفأ من القائد اليابانى .

هذا حين لا تصلح الفاندية بدون غاندى .

ان الفكرة اخلد من العصا .

ان فرنسا هى الأوبرا وفولتير وروسو ... وانجلترا هى بيكون وشكسبير .

الأمم بالرءوس لا بالعضلات .

ويوم يسود الفكر سيبطل عمل الجيوش . ان الذى انهى حرب فيتنام أن وجد بين المجندين الأمريكيين من يقول لماذا ؟ (ليه ؟) .

والذى انهى استعمار فرنسا للجزائر ان قالت فرقة فرنسية أمرت بالسير الى الجزائر لماذا ؟ (ليه؟) .

مثل هذه الاصوات تفيق الطغاة ..

لقد قتلت القوة الغاشمة ارشميدس بخبطة عصا .. وكذلك العالم الفرنسى « لافوازيه » فى لهيب الثورة الفرنسية ...

ان العالم القديم كان اشبه بموجات .... تعلو دولة موجة ، وتمتد ثم تهبط وتنحسر لتأتى وراءها موجة اخرى . وهكذا بدات مصر العرض .

وهى فى جميع الاحوال لم يغب الأضواء عن قسماتها ابدا . لما جاء

الاســلام كان يحمل معنى ونظرية « الأمة الواحدة » (كنتم خير أمة اخرجت للناس) . فكل وال مسلم غلب اسلامه جنسيته ، فلم تحس مصر بالغربة خاصــة بعــد اعتناقهــا الاســلام ثم تحمسـها له وهبتها للدفاع عنه ووقفتها معه وتمكينها له .

وعــدوا على مصر قائمة من أسـماء الحــكام ... ان ابن طولون والأخشيد والمعز وصـــــلاح الدين كل هؤلاء اتخذوها منطلقا وحكموا منها ، وبها قبل ان يحكموها .

حكموا باسم مصر وتوسعوا فى الفتح بطاقات مصر واسسوا الدول يظاهرهم موقع مصر وثروتها وقدراتها الكثيرة مما لم يتوفر لهم فى بلادهم الاصـــلية وبين اقوامهم .... انها عبقرية المكان أو روح المكان بما وهبه من امتياز الموقع وشخصية الحضور فان الوجود فى مصر شىء فى ذاته يمنح صاحبه من طاقة القدرة ما لم يمنحه حتى فى بلده الأصيل . والمثل عندى صـــــلاح الدين ونور الدين فليس الأول بخيرهما ولكنه الأسعد حظا بوقفة مصر معه .. تعرف هذا مصر فضـــــلا عن اعتبار الدين واللغة . ولهذا عندما جاء الأجنبى الحقيقى نابليون لم تطقه فلم ينصرم على وجوده القلق بها ثلاث سنوات حتى كانت أجلته جلاء تاما عن ترابها . وليست مصر بدعا فى هذا فقد استطاعت البابوية أن تحكم اوربا على الرغم من الحدود قرونا بتأثير الفكرة الدينية .

الم يدافع زعماء منا متطرفون فى وطنيتهم متحمسون فى حبهم لمصر عن السلطان التركى باعتباره الخليفة وامير المؤمنين ؟ ...

من يدرى لعل كثيرين نظروا الى ســــليم الأول على انه المنقذ من المماليك ! أو الرمضاء .

وفى تاريخنا ترتسم علامة استفهام كبيرة :

كيف تسقط مصر بنفسها الوالى التركى « خورشيد » ثم تنصب (محمد على) لا (عمر مكرم) !!

اقول :

ان الموقف هنا كان يتطلب معرفة القوى الموجودة فى الســـاحة ووزنها بميزان دقيق . كما يتطلب مهارة فى اللعب بها ، ومعهــا . وقد عرف التاجر المقدونى من أين تؤكل الكتف كما يقولون . ولم يكن علم هذا عند عمر مكرم ، مع انه تاجر أيضا ولكنه ابن بلد طيب .

يضـــاف الى هذا بهرنا التقليدى بالغريب .. ويضاف اليــــه حلمنا الدائم بالمخلص فيشبه لنا ـ بفتح الباء ـ .

وحين يحدث فى تاريخنا ، افراج مفــاجىء ، كأن ننجح فى خلع الطاغية أو الوالى التركى مثلا ، يحدث هذا الافراج عندنا ، دهشــــة قومية تصـــــيبنا باندفاعة عاطفية نحو ما نسميه عادة ، **المخلص** . وفى هذه الاندفاعة ، يندفع بدورهم ، هواة ظهر الموجة ، الى **السلطة** .

وليكن ... ان هناك اناسا عندهم استعداد للحكم ... هل معاوية فى التاريخ خير من على ؟ ان أصحاب القيم عادة لايصلحون للعصا .

وقبل محمد على ، كانت مصر تدفع ثمن المماليك من مالها ثم تنظر اليهم وهم يعتلون الكرسى .. دون أن تعير هذا الذى يحدث وأصحابه، التفاتا ... حين تلتف حول رجل الدين المعتز بنفسه ، العزيز بايمانه، وتسميه (سلطان العارفين) .. **هـــذا هو الســـلطان الحقيقى فى عين مصر** . فعلت هذا مع (ابن الفارض) سلطان العاشـــقين ، وفعلته مع الحسين أبى على وهو السلطان أبو العلا (سلطان العارفين) صـــاحب المسجد العروف فى بولاق . ان السلطنه للمعرفة فى تقدير مصر .

ان الشعب المصرى يعرف أنه على مسار تاريخه كله **هو الحاكم الحقيقى من خلال علمائه وعطائه** .. من خـــلال ســـخطه ورضـــاه على السواء .

بل ليكن الحاكم من يكون فسد أم صلح ما دام لا يتعرض للأرض أو العرض أو الرزق . أما اذا مس أحد هؤلاء فان مصر تتمـــرد عليه كأعصى ما تكون أمة كما يقول الاستاذ العقاد فى كتابه عن سعد زغلول .

وليكن هناك ناس عندهم استعداد أو موهبة الحكم . هل معاوية فى التاريخ خير من على ؟ **ان أصـــحاب القيم عادة لا يصلحون لحمـــل العصا** . لقد رفض كثير من القضــــاة ، القضاء والولاية ومنهم رجلنـــا **الليث بن سعد** . لقد عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضـــاء ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوائبه وحوائجه مجلس الليث التماســـا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه **به امام مصر وفقيهها** . واذا انكر رجلنا الليث من الســـلطان أو القـــاضى أمرا كتب الى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم ، العزل !

لقد كان الليث ينهى عن مدح السلاطين وقد تكفل بمنصور ابن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة أو رهبة .

ان استمرار مصر فى صناعة الحضارة كان فيه رضى لنفسها . فالخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم .. اما الحكم فلم يكن يهمها منه كما قلت الا العدل فيها والتعفف عن اموالها أو عدم الجشع والسطو . كان الحكم فى نظرها مهما بلغ وظيفة ادارية لا فن فيها حتى لتسميه فى سخرية لا تخفى (**الضبط والربط**) .

من أجل هذا كله زهد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسلطات الحقيقية : السلطة الروحية أو السلطة الأدبية والفنية .

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لا سلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف .

ان الواحد من هؤلاء اليدويين (معلم) ، ولمعلميته اصول وتقاليد، وله احترام خاص وسمت معين ، وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية . ودلالة هذا بهر الغالب بفن مصر بهرا يسيل لعابه حتى ليعجز عن مقاومته ... ولم يؤثر عن سليم انه أخذ فنانين وصناعا من مكان آخر فى الشرق كله .

اعتبار آخر ... ان المصرى حريص على ما يملك .. يبقى ويصون . الخبز فى مصر دون سائر البلاد (نعمة) و (عيش) . والمصرى لا يرمى لقمة ... واذا وقعت منه على الأرض ينحنى يلتقطها ويرفعها فى محاذاة عينيه ثم يقبلها ... الماء نعمة والارض نعمة النعم . .. والمصرى لا يبهدل النعمة . ولهذا يفكر الف مرة فى (كيفية) رد العدوان عليه ... ان الروسى يحرق الأرض بعد أن ينسحب منها حتى لا ينتفع بها المغير . **ولكن المصرى فى الغزوات التى ابتلى بها كلها لم يفكر مرة واحدة فى حرق الأرض** ... كيف ؟ انه يعشقها .. لا يهون عليه حرقها ... السلب أهون ولو انه أحلى المرين . انه واثق أنه سيجمع أمره ويستردها ... ومآلها اليه وحده فلا يشوه نصره المأمول باضرار المحبوب .

والمصرى لا يقامر .. حين طلبنا وقف القتال سنة ١٩٦٧ الحزينة كان هم مثقفينا ، القاهرة .. الخوف على كنوز التاريخ فيها ، كما أعلن الفرنسيون ، باريس مدينة مفتوحة .

لكل شعب طريقته فى المقاومة وفلسفته .. الشعب المصرى كان ينظر الى الحاكمين نظرة الشاعر فى أعماقه بقيمته وحضارته وتراثه ووراثاته الى البرابرة الذين لا يملكون الا العضلات . فكان همه كله أن يحافظ على ذاتيته .. على قيمته وحضارته وتراثه ووراثاته باتقاء شرهم أو اعتزالهم لا سيما اذا اتقوا ظلمه ...

والمصرى دعونا نقولها واضحة وصريحة .. **المصرى حكامه لم لم ينصفوه** فالحكم مفسدة للقريب والغريب .. لعل المصرى عند الغزو قال فى نفسه : أيموت دفاعا عن كرسى هؤلاء ؟ من يدرى لعل هذا منبع حكمته التى تقول (ما يموت على السد الا قليل الفلاحة) .

ما دام الشعب المصرى لا يغنم من الحكم مغنما حقيقيا فليتصارع على الحكم المتصارعون أيا كانوا ، وليعكف هو على عمله الذى يحبه ويحقق ذاته فيه .. ان حكمته واقعية لا نظرية وكم فى أعماق البسطاء من حكم ...

فلسفة الشعب المصرى ان يتقوقع على نفسه النفيسة ويصيغ من دموعه فى محارته او عزلته ، لؤلؤة .. فنا وصناعة وطرفا .. يتوارث مهارتها خالفا عن سالف ويعتز بمعطياته فى هذا المجال فيجعل كما اشرت لكل (صنعة) حيا ومعلما .

ان الذى امسك علينا شخصيتنا بعد سنة ١٩٦٧ أننا لم نعتبرها هزيمة أمة .. ولو فعلنا لانسحقنا . ولكننا غسلنا عارها بعد ست سنوات هى فى عمر الأمم لحظة أو بعض ساعة ...

لاكانت سنة ١٩٦٧ ... لقد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة الياسمين .. جرحت السنين فى شيخوخة الآباء ، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء ... جرحت السرور فى القلب والكبرياء .. جرحت الثقة والقدرة والاباء .. جرحت الليالى ... ليالى القاهرة فلم تعد عذبة ولم تعد فاتنة ساحرة ... وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر ، وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ...

ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حائط المبكى .. كانت مصر فى الأعوام الستة تلملم جراحها وتجمع نفسها ، وتستوعب خصائصها فى عملية تحضير للعب الدور الجديد الذى بدا بالعبور .

أين الغزاة ؟

ان مصر لا تموت ..

مصر هـذه ذات الحضـارة كانت شـخصيتها من القوة ، حتى في عصور الضعف السياسى بالدرجة التى فرضت تأثيرها على الآخرين فامتد هذا التأثير جنوبا الى النوبة واوغندا واثيوبيا سواء فى اللغة أو الدين أو الحضارة ، وشمالا الى فينيقية التى كانت تعيش على تقليد مصر تنقل هذا التقليد الى شعوب البحر الأبيض شرقه وغربه .. مع التجارة .

لقد تهافت الاغريق على البلاط الفارسى ، ولكنهم لم يتمكنوا من فرض فنهم على الفرس ولكن مصر وهى فى نكستها السياسية استطاعت ان تفرض على الغالب فنها وطبها وتنجيمها ، ففى أطلال اصـطخر Persepilés الدليل القاطع على هذا القول ففيها استخدمت اشكال العمارة المصرية وعناصرها . وفى مصر شيد (دارا) أثرا منقوشا باللغتين (المصرية والفارسية) يظهر فيه فن فارسى ذو مسحة مصرية ، جنبا الى مع الأسلوب المصرى القديم .

ومصر فى عهد الصـاوى هى التى احتضنت الفن الكلاسـيكى الاغريقى فى مهده ..

وان اقدم التماثيل الاغريقية لتدين لمصر دينا واضـحا تؤيده الروايات الاغريقية نفسها .

وفى كل عصر كانت مصر دائما كما يقول الدكتور مؤنس ، منبع الحضـارة الأفريقية ومصدرها فما اتصل بمصر من بلادها تحضر فى مدارج الرقى ، وما لم يتصـل بها بقى فى مكانه .. فان أهل روديسيا مثلا يعيشـون فى ظروف مناخية ومعاشية تشبه ظروف السـودان الشـمالى ، بل ان بلادهم اغنى وأوفر خيرات وصـلتهم بالهولنديين والانجليز ليست باقصر مدى من صلات أهل السـودان بمصر ومع ذلك فاين روديسيا من السودان .. أين بلد ما زال فى عداد المستعمرات، يجرى فيه الناس على الفطرة ويستغلهم الأوربى كيف شاء من بلد يقف الآن على قدميه ويجرى فى ميدان الحضارة أشواطا ما كانت تخطر على البال.

فاذا لم يكن هذا اثر مصر فاثر من يكون ؟

واذا كان بعض المصريين ابان الحكم البطلمى ، فى محاولة ارتقاء طبقى أو صراع طبقى قد تاغرقوا سطحيا فاصطنعوا الاسماء الاغريقية

واتخذوا الملابس الاغريقية وتكلموا اللغة الاغريقية ، فان الاغريق ايضا قد تأقلموا وتمصروا بالقدر نفســـــه ، فتعلموا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية ، بل اتخذوا اسماء مصرية وعادت مصرية .

ولا ينال من شخص مصر او شخصيتها أخذها بمطلق الأحداث ... لقد تكلمت مصر العربية لأن الاســـــلام كان ينطلق فى المنطقة من (كلية) معينة ... كان (وحدة) تريد أن تأخذ دورها فى المنطقة.. وفى .. التاريخ ومصر قلب هذه المنطقة بلا ادعاء او تواضع ... قلب المنطقة فى العصور القديمة ، وفى المسيحية ... وما كان للقلب أن يغير مكانه فى الاســـــلام ... لقد اخذت مصر دورا منذ عهد عثمان ... ومن لا يغيـــب عن المسرح لابد ان يتكلم لغة الرواية التى تـــدور على خشبته .

لقد تمسكت فارس بلغتها بعد الاسلام وما ذلك الا لأنها بموقعها بعيدة عن الأحداث وعن العيون الا أن تكون مصدر فتنة أو مؤامرة .

ولكن مصر الاسلامية كانت القلب الرائع والنابض للطائر الذى يمتد جناحاه من جنوب الصين الى جنوب اسبانيا .

وهذه (الكلية) فى الحضارات نادى بها أخيرا فى العصر الحديث « سمطس » ... فمصر حين تكلمت العربية لم يحدث فيها (انقطاعية) فى حضارتها كما يقول الاستاذ الدكتور جمال حمدان فى كتابه العظيم (شخصـــية مصر) مؤيدا راى توينبى فى المصريين المحدثين ومغايرتهم للقدماء .

أن لغة الحروف ليست كل الصلة بالماضى .

هناك لغة التشكيل التى امتدت عبر العصور موحدة الأسلوب والنبض والأداء فى المعبد والكنيســـــة والمسجد .. فى النقش والحفر والنسيج والنجارة ، بل فى عادات ونظام الحياة .

أليس هذا كله امتدادا واستمرارا ؟

على أن مصر كانت تنظر الى اللغة باعتبـــارها اداة فقط . وفى العصر اليونانى الرومانى حين كانت اللغة اليونانية لغة عالمية ، فى ذلك الوقت الف علماء مصر باليونانية حتى ادخلهم البعض بعد هذا فى تراث اليونان العلمى . ألف علماؤنا باليونانية دون غضاضة كما يؤلف المثقفون اليوم بالألمانية والانجليزية حين يريدون تعريف الهيئات العلمية المعنية بموضوعهم ، وجهة نظرهم او عطاء جهدهم فى هذا الميدان .

هذا حين كانت تحرص مصر على العادات والتقاليد واسلوب العيش والعقائد . وحين لا يصدمها احد فى هذه المقدسات فهو من غضبها بمنجاة .

يقول الإستاذ العقاد فى كتابه سعد زغلول : (انما هى امة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل واصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ، ثم هى امة ذات ارزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح الأرض .. والسماء والعوارض والأجواء فاذا دعاها الحاكم الى حرب لا تعنيها فذلك شأنه وليس بشأنها وتلك خسارته وليست بخسارتها أما اذا أصيبت فى عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهنا يستعصى قيادها كأشد مايستعصى قيادة أمة) .

ثم هناك عامل اجتماعى سياسى وهو تعريب الدواوين فى أواخر القرن الأول الهجرى مما اضطر الموظفين الأقباط الى تعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم وتبع هؤلاء أهلوهم ومن يعيشون فى كنفهم .

وتشير بعض الكتب الى أن بعض الأقباط ــ فى العصور المتاخر ــ درس فى الأزهر تحت اسم معدل . وسواء اصح هذا أم لم يصح فان دلالته تشهد برغبة الأقباط فى التكيف الكامل للاسهام فى الحياة المصرية الجديدة تفاديا للتخلف .

هذا فضلا عن الثنائية اللغوية التى كانت موجودة فى مصر . فقد كان الصراع بين المذاهب الدينية يقابله صراع آخر بين القبطية والاغريقية يكافح فيها الأنبا شنودة (١) كفاحا مستميتا من أجل القبطية .

وسط هذه البلبلة لم تكن مهمة اللغة العربية أو أى لغة حاكمة بله دينية صعبة فى أن تتسيد الموقف ــ ولو فى ونا، وبطء ــ على الرغم من حركة تكيف موظفى الديوان من الأقباط مما سبقت الاشارة اليه ــ كما حدث فى مصر ، والمغرب والأندلس وان كانت فى مصر

---

(١) كان زعيما شعبيا تزعم حركة محاربة اللغة اليونانية فى مصر : فكان يكلم الاقباط بلغتهم القبطية لا باليونانية لغة الحكام . ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطى وقد تخلف عن جهاده الدينى والقومى تراث باللهجة الصعيدية التى كان يؤثرها . وعلى يده هزمت اللغة القبطية ، اللغة اليونانية وتراجعت الأخيرة حتى أن العرب عندما فتحوا مصر كانت اللهجة الصعيدية هى لغة الأدب القبطى عامة .

بمقاومتها الظاهرة والخفية ، ابطأ انتشارا كما شـــهد بذلك العرب انفســـهم فى كتــاب (القضـــاة والولاة) ويؤيد هذا ما رواه الطبرى فى حوادث سنة ٢٠ هـ .

قد يقال أن (فارس) حافظت على لغتها ولكن فارس لم تتعرض للضغط الذى تعرضت له مصر التى كان كل وال همه أن يستقل بها حتى لقد نقل المعز رفات آبائه فى طريقة اليها قبل ان يراها مما يكشف عزم الاستيطان عنده لما عرف عنها من طاقات المكان والانسان هذا حين لم يتهافت العرب على فارس بدليل أن الدعوة ضدهم وأن تمسحت بالعباسيين ، استطاعت أن تنمو فيها ، بل ان النوبة التى لا تبلغ شأو فارس فى ماضى السلطان استطاعت أن تحتفظ بلغتها لعامل البعد ، أيضا ، عن دائرة الاهتمام .

لقد سعى عمرو بن العاص بدالة النســبة الى قريش ان يقصى الأمويين عن الخلافة ليستحوذ عليها فلما أيأســه النسب لرجحان بنى أمية على بنى سهم فى العصبية القرشية قال قوله المأثور عنه :

(ان ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة) .

على أن بعض العرب تعلموا القبطية ، بل تخاطبوا بها كالقاضى خير بن نعيم . وقصص فهم العرب للقبطية متعددة كقصة ابن حديج وقصة محاكمة البطريق يوســـف سنة ٨٥٠ م . يقول د . هول :

(ولم يكن فى الامكان احداث مثل هذه الانقلابات فى العصـــور القديمة بمصر) .

يقصد عصور القوة ولكن ماذا يصنع الشعب وقد وجد نفســه بعضه يتكلم اللغة الجديدة (العربية) وبعضه يتكلم القبطية . لقد رأى أن الحل ــ العملى ــ هو فى التقارب والتجانس حتى لا يفقد وحدته . **والوحدة خط عريض من خطوط الشخصية المصرية** فى فنها واســلوبها فى الحياة ونظامها فى الحكم ونزوعها فى العادات والتقاليد .

ولما كانت اللغة العربية فى ذلك الوقت ــ بعد بضعة قرون من الفتح ــ قد دخلت الدواوين والمدارس كما دخلت الكثير من البيــوت فقد أخذ الباقون يتعلمونهــا مع محاولة المجمــوع **صبغها بالصــبغة المصرية كالعادة .**

ان كثيرا من الألفاظ فى اللغة العامية المصرية واسماء المدن الفاظ قبطية . وكان بعضها قد اختفى تسعة قرون بفعل اليونان الذين وضعوا

لها أسماء يونانية وكان اختفاءها البيات الشتوى الذى تلجأ اليه مصر حتى تستجمع قوتها فتنتفض من جديد . ان مصر لا تستسلم أبدا وان طال المدى .. ان ذاتها لا تبلى . ان طريقتها لأ تمحى . قد تتناسخ ولكنها لا تنسخ .

وليس الالفاظ فحسب ، بل ايضا طرائق التعبير والمصطلحات وتركيب الجمل ، **فالنفى والاستفهام** فى العامية يجرى على اسلوب اللغة القبطية فيهما . كما يطابق نطق بعض الحروف العربية نفسها ، نطقها فى القبطية ، وكذلك الحركات .

وما زالت العامية المصرية التى هى لغة الشعب .. لغة الكثرة.. لغة الحياة **اليومية فيها الكثير من اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية** التى عاصرت دخول اللغة العربية والتى هى امتداد اللغة **الهيروغليفية** . **وعامية مصر هى اعذب العاميات فى الاقطار العربيـة** واسـهلها فى الفهم واصحها ايضا ، وايسرها واكثرها شهرة بما ذاع من غناء مصر واذاعاتها وفنونها فى السينما والمسرح .

هذه هى مصر وليسـت كما يقول رينـان فيما رواه الدكتور حسين فوزى ، فى حديث له عن احياء البحر الأحمر والبحر الأبيض ، ومضمونه ان مصر حينما يتعين عليها أن تلعب دورا يتصـل بالنفع الانسانى العام تكون الضحية الدائمة ... حيادها لنفع غيرها والروح الوطنى مقضى عليه فيها وسـوف تحكم مصر بمجموعة دول متحضرة وبالاستغلال العلمى المنظم للعالم سـوف توجه الأنظار الطموح الى وادى النيل !!

لا رد لنا على رينان فالعالم مملوء بعقول رينانية . كان **الغزالى** يقول : ان القلم على روعته ، اروع منه اليد التى تمسك به ... واروع منه الشـخص المحرك الذى يملى عليه ... وانطلاقا من هذا المنطلق الحكيم للامام، نقول ان أروع ماشيدته مصر : **((الشخصية المصرية))** . التى استوعبت الغزو امتصته .. أو دحرته . استعلت عليه فى الحالين . وفى كل مرة تمضى فى رسالتها من جديد ...

ومن هنا يجب ان تكون دعايتنا فى الوقت نفسـه **دعوة لا قضية** ... **أن من يكتفى باعـلان انه مظلوم** ، متسـول أنصاف لكن قيمتنـا فى استيعاب قيمتنا الحضارية .. **فى فهم دورنا المعطاء** .. وكنه العطاء الجديد الذى سيضيفه .

واستيعاب الماضى تحضير للعب الدور الجديد فى عملية صعود الى المسرح ثانية .... استيعاب الماضى بوصلة قومية ترشدبها الخطى وتعصمها من الضـــلال ...

لقد دانت مصر بالاسلام وتكلمت العربية وهى نقطة تحول مست القلب واللسان ولكنها لم تمس الحياة المصرية اليومية بمواضعاتها وتقاليدها .. **لم تمس صميم الجنس المصرى فان** الاختلاط ، والتزاوج والانصهار كـان **نقطة فى محيط** .. واذ تدخل مصر فى الاسلام تعمل الشخصية المصرية عملها فاذ بمصر تصبح مع الزمن دون سائر البلاد الاسلامية بما فيها الحجاز مهد الاسلام ومهبط الوحى ، **قاعدة القوة الاسلامية قاعدة انطلاق الاســـلام وامتداداته واذا بمصر تحمل عبء حماية الاســـلام والخلافة والثقافة العربية** .. بما فيها من وراثات حضارية تدفعها ولو تلقائيا الى المحافظة على التراث فحين ســقط المشـــعل من يد اثينا واسبرطة رفعته مصر وحين وهنت بغداد انتقل مركز الثقل الى مصر ، بل كانت مصر تنافســـها حتى فى زهو عزها ان أكثر من نصـــف المخطوطات العربية فى مصر وحدها والباقى موزع على بقية العالم الاسلامى شرقا وغربا وهذا الاخير لم تبعه مصر ولكن غيرها تاجر فيه وقبض الالوف بما تشهد به مقدمات فهارس المخطوطات فى مكتبات اوروبا وأمريكا . لقد انقذت مصر الاسلام فى الصـــوارى وحطين وعين جالوت من مواقعه الحاسمة ثم راحت تجمع ما نجا من تراثه من التتار وصانته ثم آوى الاسلام منها الى مرفا أمين مرة رابعة عندما انحسر عن الأندلس والمغرب أمام المد المسيحى .

ولقد ضاع الكثير من معالم تراث حضـارة الاسلام من معظم البـلاد الاسلامية الا مصر التى احتفظت بجانب كبير من هذا التراث الثمين ، بل ان ما احتفظت به **ينفرد بمـزية ذات قيمة تاريخية** اذ تكون الآثـار الاسلامية بمصر (**سلسلة متماسكة الحلقات تنتظم العصـــور المختلفة للحضارة الاسلامية**) .

وحفظ مصر للتراث الاسلامى **له دلالة معنوية حضارية** فلم تكن لتحتفظ به لولا شعورها الاصيل بالتراث وبالقيم الفنية لسـابقتها فى الحضارة وطول ممارستها لها . لهذا سبقت مصر البلاد الاسـلامية فى الكشف عن التراث الاســلامى وتجليته وصيانته بالتقوية والاســتكمال حتى يبدو كما تركه صانعوه **المصريون ، مســلمين واقباطا** فى العصـــور الوسطى ..

بقيت الحياة اليومية المصرية كما هى الى يومنا هذا **بعاداتها فى الميلاد والأعياد والوفاة** . ان عادة **تلقين الميت** ما يقوله ، **وسعف النخيل** ـ المسيحية حد السعف ـ والمسلمون يحملونه الى قبور موتاهم . **والاخمسة** واليوم الخامس عشر **والأربعين** .. كلها عادات مصرية مازلنا نمارسها الى اليوم مسلمين ومسيحين ولا وجود لها فى غير مصر .

والبصل قرب انف المريض فى بداية الربيع وعندما يولد الطفل وهكذا نفعل نحن فى شم النسيم وعند الميلاد . ويبدو أن اليونان اخذوا عن مصر البصل فيما اخذوا حتى أوصى سقراط باكله فى احدى الحفلات .

وليلة النقطة : هى الليلة التى تنزل فيها دمعة ايزيس فى النيل فيفيض النهر من الدمع المسكوب .

وكعك العيد المستدير المنقوش بطريقته المعهودة هو نفسه الكعك الذى كان يقدم قربانا لايزيس فى عيدها وكانه قرص الشمس الذى اتخذه اخناتون شعارا .

والأم المصرية فى الريف ، بل والمدن حين يقع ابنها على الأرض فتقول ـ اسم الله على اختك قبلك ـ توددا **الى ـ القرينة** ـ حتى لا يصاب ابنها بسوء امتداد لاعتقاد المصريين بأن لكل انسان قرينا .. **وعمل عروسة وتخريمها بالدبابيس** لتفقأ عين الحاسد .

وفى الصعيد من مناداة التحبيب للصغير قول الوالدات تعال يا (با) و **(البا)** بلغة قدماء المصريين هى (الروح) كما وردت فى النصوص الدينية وفى نصائح بتاح حتب .

وعدم ايذاء الحيوانات وخاصة القطط ليلا هو امتداد لايمانهم بالتقمص والتناسخ .

وليلة الحناء والصباحية والنقوط والسبوع .

مارست مصر هذا كله وتمارسه لاتزال فى حضرة الاديان السماوية بقدرة شخصيتها على الامتداد والاستمرار .

ولعل بلدا من بلاد الأرض كما يقول الدكتور حسين مؤنس لا تصدق على حضارته **صفة الاستمرار** كما تصدق على مصر ، فان مصر المكتملة المتحضرة قامت منذ خمسة الاف سنة وما زالت هى بعينها اليوم ، لم يتغير فيها الدين طول هذه الاحقاب الا مرتين ولم تتغير فيها اللغة الا مرتين أيضا ، على حين أن بريطانيا مثلا لا يرجع تاريخها الى ابعد من الفى سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع

مـــرات على الأقل ، واســـبانيا يرجع تاريخهـا الى الفين وخمسمائة سنـــة تغير الدين خلالهـا ثمـانى مرات واللغة ســـت مرات . اما جنسنا فلم يتغير فى جملته خـلال هذه الأعصر **الا تغيرات طفيفة** فى حين ان **بلدا** كايطاليـــا تعاقبت عليه اجناس كثيرة غيرت عنصر الســـكان تغييرا تاما اكثر من مرة ..

يقول بترى فى كتابه (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) عن الشـــعب المصرى : (شـــعب مجد قوى ، يعتوره الضعف كل بضع مئات من السنين ، سنة الله فى خلقه ، فتتعرض بلاده للغزاة من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ، فيتعرض لمؤثرات مختلفة ولكنه على الرغم **منها ظل يحتفظ بطابعه وصفاته القومية ، وشـــخصيته الواضـــحة العالم .**

وخلاصـــة القـــول ان المناقب العالية ، والصفات الحميدة التى وهبها الله لهذا الشـــعب المجيد ، وكذلك ثبـــات دعائم حياته ، واستمرارها ووفرة الكنوز التى تدل على امجاده التاريخية .. كل ذلك خليق بأن يجعل **منه اهم واعظم مجتمع انسانى جدير بالبحث والدراسة** ســـواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو من ناحية الاختراعات والابتداعات التى قام بها .. فاقتبســـها العالم المعاصر ، وعبرت اشراقاتها البحار والمحيطات الى العالم الجديد !)

يقول اربرى A. J. Arberry (أن مصر تقوم من وســط العالم الاسلامى فى الصـــميق ومن ثم كانت لها **صـــلاحية الدور القيـــادى فى الحركات الاسلامية بما هى مهياة له** .. تماما كمـــا فعلت فى العصـــور الاغريقية والمسيحية اذ كانت بمثابة مستودع تلقى فيه افكار وثقافات الشرق والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من أن مصر لا تزال تمثل هذا الدور . تقدم الغرب الى الشرق الاســـلامى ، وتقرب بنفس القـــدر والأهمية الشرق الاسلامى الى الغرب .. كان هذا ولايزال عمل مصر الأرفـــع وفى هذا العمل **لعبت مصر دورا لا ينكـــر ولا يجحد فى مقدرات الاسلام**) .

... ...

يقول العالم الأثرى الاستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه « طرز العمارة الاسلامية فى ريف مصر » :

(ولقد أدت مجموعة المساجد المبعثرة فى انحاء الريف رسالتها الثقافية بجانب الأزهر وغيره من المدارس وذلك فى مساجدها الجامعة

ثم فى مدارسها التى انتشرت فى ربوعه وخاصة فى الصـــعيد ، وقد كان عامرا بالمدارس ودور الحديث ، وفيها تلقى العلم وتخرج صـفوة من العلماء والشعراء . وكذلك الاسكندرية فقد كانت عامرة بالمساجد والمدارس والربط .

وفى الوقت الذى ارتفعت فيه النجارة فى الدولة الفاطمية لانرى بينها ما يماثل دقة الحفر فى حشوات منبر مســـجد الصالح طلائع بقوص (ســـنة ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م) والدقة والجمال فى ظهر جلسة الخطيب به ، فان **لها طابعا خاصا انفردت** به وفى الوقت نفسه ، فهو منبر فريد تنوعت زخارفه تنوعا غريبا) .

ان الدقة **والتفرد والتنوع فى الفن مهارات مصرية قديمة** وهى هنا وفى العصر الذى يتحدث عنه رجلنا الأثرى حسن عبد الوهاب وفى مثل هذه الظروف **لون من مقاومة مصر ومصاولة** شخصيتها التى تأبى ان تماع أو تنصاع بل تتماســك متميزة تعكف على الفن ــ وهو وحـده الباقى ــ فتخلد نفسها فيه وتعكس ذاتها فى آثاره حين يفرح الدخيل بالحكم زمنا ثم يمضى **وتظل مصر هى مصر . هى الباقية** .

وليس الفن وحده .. **حتى رهبانية آباء الصحـراء فيها مفتاح من مفاتيح النفس المصرية** من ناحية تعلقها بالمطلق : فالصـــانع المصرى والفـلاح المصرى ، عملية العكوف على عمل .. على شىء .. وعملية الخلوص الى حقل .. الى زرع .. هذه هى عملية الراهب المصرى فهو الآخر « يزرع نفســـه » .

على ان هناك نوعا من الحكم تمارســـه مصر ، فى انتصـــار ، ابان عصور الضعف السياسى ذلكم ، **هو الســلطة الروحية** . وهذا اللون من السلطة يمثله الكهنة قديما الذين قاموا بدورهم فى المقاومة المصرية حين خلق بطليموس ســوتر عبـادة سرابيس (أوزوريس . ابيس) استرضـــــاء للمصريين واعترافا بقيمهم العقـائدية فلقيت (العبادة الجديدة نجاحا بين الأغارقة ولكن الكهنة المصريين الذين كانوا مسيطرين على هذا الميدان مدى ١٢٠٠ عام رفضوا هذه البدعة فباءت بفشل سياسى مريع) . **كما يقول توينبى** .

ويمثله فى المســـيحية **فالاســـلام انطونيـوس** الذى اقام أوربا واقعدها فى العصر المسيحى ، **وذو النون ، والليث بن سعد ، والبويطى** الذى تذكرنا صلابته امام المامون صلابة سابقة اتصف بها ضحايانا فى المسيحية امام طاغية الـروم هـرقل .. صـــلابة **الصـــف بها مارمينا**

العجايبى امام والى الروم بالاسكندرية .. الاصرار نفســه من جانب مصر والمســاومة من جانب الطغاة الذين يتهددونها وهم يخافونها فى قرارة نفوســـهم .

لقد امتحنت مصر فى المسيحية .. ثم فى الاسلام .. امتحنت فى صبرها الصابر .. واصرارها العتيد العنيد الفـدائى واحسبه يتعمـد الفدائية لاعطاء التاريخ المصرى ذخرا من بطولة يعيش عليها . لقد أكره المأمون هرقل الاســلام ، فقيه مصر البـويطى على القول بخلق القرآن فلم يذعن ، ويحمل فى غل الحديد الى بغداد فلم يقر ، ويطرح فى السجن مقيدا الى أنصاف ساقيه مغلولة يداه الى عنقه ولكنه لا يتطامن ! ويموت على هذه الحال كما مات ضحايا هرقل فى المسيحية لينتظم منهم جميعا مسيحيين ومسلمين على تتابع الدينيين **موكب الأحرار المصريين** . يرتاد لنا كلما اغطش ليل طريق الحياة الكريمة على ضـــوء كلمة البويطى وقد حمل فى أثقـال الحديد من مصر الى بغـداد (لئن أدخلت عليه ــ يعنى الخليفة ــ لأصــدقنه ولأموتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم) .

لم يمت فى عداد الرجال أعلام الانسانية ، البويطى ، ولكن مات المأمون .

ان الحاكم فى كثير من البلاد الأخرى من جنس مغايـر **ولا يعنى هذا تبعية البلد له بل تبعيته هو لها ولو تبريرا لوجوده .**

ان انجلترا عائلاتها المالكة من الخارج تستجلبهم استجلابا حتى ان جورج الأول كان لا يعرف الانجليزية لغـة الشـعب الذى جيء به ليحكمه . وكان جورج الأول يتجنب حضـــور جلســـات مجلس الوزراء ــ فقد كان الملك يعتبر رئيس مجلس الوزراء ــ لهذا السبب . ولما طال تخلفه عن الحضور بحث عن مخرج فاختار من بين الوزراء وزيرا ســـماه الوزير الأول ينـوب عنه فى حضـور الجلسات ويكون حلقـة الاتصــــال بين القصر والوزارة . وبهذا « سقط » على الأيام حق الملك فى رياســـة جلسة مجلس الوزراء .

ومن هنا يسـمى رئيس الوزراء فى انجلترا : Prime Minister (١)

فمصر لا يحسـب عليها أجنبية الحاكم بالصورة الشـاملة التى تمس ذاتيتها أو استقلالها الحقيقى .

---

(١) تستجلب انجلترا الحاكم من دم ملكى محافظة على الارستقراطيه .. على الدم الأزرق .

ان ابن طولون والاخشيد وكافور والمعز وصـــلاح الدين هؤلاء حكموا باسم مصر ، وتوسعوا فى الفتح بطاقات مصر ، واسسوا الدولة بظاهرهم موقع مصر وثروتها وقدراتها الكثيرة مما لم يتـوفر لهم فى بلادهم الأصلية وبين اقوامهم . انها عبقـرية المكان بما وهبه من **امتياز الموقع وشخصـية الحضـور** فان الوجـود فى مصر **شىء فى ذاتـه** يمنح صـاحبه من طاقة القدرة ما لم يمنحه له حتى بلده الأصيل . والمثل عندى صلاح الدين ونور الدين فليس الأول بخيرهما ولكنه الأسعد حظا بوقفة مصر معه .

ان البلد ليس الحاكم فحسب .. بل السماء والأرض والزراعة والصناعة والتجارة والعمارة والفن والعلم والعادات والتقاليد والروح والطـابع وهذا كله ظل مصريا خالصـا متميزا بل مؤثرا فى غيره بقوة شخصية مصر وغلبة طابعها ، حتى سليم الأول افتقر وهو الغالب الى النفائس الحقيقية فانقض عليها فى مصر كما ذكرنا ، وحمل الى الاستانة ما استطاع الوصول اليه منها .

ان المقاومة المصرية تكيفها عوامل كثيرة وتقف وراءها اعتبارات شتى ... هناك عامل التغذية : كل دخيل كان ينقض على الخير المصرى كبقرة حلوب يعصرها ويستنزفها . والانسان حين يقاوم أحد اثنين اما بالجسم او بالروح . والجسم المصرى بعد العصر الفرعونى ضعيف لأنه مسلوب الغذاء فكان طبيعيا أن يقاوم بالروح لا سيما وأن وراثاته الروحية ترجح هذا الاختيار .

وتاريخنـا يقول أن المقاومة العارمة السـاحقة للاعداء كانت مقاومتنا للهكسوس وللفرس أى فى العصور الفرعونية .

ان ثورة ١٩١٩ تقتـرن دائما فى عين المؤرخ بالـرواج المادى عقب الحرب العالمية الاولى ان الموفور لا يقبل الضـيم ... والوفرة ثقة وطموح ....

حتى اذا جاء اليونان توددوا الى مصر منذ اللحظة الأولى حتى أن اعداء الاسكندر كانوا يعيرونه فيما يحسـبون بانه ابن امون كما يدعو نفسـه . والحضارة الهلينية التى استحدثها اليونان فى مصر هى حضارة مستمدة من الحضـارة الفرعونية أو هى انعكاس لها حتى الدين قام على عقيدة مصر فى أوزوريس ، ثم ان اليونان اختاروا الاسكندرية وهو عين ما يطلبه الشـعب المصرى من بعد الحـاكم عنه فلم يجد حافزا

ملحا لمقاومتهم . وهناك رأى يلمح البيئةالجغرافية فيقول : ان جغرافية مصر جعلتها كالزجاجة والقاهرة عنقها فمن يستولى على القاهرة يمسك بعنق الزجاجة ويتحكم فى مقاومة الاضطراب داخلها . فاذا راعينا بدائية المواصلات فى تلك العصور قدرنا تعذر الاتصال وانتقال الاخبار . فالشعب فى الريف والصعيد والمدن الصغيرة لا تصل اليه اخبار الحاكم فان وصلت ، تكون قد فقدت عنصر الجدبة والاثارة .

أين الأمس من اليوم فاخبار القاهرة تسمعها اسوان فى الراديو معها فى الوقت نفسه لهذا لم يكن غريبا أن يكون الحاكم فى واد ، وسواد الشعب فى واد .

ان العصور التي توارت فيها المقاومة واعنى المقاومة السياسية هى العصور التى اقترن فيها السلطان الزمنى بالسلطان الدينى . فالعرب سهل مهمتهم اقتران الفتح العربى بالاسلام واقتران اللغة العربية بالقرآن • ومع هذا قامت الثورات ضدهم ، وقصة المامون مع مصر معروفة ••• حتى الترك بغوا وطغوا وتجبروا فكانت غضبات الشعب تتكسر على صخرة الدين واقتران الخلافة فى الأذهان بالاسلام حتى ذهب قوم منا بأن الخروج على الأتراك خروج على الخلافة اى خروج على الدين •

ولقى رفاعه الطهطاوى ومحمد فريد ولطفى السيد عنتا شديدا فى الدعوة الى المصرية الخالصة • ولأمر ما اشتدت مقاومتنا للفرنسيين والانجليز ... وليست مصر بدعا فى هذا فقد استطاعت البابوية أن تحكم اوربا رغم الحدود قرونا بتاثير الفكرة الدينية .

ان تجريد الشعب المصرى من السلاح قرونا طويلة صرفه عن الحكم الذى يستلزم قوة ضاربة لأن مهمته الضبط والربط وحفظ الأمن . لهذا بين اسباب اخرى ، أختار عمر مكرم والعلماء (محمد على) لأنه ضابط فرقة وراءه جند وسلاح .... ولم ينصبوا واحدا منهم لأن الشعبية وحدها لا تكفى مع قيمتها الكبيرة حتى أن الحاكم ولو كان طاغية يتلمسها ويدعيها .

وقد فطن الى معناها محمد على منذ اللحظة الأولى فاستكتب العلماء طلبا الى الباب العالى يعلن اختيارهم له وتأييدهم حكمه .

وهناك ظاهرات قد تبدو بعيدة عن موضوع المقاومة المصرية وهى منه فى الصميم . فازدهار الأدب الشعبى فى مصر بالتشكيل والتحوير والخلق والنماء لون من مقاومة الشعب المصرى فى ذلك الحين .

على ان احتفاظ مصر بطابعها الأصيل حين تشكلت انجلترا او غيرها ، **نوع عزيز من المقاومة** . يقول سير (ارنست باركر) فى باب القومية على ضوء التجارب العصرية : (ليست الامة حقيقة بدنية من دم واحد ولكنها حقيقة عقلية أو نفسية من تراث واحد) .

ما احوجنا الى وقفة هادئة نستخلص فيها حقائق ناطقة من كل ما سبق .

من الباقى :
العلماء أم الملوك ؟
الخليفة المتوكل أم ذو النون ؟
الامام الليث أم خليفة بغداد ؟
الشعب المصرى أم المماليك ؟
الشعب المصرى أم سليم الأول ؟

العلماء والملوك :

قال الجبرتى فى تاريخه : اصناف العدل من الخلائق خمسة :
(١) الأنبياء
(٢) العلماء
(٣) الملوك وولاة الامور اذا عدلوا !!
(٤) أوساط الناس
(٥) القائمون بسياسة نفوسهم .

وفى الجزء الثانى يقول الجبرتى :

(صلاح الملوك تابع لصلاح العلماء . وفساد اللازم بفساد الملزوم فما بالك بفقده . والرحى لا تدور بدون قطبها) .

وهذا فى نظره بحق وراثة النبوة لأن العلماء امناء الله فى العالم . لقد ترجم الجبرتى فى الجزء الأول من تاريخه للامراء والمقصود امراء المماليك فاذا بأيامهم كر وفر .. هروب ووثوب .. غدر وقتل .. ولهذا نجد الجبرتى يقول عن الاستثناء من هذه القاعدة (مات على فراشه) . حتى اذا اترعوا كالوحوش الضارية من الدماء المسفوحة كفروا عن

جرائمهم ببناء المساجد ولهذا نجد اكثر العصـــور بناء للمساجد ، عصر المماليك والاتراك ...

وحين يصف الجبرتي نهـاياتهم بالقتل والفتك يقـول عن خاتمة حياة العلماء :

(مات) الشـــيخ الامام الصـالح عبد الحي بن الحسن بن زين العابدين بن الحسين البهنسي المالكي نزيل بولاق ... اخذ عن .... وصلى عليه بالجـامع الـكبير في مشـهد حافل وحمـل على الأعنـاق الى مدافن الخلفاء قرب مشهد السيدة نفيسة .

ومات الشيخ امام السنة ومقتدى الامة عبد الخالق ... وصلى عليه في الأزهر في مشهد حافل ودفن بالمجاورين .

وبعض العلماء وهو الشيخ القناوي كان يوصف بأنه (سقف على مصر من نزول البلاء) جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ويصف الجبرتي الشيخ محمد الزهار بقوله :

(كان على وجهـه قنـديل من النـور .. وله صـدقات خفيـة وظـاهرة ... وكان راتب بيته من الخبـز كل يوم نحـو الأردب . والطاحون دائمة الدوران ليـلا ونهـارا . ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والسـتون .. وشـاع ذكره في أقطار الأرض .. وأقبـل عليه الوافدون بالطول والعرض ، وهادته الملوك وقصده الأمير والصعلوك فكل من طلب شيئا من أمور الدنيا أو الاخرة وجده ، وكان رزقه فيضا الهيا ...) .

انها السلطة الروحية التي يعتز بها الشعب المصري ويسـتطيع سـاعة الجد ان يعلو بها على السـلطة الزمنية التي لا يعنيه منها الا العدل ...

والجبرتي في تاريخه كان يمثل نبض الشعب المصري و (رؤيته) للعصر ورجاله ... وهي رؤية صادقة .

ولعل المقارنة بين الملوك والعلمـاء لا تبلغ عزها ، مبلغها في موقف الشيخ العز بن عبد السـلام من المماليك وهم ملوك عصره . فقد نظر اليهم من محرابه فلم يثبت عنده انهم احرار . وصرح بوجوب بيعهم وضم ثمنهم الى بيت مال المسـلمين . وتثور ثائرتهم . ولكنـه لا يأبه لهم ويصر على موقفه . وبين ثورتهم واصراره أحداث لم تزده الا رسوخا وشموخا .

ونادى سلطان العلماء على الأمراء اى المماليك المجلوبين واحدا واحدا .. وباعهم واحدا واحدا وقبض بيد مصر ثمنهم وضمه الى خزائنها .

وهكذا تبلغ شجاعة الرأى فيه ، قمة ذروتها فى انسان ..

انه سلطان العلماء الذى يتولى الملوك الوساطة عنده للسلاطين ، بغية ان يهادنهم ، فقد حدث ان شفع عنده الملك الكامل للسلطان الأشرف حتى قبل اعتذاره .

وحين اختار جوار الله وخرجت القاهرة فى وداعه ، قال الظاهر بيبرس لبعض خواصه (اليوم استقر امرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك منى) ...

تزول العروش واصحابها ويبقى للتاريخ وللشعوب عطاء العلم وسلطان العلماء .

الخليفة المتوكل وذو النون ـ قصة

السنة : ٢٣٢ هـ

الخليفة : المتوكل

الوالى فى مصر : عنبسه بن اسحق الضبى (٢٣٨ هـ) ... اسم من اسماء وهو على كل حال آخر وال عربى على مصر .

ميزانية الخلافة : اى ما تحصله من اموال من اقاليم الشام ومصر والحجاز واليمن ، عدا اقاليم المشرق ، ٤،٨١٧،٠٠٠ دينار .. تدفع منها مصر فيما ذكره ابن خلدون ٢،٩٢٠،٠٠٠ دينار .

والدينار يساوى ١٥ درهما فى ذلك العصر غير الغلات والعينيات .

كان الخليفة فى بغداد يملك هذه الملايين التى يدفع الشعب المصرى وحده نصفها من عرق الكادحين ، ويملك الخليفة مع المال ، الحياة والموت فيعطى الف دينار لشاعر يمدحه ، ويأمر السياف بقطع رقبة عالم يخالفه فى الرأى ! ومع كل هذا الجبروت كان خائفا مذعورا يتربص به اقرب الناس اليه .. وانتهى امره بأن قتله ابنه المنتصر (فكان الموتور بالدم واتره) . كما يقول البحترى .

حين كان هذا يجرى فى عاصمة الخلافة ، كان ذو النون فى مصر يضع اسس التصوف الاسلامى .

وعذب ذو النـون فيمن عذب من رجالنا عندما امتحنا (بخلق القرآن) .

واستمرت مصر فى اثراء الدين والعلم والفن ... واستمرت الخلافة ، بعد المتوكل مشغولة (بخلق القرآن) الذى انزل هدى ورحمة للناس ونورا يسعى بين أيديهم لا سيفا مسلطا على أعناقهم .

فى عهد المتوكل كان الشعب المصرى يبنى مقياس النيل فى الروضة .. ويضيف اليه مع القيمة العلمية فى الرصـد ، قيمة الفن فى نقشه بالآيات الكريمة من اجل النيل المبارك شغل مصر الشاغل والحب الكبير فى قلب الشعب المصرى .

وهكذا كانت مصر تابعة سياسيا للخلافة ولكنها حضاريا غلبتها بالرأى ، وبذتها بالخلق والفن والعلم ....

وكم بين صناعة الحكم وصناعة الحضارة .

الامام الليث والسلطة الروحية

السـنة : ١٣٦ هـ

الخليفـة :ابو جعفر المنصـور .. احد خلفاء كثيرين وان كان اقساهم باستثناء اخيه عبد الله السفاح .

الوالى على مصر : صالح بن على العباسى .

وقبل ان يكون صالح بن على العباسى واليا ، عرض حكم مصر على الامام الليث بن سعد « الامام الليثى » احد افذاذ معدودين فى حياة الشريعة الاسلامية فرفض كما رفض القضاء . ولكن السلطان والقاضى كما اشرت ، كان كل منهما يغشى فى نوائبه وحوائجه مجلس الليث بن سعد التماسا **للرأى او التاييد** فاذا استحقه ، جاد عليه به امام مصر وفقيهها ... واذا انكر رجلنا الليث من السلطان ، او القاضى امرا ، كتب الى الخليفة فما يلبث ان يأتى الحاكم .. العزل .

كان الليث **اماما** .. وكان **موقفا** .

كان له فى الدين رأى ، وله فى المجتمع سمت خاص . استعان بالتاريخ ، بحاسة بلد التاريخ ، على تفسير النصوص ومضاهاتها

والخلوص الى راى يقرب الاطراف المتعارضة ويجمع الكلمة فى وقت هزت الأحداث السياسية الدولة الاسلامية وصدعت شعوبها .... وهو فى هذا ينبع من طبيعة مصر السلامية واسلوبها التقليدى فى الوفاق منذ وفق قبله فيلون الفيلسوف الاسكندرى بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، ووفق الشيخ تقى الدين السبكى بعده بين المذاهب الأربعة . فى القرن السابع الهجرى .

رفض الامام الليث الحكم . وهو رفض للتبعية ولكنه حكم باسلوبه هو اذ جعل له أربعة مجالس : المجلس الاول يراجع فيه اعمال الولاة والقضاء ويقيسها على الكتاب والحديث والسنة فاذا وافقتها اعتمدها فان اقراره الشخصى بمثابة اعتماد .. ورفضه لها ابطال وبطلان : أليس فى استطاعته عزل الوالى والقاضى ؟

والمجلس الثانى : خص به أصحاب الحديث .

والمجلس الثالث : اختص به الناس يعرضون مسائلهم .

والمجلس الرابع : لأصحاب الحوائج . وكم فرج الامام الليث

كربات وقضى حاجات ... فحياته للافتاء
والايواء حتى نسجت حوله فى هذا قصص
اشبه بالأساطير ...

لقد كان الامام الليث ينهى عن مدح السلاطين وقد تكفل بمنصور ابن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة او رهبة كما اشرت :

يقول البغدادي (ان منصور بن عمار وفد على مصر واتخذ مكانه في المسجد الجامع وانشأ يعظ الناس ويقص عليهم من أنواع القصص ما استهوى نفوسهم واستأثر بمكان الاعجاب منها حتى أبكاهم . وكان الليث حاضرا يومئذ فاستمع اليه ثم ساله عن السبب الذى حدا به الى الوفود الى مصر ، فأشار الى حاجته الى المال ، فاعطاه كفايته وطلب الى أولاده ان يعطوه فاعطوه مثل ما اعطاه الليث) . وفى رواية ابن خلكان انه قال له : خذ هذه وصن حكمتك .

وقولته الوجيزة والعزيزة **دستور للعلماء وأصحاب الحكمة ، فى الكرامة .**

كم من قصص وملاحم لا يذكرها ذاكر أو شاكر أو كاتب أو جامعة الا نادرا حين يغمزون مصر من وقت الى آخر بالغزو والغزاة .. ولو

خطر لهم ان **يقارنوا** بين العارض والباقى أو بين التحضير والتدمير ، لعرفوا ان نار الغزو كانت تكشف أكثر عن نفاسة **معدن مصر** . فقد كانت النار تصهر **معدنها** الكريم **ولا تذيبه** .. تجلوه بعد أن تنفض عنه المحنة ، تراب الأيام والرتابة فيتألق فى البناء ويتأنق فى الانشاء ليكون التألق فى الحضارة والعمارة ، **ردا** على التفوق فى الحرب والضرب سلاح المغير .

وهذا مثال من تاريخ مصر .

السنة : ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦ م .

الحاكم : السلطان حسن بن محمد بن قلاوون .

كان المماليك يتصارعون على الحكم ويتآمرون بالحاكم ويقضون أعمارهم فى خلع هذا ونصب ذاك .. فاذا بقى عندهم وقت صرفوه فى النهب والسلب او فى التفاخر والتكابر والظهور . حتى اذا ثقلت عليهم وطأة الاحساس بالذنب بنوا المساجد تكفيرا وتغطية **وأكثر العهود بناء للمساجد تلك العهود التى اشتد ظلم أصحابها للناس** .. فعصر المماليك فى مصر حافل بالمساجد . ويحكى أستاذنا الدكتور أحمد أمين فى كتابه (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية) انه فى العصر العثمانى كان التركى يقف بباب المسجد يوم الجمعة وفى يده الكرباج يضرب به السائرين فى الطريق لحظة مرورهم أمام المسجد ليدخلوه ويؤدوا الصلاة !! رؤية للدين على كل حال وان كان الدين منها براء ..

مماليك بحرية ومماليك برجية الوف الوف .. لم يبق منهم أحد ... **الذى بقى هو الشعب المصرى** الذى كان أثناء هذا يبنى المساجد والقباب والمحاريب **ويضع بصمته عليها** مستمدا القدرة بما أسلف فى فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان فى واجهات المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر زخرفية .

فى السنة التى نتخذها وقفة ، سنة ٧٥٧ هـ بنى الشعب المصرى مدرسة السلطان حسن (مساحتها ٧٩٠٦ أمتار مربعة ، وارتفاع المدخل ٣٧٫٧٠ من المتر) .

ومدرسة السلطان حسن او جامع السلطان حسن أربع مدارس للمذاهب الأربعة ومسجد وضريح ... **التقاء بين الدين والعلم فى وحدة** ... ان ايوان جامع السلطان حسن يقنع الحجر بالالتقاء بعضه مع

بعض ليقابل التلاقى فى الصحن بين الايوانات فيذكرنا بفن البديع فى الأدب وخاصة (المقابلة) ففى جامع السلطان حسن مقابلة معمارية .. فراغ يحيط به اكتظاظ المدارس بطلابها واساتذتها .

مقابلة بين الصوت والصمت فعلى الجدران صمت تلزمه المساحات الكبيرة الخالية من الكتابة والنمنمة .. وترصيع يزيده غنى فراغ الجدار حوله .

مقابلة بين الحياة المتفتحة فى المدرسة ، وبين الموت فى الضريح عند نهاية الجامع .. موت ثم بعث من جديد .

مقابلة بين بساطة الضريح وعظمة المكان حوله حين يرتفع الى بعد بعيد وكأنه مراقى الروح تصعد فيها الى أعلى حيث القبة تنتهى الى نقطة يعلوها هلال هو رمز الميلاد الجديد فى عملية اختزال رائع للحياة : ميلاد وعمل باق ثم موت تعيد بعده الحياة نفسها كرة أخرى .

ان جامع السلطان حسن جامع ومدرسة وشفاء ايضا بما يزرعه فى النفس المصرية من معانى الفن والجمال والايمان .

ولكن المماليك لم يفهموا من البناء الشامخ معنى المدرسة او المسجد فقد اتخذوا منه حصنا اى موقعا استراتيجيا يضربون منه المماليك الآخرين المتحصنين بالقلعة مما أدى الى تخريبه وتلفه حتى اصلحته ، فى العصر الحديث ، ادارة حفظ الآثار العربية !

وعند الجزاء يخرج الشعب المصرى من المولد ، بالقيراط الخامس والعشرين كما يقول استاذنا الدكتور حسين فوزى .. ففى الدولة المملوكية يحكى القلقشندى ان (الاقطاعات تجرى على الأمراء والجند وعامة اقطاعاتهم بلاد واراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف يشاء .

وكان السلاطين يلقبون ابناءهم (بالأسياد) وابناء الامراء الآخرين (بأولاد الناس) . وقد أعطى الأسياد وأولاد الناس (الجوامك ــ اى المرتبات) وكذلك منحوا الامارات المختلفة باقطاعاتها ... ولكنهم ذهبوا جميعا وبقيت مصر للشعب المصرى .

الغالب والمغلوب

السنة : ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م .

الحاكم : السلطان سليم الأول .

قبل هذا وهو بمثابة مقدمة لما حدث فى تلك السنة ، كان المماليك يهزلون وكان الشعب المصرى يجد بطريقته الخاصة .

كان المماليك والسلاطين على رأس الحكم وكان الشعب المصرى على قمة اخرى ارفع . كان يبدع الفن ويصنع الحضارة ويكتب الأدب ويعلم أبناء المنطقة كلها فى الأزهر ويسمى القناديل (قرايات) فى وصل بين النور والعلم .

القناديل عيون او قلوب . فالقنديل حمى للمصباح من عبث الهواء ، والقلب حمى للمعانى من عبث الأهواء .

والأساطير الشعبية حين ترمز الى الظلام والشر ، تجعل العفريت يطفىء اللمبة فالشر دائما يرتع فى الظلام .

كم احتفلت مصر بالقناديل وشكلتها تشكيلا ، وجملتها تجميلا . فلما جاء العصر التركى جمع سليم الأول الصناع والفنانين ورحلهم الى القسطنطينية عاصمة ملكه .

ولما افاق سليم من بهره بفن مصر ، وهو الغازى المنتصر ، نقل ما راعه من عمل مصر فى التكفيت والترصيع ، الى السيف ، لعبتهم المفضلة ، فعرفت السيوف التركية ، كما يقول الفنان عبد الرءوف فى كتابه « القاهرة » ، هذه الفنون الجمالية حين عطلت منها المشكاوات فى العصر التركى ... مع أن المقريزى يحكى لنا عن ازدهار التكفيت فى أيامه – اى قبل دخول سليم – حتى انه لم يخل منه جهاز عروس فقد كان تقليدا ، ان يضم طقما من النحاس المكفت .

هذا هو الفرق بين حامل القلم والريشة ، وبين حامل السيف .

... ...

لقد بقى الفنان صانع المشكاة ، ببقائها ، لا يلبغا حامل السيف . ومن الطريف أن (يل) فى التركية معناها = أصفر ، و (بغا) معناه = ثور . وهما معا (يلبغا) الثور الأصفر .

وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية بل حمل معه (أكثر ما فى القلعة وما فى منازل السلاطين والامراء من الذخائر والنفائس كما اخذ ما كان من ذلك فى المساجد والأربطة والزوايا حتى أعمدة الرخام .... وبلغ ما أخذه من النفائس حمولة الف بعير غير ما سلبه رجاله وجنوده حتى مقام الامام الليث ومقام الامام الشافعى سطوا عليهما !) يقول الجبرتى (فقد من مصر ٤ نيف وخمسون صنعة) ولم ينس سليم فى عملية التخريب الشرسة أن ينفى العلماء والقضاة ..

اغتصب الفلوس والرءوس ... ودلالة هذا رعبه وهو المنتصر من مصر وبهره وهو الغالب بفن هذا الشعب بهرا يسيل لعابه حتى ليعجز عن مقاومته لافتقاره اليه وغرابته عليه .... ولم يؤثر عن سليم أنه أخذ فنانين وصناعا من مكان آخر فى الشرق العربى ...

لقد دعا الفاتيكان فى روما مهرة هؤلاء الصناع ، قبل أن نبتلى بسليم ، للقيام بزخارف (باقيه الى الآن فى مثلث الجمالون الكبير مع ما كتبوه من الكتابات التى كتبوها باللغة العربية) .

ولكن المدرسة المصرية تصر على أن الذى انتصر سنة ١٥١٧ م هو سليم ... ولم تقل شيئا عن ((الباقى)) بعد الهزيمة والنصر وهو الشعب المصرى .

مصر

ان اسمك مصر ليس مجرد اسم وطن ولكنه دون الأسماء يعنى حضارة الانسان وتاريخ الأديان و ... يعنى آلاف السنين قبل التاريخ وبعد التاريخ يا أم التاريخ وام الحضارة وام العمارة وام العلوم وام الفنون يا أمى ... يا مصر .

ان الامم العريقة لا تقاس بانتصارات الحروب أو هزائمها ولكن بانتصارات السلم ، وانتصارات العلم ، وانتصارات كرائم الانسان فيها ....

لم يصدقنا عدوك الحديث حين قلنا انك اكبر من الهزيمة بارادتك وطاقة الصمود فيك وقدرة الاصرار والاستمرار لأن غروره أعماه ، وجهله بتاريخك او تجاهله ، أغراه ، وحسب نفسه كبيرا فلم يفق الا على هتفة الأبطال : الله اكبر ...

حلوة انت فى الفرح ، وكريمة كنت فى الجرح سلمت جراحك ، ونور ليلك وصباحك ، وعادت الابتسامة الى السمراء الجميلة .. اليك يا أمى يا مصر .

ان جعبتك مليئة بالقصص .. اتذكرين .. اغرى خصبك المنشور وخيرك الموفور الأمم والطامعين ، والمحرومين ، وطلاب المجد فحلموا جميعا بالظفر بك .... راموا كلهم غزوك : الفرس واليونان والرومان وعمرو والطولونيون والاخشيديون والفاطميون والايوبيون والمماليك والترك والفرنسيون والانجليز .. اين هم ؟ كلهم راحوا ... انداحوا **وبقيت انت وجرى النيل ...**

وكانت لك فلسفتك فى المقاومة .... بالسيف قاومت .. وبالاستعلاء قاومت وبالنكتة الذكية اللاسعة قاومت ... اتذكرين يوم تميز القضاة الرومان فى محاكم الاسكندرية من الغيظ واشتعل غضبهم من استخدام المحامين المصريين النكتة والسخرية والتورية فحرم الرومان عليهم المرافعة حماية لقضاتهم الغاضبين ؟ ! **وضحكت انت ملء شدقيك من الغالبين ؟**

اتذكرين يوم جاء الاسكندر واصر ابناؤك على شهر السلاح فى وجهه وابتسم كاهن أمون وقرر أن يحاربه وحده ، وفى هدوء شديد .. استدرج الحكيم الراهب ، الفلام ــ فقد كان المصريون يعتبرون الاغريق اطفالا بالقياس اليهم ــ استدرج الحكيم الراهب ، الغلام المعتز بقوته ، الى واحة سيوه وهناك عرف كيف يمتصه ويستوعبه ويستقطبه ... همس فى أذنه انه ابن الالهامون وانه اقوى الناس واحكمهم واعلمهم وما شاء الغرور ان يسمعه حتى اذا اترعه غطرسة ، تركه لنفسه يقتله غروره ويغريه بالاعتداء والفتح حتى سقط فى نهاية الطريق وبداية العمر .. **وبقيت انت .. انت مصر .. انت وحدك بنت امون .**
... يا مصر ... يا شهرزاد العصر ... غير ان قصصك ملايين الليالى ....

أصل الشعب المصرى

كلما راعت الحضـارة المصرية ، مشـاهديها ، حلا للبعض التشكك فى نسـبتها الينا ، لونا من العجز أمام الاعجاز ، أو تحقيقا لاغراض سـياسية تستهدف الحط من روحنا المعنوية ، او اخماد الجذوة المشتعلة فى الروح المصرية حتى من تحت الرماد .. وسيلتهم الى هذا التلويح بالغزوات أو الهجرات .

اما الغزوات فان الفترة المصرية الخالصـة أطول واكبر من الفترة الهجينة التى تبدأ من الاسكندر على أن هذه العهود لم تعرف القوميـة الاقليمية والوضـعية المحلية . ان الاسكندر نفسـه ادعى بنوته لامون .....

كانت الغلبة السياسية فى ذلك الوقت موجات فتصعد أمة المسرح، وراءها أمة أخرى .

لقد حملت مصر مشـعل الحضارة والثقافة والأديان ، حقبا وازمانا .

ومن يسهر طويلا ينام .

وقد اغفت مصر وجاء الأغريق

ثم الرومان

ثم العرب فالترك ... الخ

وفى هـذه الأثناء وفدت على مصر ككل مكان وفادات من جهـات مختلفة ولكن مصر كما يقول بحث الدكتور حزين : (سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسى) : (لم يصـلها فى أى وقت من الأوقات هجرات

كبيرة العدد تغطى على حياتها وتطمس معالم عمرانها السابق ، وتغير صفات سكانها الجنسية تغييرات أساسية كما حدث فى بعض البلاد الأخرى المجاورة ، لمناطق بها كثرة من الرعاة) .

★ ★ ★

ان الذين هاجروا الى مصر من شمال او جنوب ومثلهم الذين اتوها من شرق أو غرب ، كل ما فعلوه انهم اضافوا الى ثروة مصر وسكانها فى المميزات الجنسية المتوارثة ولم يغيروا الطابع العام للسكان. فبقى المصريون على مر الزمن جزءا من سلالة البحر الابيض المتوسط اضيفت اليه دماء خارجية فاستوعبها بفضل عدده الكبير وحياته المستقرة وتوافر العوامل الجغرافية التى حفظت على مصر شخصيتها فى السلالة والتكوين الجنسى العام . تلك الشخصية التى لا تزال تحتفظ بكيانها وطابعها حتى يومنا الحاضر .

ان العرب ، فاتحين ومستوطنين ، لم يتلبثوا بمصر الا فى الفترة التى ساد فيها حكم العناصر العربية ..

على أن الهجرة العربية الى مصر ارتد بعضها الى موطنها الأصلى، واتخذ البعض مصر معبرا الى المغرب وبقى البعض على الأطراف أقرب الى الصحراء (البادية) منهم الى الوادى ثم انقطعت هذه الهجرة فى العصر العباسى اللهم الا هجرة طائفة من عرب الأندلس الى الاسكندرية سنة ٢٠٠هـ ثم ازاحتهم عنها سنة ٢١١هـ . واذ آل الحكم الى الأيوبيين الأكراد ثم المماليك الاتراك والجراكسة ثم العثمانيين كان ذلك ايذانا بانتهاء النفوذ العربى البحت بما يغرى من هجرة أصحابه أو استيطانهم او تغلغلهم . وتوقف التيار العربى تقريبا وجاءت فترة استطاعت مصر فيها أن تهضم العرب النازحين .

— (ان الغالبية الساحقة من المسلمين فى مصر لم يكونوا غزاة وانما هم فى الأصل أقباط تحولوا الى الاسلام « تدريجيا » ولم يؤثر دخولهم فى الاسلام فى تكوينهم الجنسى) .

— (أن الطابع الجنسى العام للمصريين قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل ان يكون هناك اقباط أو مسلمون .

— ان اختلاط الصفات الجنسية فى شعب مصر كان على الدوام سرا هائلا من اسرار قوة هذا الشعب وحيويته ومقدرته على أن يحتفظ بشخصيته . وأن يغالب الزمن ويبقى رغم أحداث التاريخ التى اتت على كثير من الأمم القديمة ..

يقول الاســـتاذ العقاد (ينفض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عنـاصر الوطنية المصرية . فمن الحقـائق الواضحة ان المسـلمين والمسيحيين ســـواء فى تكوين السـلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الأصـــالة والقدم عند الانتساب الى هذه البلاد ، فاذا كان بين المسـلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب او التـرك فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشـة ودانوا بمذهب الكنيســـة المصرية او بغيره من المذاهب المسيحية ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سـلالة مصرية عريقة ترجع بآبائها واجدادها الى اقدم العهود قبل الميلاد المسيحى وقبل بعثة موسى عليه السلام) .

نخلص من هذا الى ان حضـارة مصر انما هى مصرية خالصـــة ولم تقم كغيرها من الحضارات على أكتاف الآخرين ، وهنا ايضـا يقول الدكتور حزين (ان اغلب أمم التاريخ الكبرى فى العهود القديمة كاليونان والعهود الوســيطة كالعرب (١) والعهد الحديث كبريطانيا انما استطاعت أن تحقق ما قامت به من دور خاص فى التاريخ بفضـــل تنوع تكوينها الجنسى) .

ان النظريات التى تصر على استيراد سـكان مصر الأول من مصدر خارجى ، أثبتت الأبحاث الحديثة ، كما يقول الدكتور جمال حمدان ، جموحها وأنها بنيت على شبهات ثم نمت بالتأويلات حتى سقطت بالفعل علميا ، لتظل الحقيقة وحدها قائمة وهى ان المصريين القدماء الأصليين يبدأون كمـا يقول مايرز وهم جنس متجانس أساسا فى صـفاته وتركيبه وأن أى أثر لاختـلاط تضـــاءل منذ بداية عصر الأسرات حتى ليقول « كون » : (لابد ان تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف فى التاريخ حتى الآن لمنطقة معزولة طبيعيا اتيح فيها للأنواع الجنســـية المحلية الأصلية ان تمضى فى طريقها لعدة آلاف من السنين دون ان تتأثر **اطلاقا** باتصالات أجنبية ..... !) .

ويقارن هذا بما حدث فى أوربا فيجد (ان التغييرات التى لحقت النمط الجنسى فى اى جزء من أوربا خلال الســـنوات الخمســـمائة الأخيرة كانت اكبر منها فى مصر خلال خمسة الاف) .

لقد تعرضـــت مصر لهجرات ممثلة فى :

الهكســـوس

---

(١) يفصل الحديث فى هذا ابن خلدون فى مقدمته .

الاسرائيليون

العرب .

وثلاثتها كما يقـول الدكتور جمال حمدان من الرعاة أصـلا . والرعاة عنصر حـركى غير زارع أى لصـيق بالأرض ، وغير صـديق للاستقرار . فمصر لهؤلاء ممر لا مقر . حتى العرب الذين يمثلون ثالثة الهجرات واكبرها لم تغير التجانس الأصـلى للسكان على الرغم من تكلم مصر العربية واعتناقها الاسلام (اذا كانت العرب قد عربت مصر لغويا ودينيا فقد مصرتهم مصر حضـاريا وماديا) **ان كل غزو خارجى تقابله مصر بغزو داخلى** يمس الجوهر والكيـان حين لم يسـتطع غاز **ان يغير منها أكثر من شـكل خارجى سطحى هو تكيف قشرى هيهات ان ينفذ الى الصميم او يمس الأعماق .**

لقـد مصرت مصر المسـيحية وجعلتهـا فيها دون بقية البـلاد قبطية .

وقد احتوت مصر العربيـة وتجـاوبت مع الاسـلام بكل ما يعنى التجاوب من تبادل الأخذ والعطاء . لم تكن يوما عنصرا سـلبا بل ايجابا مؤثرا واثيرا . أما الغزوات فهى حركة (ذكرية) فقد تكفلت بها طبيعة وظيفتها الحربية التى تعنى الوفاة المبكرة للغالبية فى الميدان فمن تبقى ، تصارع وافنى بعضه بعضا وصولا الى السلطة .

نأتى الى العنـاصر الوافدة فى العصر الاسـلامى : اتراك الدولة الطولونية ، ومغاربة الدولة الفاطمية ، واكراد الدولة الأيوبية وما اشبه .

يضـاف اليهم الرقيق الأبيض من الشراكسـة ، والرقيق الأسود من الحبشة وافريقيا ويضاف **اليهم طبيعة مصر الآسرة التى قلما غادرها وافد عن رغبة . الا أن يكون قسرا واضطرارا .**

هؤلاء الوافدون ، من حاول منهم الاندماج صهرته البوتقة المصرية بقدرتها التقليدية على الصهر والتذويب والامتصاص . ومن لم يحاول ، صهره الصراع . وطالما افنى بعضهم بعضا لا سيما المماليك ...

حتى المماليك منهم طائفة اطلق عليها الجبرتى الامراء المصرلية .

ان مصر يقف وراءها ازاء هذه الوفادات عاملان :

* **صحراؤها** وهى للغريب ماصـة كابسـة او مصفاة ترشـيح وتقطير .

* **مجتمعها** الذى درج منذ القدم على التزاوج المبكر والتناسل السريع والتكاثر المطرد جعل الكثافة البشرية المصرية بحرا متلاطم الأمواج يبتلع كل غريم .

ويأتى **الفارق الحضارى** فيعزز الفارق البشرى والجغرافى ويكون بدوره (عامل ترشيح جنسى) .

وتكون النتيجة كما يقول ارمان (ان الشعب الذى سكن مصر القديمة يعيش الآن فى السكان الحاليين) .

على أن مصر فى عملية ارتفاعها الدائم والدائب على الاحداث ، **احالت النقمة الى نعمة** فكانت (تتجدد بمقدار بهذه الهجرات والعناصر الداخلة ، وتكتسب عروقها دماء جديدة مهما كانت كميتها ضئيلة محدودة ، وتلك ظاهرة صحية ومفيدة ومنشطة للبنية البشرية للسكان) واستقطبتهم **فكان مصر احتوت الهجرات والغزوات والوفادات** وامتصتهم لا سياسيا فحسب بل جنسيا ايضا .

وراحوا جميعا .

وظلت هى الباقية .

اسم مصر

اما اســم مصر فكثيرون يعتقدون ان اسم مصر هو ، التســمية العربية اى تسمية حادثة فى القرن الســابع الميلادى فهى ليســت بالاسم الأول القديم .

والحقيقة ان المصريين القدماء فتنوا بواديهم الاخضر وســموه اكثر من اسم . فهو ، اى مصر، عندهم (كيمه) او السمراء ، و (تاكيمه) اى الحمرية ، و (تاوى) اى الأرضين و (ايدبوى) أى الضفتين . ولم يكتفوا بهذا كله بل أضفوا عليها من ولعهم بها صفات شاعرية كما يدلل المرموق المعشوق فقالوا (ايرة رع) اى عين الشمس أو عين رب الشمس وقالوا (وجاة نثرو) اى عين رب الأرباب و (اترتى) اى ذات المحرابين و (باقة) اى الزيتونة فهى خضراء دائما ..

اما جيرانهم من كنعانيين واشــوريين وفينيقيين وبابليين فكانوا يسمونها مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم « التوراة » ومصرين وختمها القرآن الكريم بلفظة مصر .

ومن الوثائق الخارجية المحفوظة رسالة بعث بها أمير كنعانى فى الربع الثانى للقرن الرابع عشر ق م يطلب حماية فرعون ويســتأذنه فى ارسال اهله الى (ماتو مصرى) اى الى أرض مصر .

اذن كلمة مصر تمتد فى الزمن الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وتقارب هــذه اللغات فى اســم مصر يطرح احتمالا مؤداه ان هذه اللغات اخذته اصلا عن اصحابه ... عن اللغة المصرية القديمة فان اسماء الأعلام تؤخذ كما هى الى حد بعيد ...

يقول الدكتور عبد العزيز صالح (ليس من المستبعد اطلاقا ان تؤدى الكشوف الاثرية المقبلة الى اظهار وثائق مصرية تذكر اسم مصر فى صراحة ، ولكن حتى تظهر هـذه الوثائق يمكن ترتيب الآراء المحتملة فى ضوء المصادر المعروفة حتى الآن فى تحليل اسم مصر ومترادفاته القديمة ، فى اربعة آراء تنتهى جميعا الى اعتباره لفظا ساميا مشتركا يؤدى معانى الحاجز والحد والسور ، ويترجم عن صفتى الحصانة والحماية) .

★ ★ ★

ويؤيد هذا الرأى مانراه فى النقوش والرسوم والتماثيل من احاطة كل عزيز عليهم وخاصة ملوكهم بقرص الشمس المجنح وبماء النيل . وتسرب هذا عبر الزمن ، الينا فى قول ابن البلد **(مصر المحروسة)** .

وهناك راى يقول أن كلمة مصر مركبة من كلمات ثلاث بمعنى **(بلد ابناء الشمس)** . والكلمات الثلاث هى « ما » بمعنى موضع ، و « سى » بمعنى ابن ، و « رى » أو « را » بمعنى الشمس . ومنها « راع » الذى ينسب اليه بعض الفراعنة . ويستند الى هذا ثقات يطلقون اسم « مسرى » على شهر الفيضان أو شهر النيل ، ويربطون كما فعل العلامة « ماسبرو » بين اسم الشهر واسم البلاد .

ومن حب المصريين مصر ، كان قدماؤهم يسمون انفسهم شعب الشمس ، والشعب النبيل ، وشعب الاله ، بل تصوروا انهم نبعة منه صيغت من جسمه ، أو انهم خلقوا من عينه ونزلوا من دموعه . وكأن مليكهم كان ينطق بلسانهم جميعا (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟) .

قد تكون القوة والثراء والرخاء والسيادة ... قد تكون هذه الصفات مجتمعة ومتفرقة ازدهتهم فوصفوا انفسهم بهذه الصفات . ولكن عصور الضعف بما تورثه من تخلف وتسيب وانحطاط ، هل كان الشعب المصرى يرى نفسه ، فيها ، دموع الله أم دموعه هو ؟

فى عصور القوة بمكاسبها .
وفى عصور الضعف بمثالبها .
نحن مصريون .

مصر فى القرآن الكريم

مصر فى القرآن الكريم جنات وعيون وزروع ومقــام كريم ونعمة . يقول الكندى : وصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا ولا ســـهلا ولا جبلا ولا برا ولا بحرا .

(كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين) .

ومصر فى القرآن الكريم : امنية المتمنى وجواب السائلين :

(اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) .

وحين خرج اخوة يوسف من الشمال ووفدوا على مصر ، حدث اخوهم بنعمة ربه عليه وعليهم فقال (وقد احسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) .

هل هى مقابلة بين السجن والبدو ، وبين مصر .

وهى وطن هاجر أم اسماعيل ومارية أم ابراهيم وهى وطن قارون الذى أتاه الله من الكنوز ــ اى كنوز مصر ــ (ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) .

انها خزائن الأرض التى دعا يوسف ربه أن يجعله حارسا لها .

وهى وطن البناة اصحاب الصروح : هامان ورجاله .

اذ يطلب فرعون الى هامان ان يوقد له على الطين (فاجعل لى صرحا) القصص .

انها الوادى المقدس طوى .

وهى بلد اهل الراى المتحضرين . ففرعون حين ضاق بموسى لم يستبد بالراى بل جمع رجاله وشاورهم فى الأمر . وفى حس حضارى يليق بعرش مصر اخلصوا فى الراى وارتفعوا الى مستوى المسئولية والموضوعية .

فرعون يخاطبهم : فماذا تامرون ؟

اذن الأمر للجماعة ... الأمر شورى . والرجال الكبراء يقولون

(ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين . ياتوك بكل سحار عليم) .

ولا ادل على عظمة هذا الموقف من الملك المصرى ورجاله ، من موقف حاكم آخر ورجاله .

نمرود يأخذ راى اتباعه فى ابراهيم عليه السلام : فيقولون فى عنجهية وحمق (حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) .

ومن السحرة المصريين من آمنوا فى شجاعة راى وضمير .

* * *

انها مصر قبلة الأنبياء

راعتهم وساندتهم

حتى آدم (ص) الذى فتح عينه على الجنة راعته مصر ايضا . والعهدة على السيوطى . فقد عقد فصلا فى كتابه الكبير (حسن المحاضرة) يروى فيه ان ادم عليه السلام عندما راى مصر وقع من سحرها فى بحران من الدهشة السكرى يتمتم :

(لا خلتك يا مصر بركة ، وما زال بك حفظ ، وما زال منك ملك وعز .. يا أرض فيك الخباء والكنوز ... ولك البر والثروة . سال نهرك عسلا . كثر الله زرعك ، ودر ضرعك ، وزكى نباتك ، وعظمت بركتك ..)

كان كعب الاحبار يقول : لولا رغبتى فى الشام لسكنت مصر ، فقيل : ولم ذلك يا ابا اسحق ؟ قال : انى لاحب مصر واهلها ، لأنها بلدة معافاة من الفتن ، واهلها اهل عافية ، فهم بذلك يعافون ، ومن ارادها بسوء كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه .

والكندي فى فضائل مصر يورد من كان بمصر من الأنبيــاء فيذكر منهم : ابراهيم الخليل واسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر نبيا من ولد يعقوب وهم الأسباط وموسى وهارون ويوشــع بن نون ، وعيسى ابن مريم ، ودانيال عليهم الصلاة والسلام .

وعد من كان بها من الصـحابة ومن أشـهرهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وعبد الله ابن عمرو ، وعمر بالطبع . وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر الذى روى عنه قوله : من أراد ان ينظر الى الفردوس فلينظر الى أرض مصر حين تخضر زروعها ، ويزهر ربيعها ، وتكسى بالنوار أشـجارها وتغنى أطيارها .

وعد من كان بها من الفقهاء والعلماء

ومن كان بها من الزهاد

ومن دخلها من الشعراء والخلفاء

ونيل مصر حظى بشرف الذكر فى القرآن الكريم فى مواضع عدة ، فلم يرد نهر فى سياق الفخر غيره ، ولم يطلق على نهر اسم (البحر) غيره .. ولم يطلق على نهر لفظة الجمع (الأنهار) غيره فهو فى القرآن .. اليم .. وهو .. البحر .. وهو الأنهار .

فملك مصر فرعون موسى قد ازدهاه الفخر بحق فقال كما حكى الله عنه (ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهـار تجرى من تحتى أفـلا تبصرون ؟) .

وفى قوله : « يا قوم » دهشة لا تخفى .. كيف يواجه ملك مصر ؟ والنيل ؟ كان فرعون مزهوا بالأنهار تجرى من تحته . فهتف هذه الهتفة فى عزة المالك وقوة التحدى .. وأيضا فى غبطة السعيد .

وقد ذكر الله لفظة « بحـر » فى ثلاثة وثلاثين موضعا . منها ثلاثة مواضع قصد بها النيل وهى قوله تعالى :

« نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا »

« واتخذ سبيله فى البحر عجبا »

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر »

ويؤيد هذا التفسير ما أورده البخارى فى ذهاب موسى عليه السلام فى البحر الى الخضر .

والنيل فى القرآن الكريم هو اليم فى قصة موسى . وما دار حولها من آيات .

وهــو وراء قصـــة يوســف وحلم العزيز . ويلمحه آخرون وراء الآية (قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى) .
والمقريزى يقــول أن (يوم الزينة) عند بعض المفسرين هو يوم وفــاء النيل .

اكتفى بهذه اللمحات هنا حيث فصلتها تفصيلا فى كتاب آخر ، قائم ، عن النيل . وعليه .

ما اريد ان اوضحه هو ان مصر بنفسها او من خلال النيل حظيت بالذكر فى الكتاب الكريم بما لم يحظ به بلد آخر فى الدنيا على كثرة ما بها من بلاد وانهار وهو شرف ودلالة وقيمة محسوبة اذ عدت مفــاخر الأوطان .

فرعون .. وفراعنة

قالوا (فرعون) وعنوا باللفظة التجبر والتكبر ، واحيانا الشر والكفر فيقول المثل (تحسبه موسى تلاقيه فرعون) .

وعند المثقفين المصريين يعنى لفظ (الفراعنة) المجد كله والفخر كله . لنناقش كلمة (فرعون) .

كيف تكونت ؟ ما هى دلالتها ؟

يقول الدكتور عبد العزيز صالح انه لقب (جمع بين صيغة مصرية قديمة ، وصيغة عبرية قديمة ، وصيغة عربية قديمة . صيغته المصرية القديمة برعا أو برعو « وتشبهها الصيغة الاشورية برؤو أو برعو » وصيغته العبرية « فرعو » بعد قلب الباء فاء وتشبهها الصيغة الاغريقية «فاراو » وصيغته العربية « فرعون » بعد اضافة نون أخيرة .

اما الصيغة المصرية فهى تعنى البيت العالى ، أو البيت العظيم . وتلقيب الملوك والرؤساء ، شىء معروف فى القديم بل لا يزال مألوفا فى عصرنا الحاضر .

ما الذى يجعل هذا اللقب سىء الوقع عند بعض الناس ؟

هل هو فرعون موسى ؟

هل من طبيعة البشر او طبيعة الأشياء ان يصدق فرعون بكل هيله وهيلمانه ، وللوهلة الأولى ، داعيا ، فى نفسه منه ما فيها ..

وقد كذبت قريش بعد ان قطعت الانسانية من عمر الزمن دهورا بعده ، الزكى السرى الصادق الأمين وهو الذؤابة منها شرفا ومحتدا ؟

لم يكن عنـــدها عذر عصبية الجنس أو عقـدة الثـأر القـديم أو مبرر الاستعلاء .

لقد كان موسى فى نظر فرعون كما جاء فى القرآن الكريم **قاتل احد رجاله** وهو فى نظره ، **ربيب قصره** حتى ليقول له فى عتاب أو تأنيب او كليهما : (الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين .. وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين) .

ولم ينكر موسى (قال فعلتها اذا **وانا من الضالين**) .

سورة الشعراء الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩

كيف ؟

القرآن الكريم يقـول : (**ودخل المدينة على حين غفلة من اهلهـا فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شـيعته وهذا من عدوه فاســـتغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليـه قال هذا من عمل الشـيطان انه عدو مضـل مبين . قال رب انى ظلمت نفسى فاغفـر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيـم . قال رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين**)

سورة القصص الآيات ١٤ و ١٥ و ١٦

(قال رب انى **قتلت منهم نفســـا** فاخاف أن يقتلون) القصص آية ٣٢ .

الا يخطىء من ليسوا انبياء ؟

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب هـذا الخطأ على كل فرعون ؟

الم يكن اخناتون متساميا موحدا نبيلا ؟

هل كل ملوك الفرس قمبيز ؟

هل كل خلفاء بنى العباس ، السفاح ؟

هل كل الفاطميين « الحاكم » ؟

واذا جاز أن يحسب **علينا** خطأ فرعون واحد فان من المقـابل ، أن يحسب لنا أمجاد فراعين ، يكفى الواحد منهم امة بأسرها فى باب **المفاخر** ..

على ان من ائمة المسلمين والواصلين من برأ فرعون من الكفر . فالامام محيى الدين بن عربى يقول فى كتابه « فصوص الحكم » (بايمان فرعون ايمانا لازما ، وانه قد لقى ربه طاهرا مطهرا ، سالما من العيب، بريئا من الذنب) وظاهره فى هذا الامام جلال الدين الدوانى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب . مستندين الى الآية الكريمة (آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين) سورة يونس آية ٩٠ ، وجعله ابن عربى ، آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس أحد من الله تعالى .

(قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) .

شرف ونعمة أن نكون مصريين وان نكون فراعنة .

أننا نحب الحرية للآخرين ونحترم أوطانهم فلا يستكثر علينا احد ، ولا ينكر علينا احد أن نعلى راية (المصرية) دون أن يتعارض هذا مع القومية العربية . فالعرب فى سائر بلادهم ينتمون أولا الى الوطن الأم ثم ينتسبون الى العروبة بحكم الدين واللغة ومسار التاريخ فى الأربعة عشر قرنا الأخيرة .

ونحن فى مصر لا نطلب أكثر من هذا لا سيما واننا نحمل اسما عرفته الدنيا قبل الديانات واللغات والقوميات فنحن مصريون اولا ونحن مسيحيون ونحن مسلمون ونحن عربيو اللسان والهدف والمصير .

ان الاستاذ ساطع الحصرى فى كتابه الكبير عن (القومية العربية) يسميها « رابطة » ونحن لا ننكر هذه الرابطة ، ولا نستطيع . وليس فى مصلحتنا ان استطعنا ولكن « الرابطة » مهما عزت ، لا تبلغ الأصل المرتبط والمربوط بل ان وجودها رهن بوجوده .

من هنا ندعو الى معرفة تاريخنا حفاظا على الأصل ، واتخاذه منطلقا للتجديد والخلق حتى تكون لنا شخصية متميزة ثم نتمسك بها فى اعتزاز وحب وانتماء .

لقد اخذت اليابان بأسباب العلم الحديث بل أضافت الى علوم العصر ، ولكنها تمسكت ، بأسلوبها فى الحياة ونظامها فى العيش .

انها لمأساة أن تحتاج الحقائق الثابتة الى اثبات .

الأقباط والمسلمون

ان المثقفين من المسلمين والأقباط يعلمون بالدراسة والوعى التاريخى ، ان مصر اعتنقت المسيحية ثم الاسلام .

المسيحية جاءت من فلسطين .

والاسلام جاء من الجزيرة العربية .

وبعد تفكير وتمحيص للدين الوافد ، ولموقفها هى ، اختارت مصر المسيحية بل تبنتها ودافعت عنها **بالرأى والروح .**

ولاعتبارات فصلتها فى هذا الكتاب دخلت مصر فى الاسلام افواجا. ولم يكن غريبا عن طبيعتها ، ولا عن مسيحيتها . ولهذا لم يكن اسلامها مسايرة او تسليما ، ولكن كان اسلامها موقفا واستجابة وايجابا ، فلم تلبث ان تحمست له ، ودافعت عنه **بالرأى والروح .**

وكما نشرت مصر المسيحية واضافت اليها كما لم يفعل احد .

نشرت مصر الاسلام ومكنت له كما لم يفعل احد .

وبما تمثل المسيحية من وقفة مصر وموقفها .. من رأيها وشخصيتها ، نعتز بالمسيحية مسلمين واقباطا لأننا مصريون .

وبما يمثل الاسلام من سماحة مصر وتفتحها .. من احساسها **بذاتها حتى لا تخشى الجديد ، لأنها بالتاريخ الطويل تعرف ان لها فى كل مسرح مكانها ومكانتها .. بهذا ، ولهذا ، نعتز بالاسلام اقباطا ومسلمين لأننا مصريون ..**

وامتدادا لهذا ، حين تمد مصر للعروبة يدا داعية أو مستجيبة لما يخدم هذا من مصالحها ويعزز دورها ويساندها ، لا املاء من فرد ، أو تحقيقا لطموح شخص ، أو اندفاعة مريضة ، فان العروبة هنا ، بما تمثل من رأى مصر نفسها ، نعتز بها أقباطا ومسلمين لأننا مصريون ..

فلا يخلط كائن بين الدين والجنسية ، كما والى فى الماضى المسلمون (بعض منهم) الاتراك ، والاقباط (بعض منهم) الانجليز .. لا عن خيانة من الطرفين ولكن عن سطحية فى التفكير والوطنية وما منع الاسلام تركيا ، ولا المسيحية انجلترا ، أن تظلم مصر كلها باستعمارها ، ثم باستغلالها ، وتعويقها ، وقهرها ..

الدين علاقة خاصة بين الله والانسان .

ولكن الوطن علاقة عامة أخطر أثرا ، لأن الله غنى عن صلواتنا تحت جميع الأسماء . ولكن الوطن حياته بحياتنا ، وحياتنا بحياته مقترنة ومطردة علوا وانخفاضا .

الأديان جاءت بعد الانسان .

ونحن مصريون قبل الاديان والى آخر الزمان .

ليس الأقباط بالمسيحية فلسطينيين بل مصريين اعتنقوا المسيحية .

وليس المسلمون بالاسلام عربا ، بل مصريين اعتنقوا الاسلام حتى شكا والى عمر بن عبد العزيز من نقص الجزية .. فقال الخليفة الذى يعرف مصر جيدا لأنها ربته فى ولاية أبيه عبد العزيز بن مروان (أن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا) ..

ولا يسىء هذا العرب بل يشرفهم . فلئن نكون مصريين اسلمنا خير من أن نكون اعدادا من العرب فى مصر .. ما الجديد فى هذا بالنسبة اليهم ؟ وما معنى خروجهم بالاسلام من الجزيرة العربية ، وتجاوزهم به الحدود اذن ؟ هل لم يؤمن به أحد ؟ . وما معنى (بعثت الى الناس كافة ؟) وأين عالمية الاسلام اذن ؟ ان لم يكن اهل البلاد المفتوحة أسلموا ، فهو دين محلى خاص .

والقائلون من الاقباط بأن المسلمين المصريين ، دخلاء ، ظنا منهم

بسذاجة ان هذا يتيح لهم أن يتفردوا بمجد القدماء أو بشرف الانتساب الى مصر .. لهؤلاء أقول :

هل يشرفهم ان يكون الدخلاء ، كما يقولون ، يشكلون أغلبية والأصلاء هم الأقلية ؟ أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فان كل فضل للاغلبية أو للاقلية فهو كسب للجميع باعتبارنا كلا واحدا يكمل بعضه بعضا ، أمنا مصر وابونا النيل . وبينهما يتفاوت الاخوة وقد يختلفون ، ولكن عندها يلتقون ، واليها ينتسبون .

وكيف يجوز فى الفهم ان يزيح الفاتحون اهل البلاد ، لا سيما اذا كان اهل البلاد أقدم تاريخا وحضارة ؟

ان جيش الفتح فى قول كان اربعة آلاف ، وفى قول ثمانية آلاف ، وفى قول ثالث بعد الامدادات ١٢ الفا ، ويمتد آخرون بالامدادات الى ٣٠ الفا .

واهل البلاد فى قول ، ثمانية ملايين ، وفى قول عشرة ملايين ، وفى قول ١٢ مليونا .

فلو اخذنا باكثر الاعداد بالنسبة للفاتحين .

وباقل الاعداد بالنسبة للأصليين .

هل من المعقول او حتى من اللامعقول المخبول ان ثلاثين الفا ، يضاف اليهم من لحق بهم من قبائلهم ولو كانوا اضعافا أن يمسحوا بلدا ، وأى بلد ، بلدا كمصر ، ويصيروا هم اصحابه او اغلبيته ؟ حتى اذا تجاوزنا أن الهجرات والقبائل كانت مقترنة بشخص الوالى تخرج بخروجه ، وان صلاح الدين الأيوبى ضيق على بقايا القبائل العربية واضطرها الى هجرة جديدة الى شمال افريقيا ؟ حتى اذا تجاوزنا هذا كله او اسقطناه ، هل من المعقول ان الآلاف تناسلوا فصاروا ملايين ، وعقم الملايين وصاروا آلافا او مليونا او بضعة ملايين وفقا لآخر احصاء ؟ أى منطق هذا ؟ ولمصلحة من ؟

ايهما أكرم لاخوة الوطن .. للاقباط أن نكون دخلاء ام اصلاء ؟ واذا امتسفنا المنطق نفسه وقلنا ان المسيحيين المصريين فلسطينيون باعتبار موطن المسيحية الأول (بيت لحم) ، أين مصر اذن بين المسيحيين والمسلمين اى بين الفلسطينيين والعرب نتيجة للمنطق العجيب .

ان كل عقيدة دانت بهـا مصر ، وكل راى قالت به ، وكل عمـل مارسته جزء من نسيج الشخصية المصرية ، الخطأ منه والصـواب اعترفنا ام انكرنا .. اننا بهذا كله ، مصريون .

المسيحية دين كتابى دانت به مصر وجعله الاسلام شرطا للايمان به . فلن يكون المسلم مؤمنا حتى يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر. والانجيل كتاب الله .. وعيسى عليه السلام نبى الله .

والاسلام دين كتابى اعتنقته مصر بعد أن أصـهر اليهـا واعطت رسوله دون غيرها ، الولد ، كمـا أعطت الولد ، قبـلا ، ابا الأنبيـاء ابراهيم .

فاسماعيل بن ابراهيم إمه هاجر المصرية .

وابراهيم بن محمد امه مارية القبطية .

يجب أن يعرف هـذا الكبار قبـل الصغار حتى لا تكون عقـد ولا استعلاء ولا تفاضل ولا تناحر يتسلل منـه الينا مسـتعمر يفرق ليسود، أو جاهل بالدين والتاريخ يحسب التعصب تدينا فيضر بالدرجة الأولى من يتعصب لهم بما يفتح عليهم من ردود فعل أمثاله من الجهلاء فى الطرف الآخر .

هذا فى الداخل ، اما فى الخارج فالتاريخ الحديث يشير باصابعه العشرة الى سلاح رهيب من اسلحة الاستعمار .. سلاح الوقيعة بين شطرى الأمة الواحـدة فعـل هـذا الـكاتب الانجليزى جـون بورنج John Bouring فى القـرن التاسـع عشر وشـايعه أدوارد وكين Edward Wakin فى السـتينات من القـرن العشرين فى كتـابه (أقلية متوحدة) A Lonely Minority أو القصة الحديثة لأقباط مصر خاصة فى الفصل السادس عشر .. وان لم يستطع أحد أن ينكر التماثل بين الاقباط والمسـلمين : حتى كرومر فى كتـابه مصر الحديثة Modern Egypt لم يسـتطع الفـكاك من هـذه الحقيقة وهى أن القبطى والمسلم انسان واحد وهو فى النهاية الانسان المصرى . وانى أترجم حرفيا ما قاله فى الفصل السادس والثلاثين من كتـابه : (القبطى من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فى السلوك واللغة والروح، مسلم وان لم يدر كيف . فالقبطيات تتشبه بالمسلمات والاطفال تكيفوا عامة وعادات الرواج والجنائز تشبه ما عند المسلمين) وان كان يعزو هذا فى خبث المستعمر ودهاء الخبيث الى تأثر الأقلية بالأغلبية مستمدا

الشواهد من الهند بين المسلمين والهندوس . ولا ادل على تعصبه هو من مهاجمته فى أكثر من موضع ، مواطنه ادوارد وليم لين لاعتداله فى كتابه عن المصريين المحدثين The Manners and Customs of Modern Egyptians والاقباط الذين يتعلل بهم كرومر ويتدرع بهم استعمار دولته قال عنه أحد اعلامهم وهو الأستاذ سلامة موسى فى كتابه (تربية سلامة موسى) ، (انه كان طاغية عاث وعربد فى كياننا الاقتصادي والسياسي وعطل بلادنا عن التطور وانه كان جاهلا يتشدق بعبارات لاتينية أو اغريقية قديمة ولا يعرف شيئا من العلوم المصرية الجديدة) .

وقد فصل هذا بالأرقام والاحصاءات الأستاذ رشدى صالح فى كتابه (كرومر فى مصر) .

ويبدو ان خلفه جورست لم يكن أقل سوءا منه . فيرى الأستاذ سلامة موسى انه ابان الانبعاث الوطنى فى الأمة المصرية عمد جورست الى (مناورة استعمارية هى ايجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الأقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية أخرى على الأقباط) .

ولم يقصر كتشنر فى هذا المضمار .

انه الاستعمار دائما وراء الفتن .. فهو فى مصر يستهدف الوحدة الوطنية وهو فى الهند يعمق عن عمد الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس كما يقول الدكتور جمال حمدان فى كتابه (العالم الاسلامى المعاصر) مثلما عمق الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب فى العراق تفتيتا وتمزيقا للوحدة الوطنية فى الرافدين بل حاول الاستعمار القول بشيعية ايران قبل اسلاميتها تدميرا للوحدة الدينية بعد الوطنية .

واذا كانت المشكلة الطائفية تبدو قديمة فى العالم العربى ، فانها كما يقول الدكتور حمدان (لم تنفصل فى أى مرحلة من مراحلها عن الاستعمار : هو الذى غذاها ان لم يكن خلقها ، وهو الذى اتخذ منها اداة سياسية يدعم بها وجوده . وهل ننسى ، ان الصليبية — حتى الصليبية — تذرعت بحماية الشيعة من السنيين (كذا !) فضلا بطبيعة الحال عن زعمها حماية المسيحيين من اضطهاد السلاجقة فى الأراضى المقدسة ؟)

انى أقرأ الآن فى (الاستاذ) ـ الجزء الرابع من السنة الأولى قول السيد عبد الله النديم (حتى فى الحروب الصليبية التى تحرك لها عالم أوربا برمته وامتد قرنين وكان لمصر فيها الشأن الأكبر واليد القوية ولم يسمع أن مسلما تعدى على قبطى مع اشتعال نيران الحروب . ولقد امتد ذلك حتى فى زمن الحركة الأخيرة ـ يقصد الثورة العرابية ـ التى كانت مظنة لحدوث فتنة بين المسلمين والاقباط فانه لم يسمع بتعدى أحد الفريقين على الآخر وعلى الخصوص فى بلاد الصعيد التى يسكنها معظم الاقباط . وهذا كله دليل على ان التسوية بين المحكومين تكون الجامعة الوطنية) .

ويقول خطيب الثورة العرابية فى موضع آخر :

(ومع كون الأقباط عاشوا دهرا طويلا وهم اصحاب مشيئة واحدة يأتمرون بأمر رئيسهم الدينى وينتهون بنهيه فانهم لم يجتمعوا يوما لتفريق عصا الجامعة ولا لشق ثوب الائتلاف ولا تنافروا مع المسلمين بسبب من الأسباب دينيا أو دنيويا ولا مالوا للخروج من ظل عدل الحكومة المصرية الى حرارة غيرها لعدم الموجب) .

وقول عبد الله النديم يعود بنا الى الأمس البعيد والقريب . ففى سنة ١٨٧٤ عندما شرعت نظارة الحقانية فى التحضير للمحاكم المختلطة ، انضم بطرس غالى باشا الى محمد قدرى باشا فى ترجمة قوانين هذه المحاكم الى اللغة العربية وتعريب التشريع الذى مازالت مصر تاخذ به الى اليوم ..

ان مصر بلدنا معا .

لقد انشأ بطرس غالى باشا الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١ فخطب الافتتاح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله النديم .

واقال الخديوى عباس الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر فخف اليه بطرس غالى باشا يعرض مساندته ويقف الى جانبه .

لقد مات بطرس غالى مقتولا برصاص ناصف الوردانى ، كما مات من بعده أحمد ماهر مقتولا برصاص محمود العيسوى . والقاتل والقتيل فى الحالين كانا يعملان لمصر من وجهتى نظر مختلفتين .

ودافع محمد حسين هيكل عن بطرس غالى فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) دفاعا جاوز حد الانصاف الى التعاطف . ولم يتخل

عن موقفه هذا حتى فى حديثه عن (اتفاقية السودان) التى وقعها بطرس غالى سنة ١٨٩٩ والتى حاول خصومه تحريف واقعها ضده فى شبه اجماع على تحميله وحده وزرها الذى صنعته بعد هذا احداث عدة وملابسات واوضاع تلت توقيعها .

لم تعرف مصر التفرقة الدينية .. لقد خدعها الاستعمار يوما عن حقيقة قدرتها فأوهمها انها بلد زراعى ليصرفها عن الصناعة ويستبقيها سوقا لمنتجاته ، ولكنه لم يستطع ان يخدعها عن حقيقة قيمها فانهزم فى كل مرة حاول فيها الوقيعة بين ابنائها مسيحيين ومسلمين فاتحدت ثورتهم ضده بعد الاحتلال وسنة ١٩١٩ وسائر الثورات الشعبية . وظل الأقباط ابدا كما يقول الدكتور جمال حمدان (كتلة رصيفة رصينة من صميم جسم الامة) .

ان الاسلام حضارته اسلامية نسجتها واسهمت فيها البلاد المفتوحة خاصة فارس ومصر بسابقة الحضارة فيهما .. والاسلام ينكر العصبيات ويؤيد هذا الاستاذ صبحى وحيدة ، وهو مصرى مسيحى فى كتابه (أصول المسالة المصرية) .

كما يؤيد هذا اختيار الاسلام عواصمه الحضارية فى دمشق وبغداد والقاهرة .

لقد ناصبت مصر ، الرومان ، العداء حين حاولوا التدخل فى عقيدتها المسيحية أيام وثنيتهم فقاتلتهم . وحين دانوا بالمسيحية وحاولوا التدخل فى الطقوس والعبادات قاومتهم . وتمسكت برأيها فى هذا واسلوبها فيه ، بل جنحت الى العناد فخالفتهم فى الرأى لمجرد المخالفة ، خالفتهم لونا من المقاومة واعلان السخط والكراهية ، لونا من التحدى واثبات الوجود . وكان لمصر كنيستها الخاصة بها وبطريركها المنتمى اليها . مصرت مصر المسيحية (واستخرجت منها نسختها الخاصة : القبطية) . كما اشرت .

هذا حين لم يصدم العرب ابان الفتح ، مصر ، فى عقائدها وتقاليدها فعاد الرهبان من صوامعهم فى الصحراء الى مزاولة وظائفهم الدينية السابقة ، كما لم يتدخل العرب فى أسلوب الحياة اليومية بعاداتها وتقاليدها المميزة فبقيت كما هى الى يومنا هذا فى الميلاد والأعياد والوفاة نمارسها الى اليوم مسلمين ومسيحيين .

ان مصر تهتم ـ بالجوهر لا بالتفصيل .. ونحن المصريين اليوم نتبادل زيارة الاولياء والقديسين دون شعور بالتفرقة او التعصب ... كلها فى نظرنا مزارات .

بل اننا كنا في القرون الاولى من الفتح نتبادل (قناديل) الكنائس وجامع عمرو عند الاحتفالات الدينية .

وهنا اعياد تجمعنا معا امة واحدة كما كنا قبل الأديان فعيد الربيع ووفاء النيل وليلة النقطة ... كل هذه اعياد مصرية قديمة صاحبتنا مع الزمن وصاحبناها الى يومنا هذا .

ان جوهر الدين فى مصر ، فى كل عصورها ، واحد . فالوثنية المصرية القديمة فى جوهرها الأصلى ادراك للخالد خلال العابر وقد وصل الخاصة عندهم الى التجريد والى فكرة الاله الواحد ..

وعلى الديانة المصرية القديمة قامت اليهودية والمسيحية اللتان تأثر بهما الاسلام واقرهما .. وان مصر حين دانت بالمسيحية فانما دانت بها لأنها تعبر عن ضميرها بل ان الديانة المصرية القديمة في آخر عهدها اوشكت ان تكون مسيحية قبل المسيح بما نزعت اليه من رغبة الخلاص والتماسه داخل النفس حين يئست من العالم الخارجي وآضت الى الصحراء ، وآوت الى العزلة للتأمل والتبتل . فمصر فى عهدها القديم عرفت النسك كما سنت الرهبانية فى المسيحية وعنها انتقلت الى اوربا اجل منحة اهدتها المسيحية المصرية الى المسيحية الاوربية بل يرجحون ان تكون طبيعة مصر هى التى اوحت الى اليهود بعبادة التنسك فالصحراء فى مصر شديدة القرب من اى شخص يريد اعتزال العالم .

واذا تأصل فى مصر هذا الطابع لعبت دورا كبيرا فى التصوف الاسلامى شهد به ماسينيون وبركلمان حين اطلقا على (ذى النون) واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى .

التقوى الحقيقية عند مصر هى الحب .. حب الله وحب المعنى .. وحب الانسان .. وحب الحيوان .. وحب الأشياء .

ان التعاطف مع الانسان والحيوان والأشياء المبثوثة صوره ورسومه فى لوحاتهم رمزا للطيبة والودادة التى تصادق كل شىء ، رمز ايمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة واصحاب النظريات لا باعتبارها عرفا واصطلاحا ، بل باعتبارها كما يقول الاستاذ

حامد سعيد ، (موقفا تجاه الحياة تتحقق فيه قيم ومشاعر الرواقية والمسيحية والصوفية والبطولات النفسية دون أن تكون واحدة من هؤلاء بالذات) .

التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى .. الفن . حين جسمت عقائدها فى الروح والبعث والخلود أهرامات ومعابد ونقوشا وهكذا كان الفن عند مصر مدخلا الى الدين حين يفهم عباد النصوص من الدين معنى الخوف من العقاب والرهبة من الحساب والفزع من النار ... وقمة التمسك بالدين فى رايهم هو التعصب له !!

وفى الفن المصرى تعانق الاسلام والمسيحية لانهما معا ينبعان من الفن المصرى القديم . وفى مكتبة جونا كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه (الفن المصرى الاسلامى) « فى مدينة ميونيخ رق يتضمن صفحة من القران بها زخارف بسيطة واشرطة تفصل بين السور بعضها وبعض تتضمن زخارف هندسية متاثرة بالفن القبطى الى حد بعيد . »

ان جلود الكتب فى العصر الاسلامى انما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على أوراق البردى المستعملة فيها .

وليس البردى وحده او زخرفة الكتب ، بل ان التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى .. ويضم المتحف الاسلامى الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية ..

بدا يشهد المسلمون .. وبروعة الزخرفة الاسلامية يشهد المسيحيون ، فالأستاذ بشر فارس فى كتابه القيم (سر الزخرفة الاسلامية) يقول (ما احسبك تلقى ملة كبيرة تحضرت فأنست باللطيف والدقيق من العمران ، تسلم سكناتها لأسرار دينها ، وتوثق اشاراتها باحكام مفروضة ، فوق ما أسلمت الملة الاسلامية وأوثقت) .

ومضى يفسر الزخرفة الاسلامية مستلهما روح الاسلام بما يشهد بتفوقه فيه ، كبار الفنانين المسلمين .

لقد استعان العرب بقبط مصر ، خارجها أيضا فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر أمير المؤمنين ، ويضيف « البلاذرى » فى فتوح البلدان مسجد المدينة فيما أعانوا عليه . وكأن الوليد يترسم خطا أسلافه الذين استعانوا بأقباط مصر فى اعادة بناء الكعبة قبل الاسلام .. وكأن مصر منذ بنى ابراهيم

واسماعيل بن «هاجر» المصرية ، الكعبة آلت على نفسها أن تكون البناء على يديها فعادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر بيبرس ، وفى العهد العثمانى ، وفى عهد محمد على .

ان اقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف فى الاسلام على مثال من حنية الكنيسة كما تأثر بفن مصر المسيحية فى الزخرفة والبناء قصر المشتى فى شرق الاردن الذى يلمح الدير الأبيض والدير الأحمر بسوهاج . ومن عطاء مصر للفن الاسلامى بعد المحراب : المئذنة والقباب . جاء فى كتاب فن مصر خلال العصور :

(ان فنار الاسكندرية الذى بهر العرب عند فتح مصر ، هو الأصل الفنى للمئذنة) .

ان السموق الذى يزهو به النخيل المصرى ، يتمثل فى عمود المعبد والكنيسة ومئذنة المسجد معا وكأنه شوق الى اعلى وتوق الى فوق .

لقد نهض المصريون اقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى — وهو العصر الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية — بالفن الاسلامى المصرى نهضة فيها من احساس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ما أضفى على فن مصر الاسلامية طابعا مميزا وشخصية فذة حتى ان بعض آثاره كمشهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الاسلامى أجمع

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى اشاد بها الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

يقول الاستاذ محمد شفيق غربال فى كتابه (تكوين مصر) ، (ان طرائق الفن القبطى واساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الاسلامية وصناعاتها وهذا دليل آخر على اهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر) .

لقد تعانق الاسلام والمسيحية حتى فى علوم اللغة والدين . فعن (ورش) المصرى القبطى الذائع الشهرة فى علم القراءات اخذ علماء الغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأزرق بن عمر بن يسار المصرى .

ومن رجال مصر من الأقباط الذين أسهموا فى التأليف فى علوم العربية وآدابها :

سعيد بن بطريق ، وبنو العسال وجرجس بن العميد المعروف بابن المكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) والمفضل بن أبى الفضائل صاحب (نهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

وبطرس أبو شاكر ويعرف بابن الراهب .

وابن كبر وهو شمس الرياسة أبو البركات .

وأسعد بن مماتى الشاعر الأديب صاحب الحظوة فى الدولة الأيوبية .

ان مصر لم تعرف الفتن الأهلية الدموية كالتى وقعت فى انجلترا فى عهد تشارلس الأول وانتهت بقتله ، والتى وقعت فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر ولم تنته بقتله فقط بل اشتد ظمؤها للدماء فاستباحت الثورة عليه ، القتل ، حتى اتت على أصحابها انفسهم. وما تخلل هذا كله من مآس فصلها الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) .

لم تعرف مصر الحروب التى دارت بين المدن اليونانية .. ولم تعرف مصر محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق وما وقع فى أسبانيا من الأحداث الدامية بسبب التعصب الدينى من أناس يدينون بدين الرحمة والمحبة والخير .

ان من يقرأ محاكمة الليدى جان جراى ملكة انجلترا يتبين ان الدافع القوى على اعدامها هو كونها بروتستينية حين كانت الملكة مارى التى حاكمتها كاثوليكية !! . اما التعلات الأخرى فمارى تعلم جيدا ان جان جراى ذات السبعة عشر ربيعا لايد لها فيها ولا مطمع لها ، كان ، فى العرش .

لقد عرفت مصر حياة التدين ، ولكنها لم تعرف التعصب فى الدين أو الضغن بسببه فسلم الدين فيها كما يقول الاستاذ العقاد — فى كتابه عن (سعد زغلول) — (من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية الا أن يتسلل اليها من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة) .

يقول الاستاذ العقاد (ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية .. فمن الحقائق الواضحة ان المسلمين والمسيحيين ، سواء ، فى تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى **الأصالة والقدم** عند الانتساب الى هذه البلاد) .

ويقول الدكتور سليمان حزين فى بحثه عن (سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسي) كما اشرت ، ان الطابع الجنسي العام للمصريين قد وحد واتخذ صورته المميزة قبل ان يكون هناك اقباط ومسلمون .

رحم الله الشاعر ولى الدين يكن حين قال :

ابنى المسيح واحمد انتبهوا
ودعوا رجالا منكم هجعوا
ارواحكم من بعضها قطع
وجسومكم من بعضها بضع
لا تحسبن خلافكم ورعا
ان التلافكم هو الورع

ان مصر مسلمين واقباطا مثال التجانس **الشديد والفريد** فكل من الأغلبية والأقلية على حدة ، كما يقول الدكتور جمال حمدان (لا يعرف أو التشيع التشرزم الطائفى ، والكل يؤلف وحدة وطنية على **درجة نادرة من التماسك فى الوطن العربى** . وباستثناء لبنان ربما ، فان مصر هى البلد العربى الوحيد الذى لا يعرف القبائل ولا القبلية ولا مشاكلها السياسية والاجتماعية التقليدية . ولهذا فان مصر بتجانسها ووحدتها تتحرك ككتلة واحدة عادة دون ان تعرف الانقسامات والشظايا التى تفكك كثيرا من الشقيقات العربية ، مما يمنحها ثقلا فعالا ووقعا يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها . ولهذا فان الاستقرار السياسى ــ حتى فى ظل الاقطاع ــ سمة واضحة تتباين بسهولة مع احوال المشرق العربى مثلا . وفى النتيجة فان مصر اقوى قوة فى العرب مرتين مرة بمطلق حجمها، ومرة بتجانسها المطلق) .

تجانسنا لأننا مصريون أولا ... لأننا ننتمى الى هذا التراب اولا واخيرا ...

تجانسنا لأننا كما قلت مصريون قبل الأديان وبعد الأديان ...

وسنظل مصريين ومتجانسين ، بمشيئة الله ، حتى آخر الزمان .

سلبيات الشخصية المصرية

- اختلال المفاهيم
- التقليد
- افتقاد القيم الحقيقية
- الخوف
- النفاق
- الفراغ والهدر
- الأمية
- المبالغة بين التهوين والتهويل
- ضياع الفرد

اختلال المفاهيم

لقد كتبت عن خصائص الشخصية المصرية ومزاياها من ولوعى بمصر .. ولكنى اليوم اتحدث عن الجانب الآخر من الشخصية المصرية، من ولوعى ايضا .. فالمحب الصادق يغار على حبه الكبير من النقص او ما يلحق به من عيوب ... عن الانسان المصرى اتحدث باحساس الولى الذى يرى العيب عيبه ، عليه كصاحبه ، محسوب .

المواطن المصرى عيبه **فردية متضخمة مريضة** المسئول عنها البيت المصرى ... فردية نعانى منها فى صور مختلفة ...

ان الشخصية وعى بالقيمة أما الفردية فوعى مفرد بالذات . وان الوطنية ليست اخذا بل التزاما بالاضافة الخلاقة الى رصيد الوطن من القيم ... فالقيمة تولد فى اعطاف العمل ... أما الوطنية التى تستعلن فى التعصب المجرد للمكان ، فوطنية بدائية يشترك فيها الإنسان والحيوان والطير .. ولكن أن يحتوى الانسان المكان، ويهب نفسه للمكان بما يعطيه من ذاته فنا وخلقا وعلما وروحا فتلك هى الوطنية بمعناها الرفيع ...

هذا المستوى من الوطنية لا يأتى بالادعاء .

او القصر

أو القصد

وانما بالوعى بالمكان والتاريخ .

وانسان بلا وعى ، انسان بلا شخصية . فعندما يكون الوعى خلاقا للقيمة فهنا تكون الشخصية فى طريقها الى قمة .

* **السلبية** فالمواطن المصرى يلذ له أن يحترف النقد والثلب كأنه خلق كاملا ..

ان الذى يرى عيوب الناس دون عيوبه انما هو فى الحقيقة يرى عيوبه مكبرة ... كبرها هو ليستريح حين يقنع نفسه أنه الأفضل...

* من عيوبنا (شخصية الخولى) التى يتقمصها كل من وجد فى مركز السلطة .

* **سوء فهم التقدم والتخلف** حين يحصرهما فى الوسائل والموضة . ان **التقدم** يقاس بان المجتمع اذا غاب فيه فرد لا يملأ مكانه احد .... هذا معناه ان كل انسان فى مثل هذا المجتمع له شخصية متميزة ... له قيمة ... انسان عنده الرغبة أن يحقق أمل الحياة فيه ...

والتخلف انيعدم الانسان المسئولية . ويسلم او يطلب التبعية ... أن يسلم الانسان نفسه لانسان مثله يطعمه ويسقيه ثم يدفنه فى النهاية .. فرد فى قطيع وراء الراعى .

حتى التبعية الفكرية نوع من الأسر الخفى . نحن فى مصر نحتاج الى **التحرر** منالتبعية الفكرية . والتبعية من قيود العصر بمحدوديته .

ومن أخطاء التبعية الفكرية ، افتقاد الوعى الدينى ... ان الدين يريد الحيوية والشعور بالعزة . فلا اله الا الله ينتفى معها تقديس انسان . أما الحيوية فتفسرها الآية (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) ٦٦ م الانفال ٨ ...

ومن هنا نضعف حين ننسى الله وننسى الدين (نسوا الله فانساهم انفسهم) .

ومن عيوبنا ، **التواكل او الاتكالية** نقول (ان شاء الله) ونعنى فى قرارة نفوسنا التخفف من العمل المقصود . أن هذه المشيئة ان هى الا تأكيد للعزم فأنا سوف افعل كذا ثم هناك صمام أمن لما يطرأ مما لا قدرة لنا عليه . ولكن قائلنا يقولها حين ينوى الا يفعل متهربا .. وفى مشيئة الله عن الكذب منتدح .

والتواكل صفة يمثلها تعلق القرية بالمشيخة ... **ان الشيخ تعمله القرية ثم تصدقه** .. وبعد ان يستقر له الأمر فى مفهوم الناس ونفوسهم يأخذ وضعا ممتازا فياكل الأحسن بمزاج الناس ، ويعيش احسن برضا الناس . وقد ينتبه واحد فيطلق المثل (رزق الهبل على المجانين) ولكن حكمته تضيع فى الزحام .

كل هذا من أجل أن يستشعروا الراحة فى (ضمان) لحل مشاكلهم ... مع أن الشيخ يحل المشاكل بالطريقة التى تروقه هو وتنفعه هو ... وقد تنفعهم أحيانا بالمصادفة أو الايحاء ... وكثيرا ما تضرهم وتكلفهم أفدح الثمن ...

أن حضارتنا زراعية والزراعة تحضير الأرض للبذر وتحضيرها فى الوقت نفسه فى محاولة رقى الى ذرى القيمة ..

حتى الصيد سعى ... تحرك نحو المطلوب لا بلهنية ذلك العاشق فى أغانينا الذى يقول (يا مين يجيب لى حبيبى) وهو مسترخ فى كسل لذيذ أو بليد ... أو ذلك الشاعر الذى يقول (يا رايحين الغورية هاتوا لحبيبى هدية) وهو جالس فى الشمس .

اننا نذكر أمراضنا الفسيولوجية وننسى مرضا خطيرا هو **مرض الراحة** مرض الاسترخاء الفكرى ...

لقد قاد سعد زغلول ثورة ١٩ وهو شيخ .

اذن العجز غير العجز . (بفتح الجيم)

والجسم غير النفس .

(خليها على الله) ظلم ا « الله » ثم للوطن للنفس . هذه الاتكالية تتسمح بالدين وتفضى فى النهاية الى التخاذل والتفسخ حين يفقد الانسان تماسكه وطموحه .

ان الايمان والوطنية دعوة لا دعاية .

ومن عيوبنا أو مشاكلنا ما نتصايح به كل يوم : **انفجار سكانى** واعجاب المراة المصرية بحشرة ذبابة الفاكهة ... **المواصلات** .. **الزحام** .. وأرى المصريين عددا محدودا ... قلة ضئيلة ... اقصد المصريين الذين حققوا هذا الاسم الغالى ... حققوه فى انفسهم ... وحققوه فى اعمالهم ...

كثير من بيوتنا مفروشة ونفوس أهلها خالية خاوية مهجورة ... لم تفرش ... لم تعمر بالقيم الحقيقية ..

لأن حضارتنا زراعية ، فان النبات استاذ النفس المصرية منه تعلمت صفات **العطاء والصبر وتجديد الذات والاستعلاء** على الألم ..

الشيء الذى لا نعيه ، كما يجب ، من الثبات هو الهدوء ... ان نفوسنا بعد سنى الخوف والألم ، مبعثرة من الداخل .. منكوشة كالعهن المنفوش ... لهذا لا توحى الصمت لأنه أصلا ليس ساكنا فيها ... نسيت معانيه ومواضعه .. ونسينا ... ان تمثال رمسيس فى المحطة لحن كبير رائع لو أدرك السائرون فى ميدان المحطة كنهه لساروا على أطراف أصابعهم .. ولكن ما الذى يحدث فى ميدان المحطة اليوم ؟

ومن عيوبنا الفخر بانفسنا الى حد الطنطنة او التهوين من انفسنا الى حد فقدان الثقة ... وفى الحالين تهتز الرؤية ويضطرب الحكم الصحيح على الأشياء .. ان الانحصار فى آطار الذاتية ، بدائية فى التفكير حين تكون الحضارة ؛ ارتفاع الى افق الموضوعية ... كما أن المهانة والاستهانة تطفىء العقل والقلب خاصة اذا كانت بتركيز مكثف من الغير .

يقولون ان المصريين بالأمس القريب كانوا يسعون الى دفع البدل ليفلت أبناؤهم من الجندية ... ونسى هؤلاء أن العادات واحدة فى كل الأمم ولكن الفرق فرق نمو . فما تتعالى عليه أمة من العيوب وتعير به غيرها انما كانت تفعله بالأمس القريب من قرن أو قرون ... أن أسطول نلسن وهو مفخرة انجلترا ، كان الانجليز يسكرون عساكرهم ليوقعوا للاسطول الانجليزى على عقد يربطهم به .. فقد كان بعض الانجليز يلجأ الى قطع أصبع من أصابعه ليفلت من بحرية الامبراطورية .

وحدث ان انكسرت براميل النبيذ فى اسبانيا وسال ما بها على الأرض . فنام جنود جيش ولنجتون بطل واترلو ، الذى هزم نابليون، ناموا على الأرض يلعقون النبيذ المسكوب !!

كل أمة لها عيوب ولها حسنات ولهذا يحسن بنا الا ندافع بالنفى ولكن بالمقارنة .. والمقارنة تكون على المستوى النظير ارتفاعا وانخفاضا فلا يقارن الأوربى علما من اعلامه بالبوذى الهندى ولكن يقارنه بغاندى مثلا ...

عندما اتهمنا الاستعمار ليوهمنا بالعجز ويورثنا التخاذل ، تعددت ظواهر الاتهام فينا ورمينا انفسنا بالنقص فان رأينا ناجحا لا نعد نجاحه عملا عاديا أو ذا اسباب معقولة بل هو عندنا طفرة ووثبة واعجوبة واثر محاباة ومحسوبية . واذا رأينا فاشلا لا نرد فشله

الى سبب ... والى هذا المعنى يرجع اكثر عيوبنا فى الحكم كما يرجع اليه أكثر عيوبنا فى الحيــاة والتصرف ، فنحن لا نثق فى ديمقراطيـة الحكم لأن الديمقراطية أساسها ثقة الفرد بنفسه وبكيانه وبحقه . وقد اميتت هذه المعانى فى نفس الانسان المصرى . وليس من السهل أن تطلب من المطحونين ، بين يوم وليلة أن يفهموا هذه المعانى .. فتطلع الكثيرون الى الآخرة تهربا من الدنيا . ولما كان الزهد اقرب طريق الى الاستعلاء فقد تعددت أسبابه وكثرت مظاهره من مخرقة وحرمان وعجز ، وكان لهذه الغيبية أصداء فظهرت مذاهب ودعوات وفرق وطرق للصوفية واشاير . وازداد الاقبال على الأضرحة . وتسرب الخطأ فى المفاهيم ، الى مفهومنا للولاية والأولياء .

حتى شــكوى الزمان صــــورة لفهمنا الخاطىء للحياة فبيننا من يتوهمون انه لا يدوم سرور أو حزن . ولهذا ظل واثر مالق فينـا الى اليــوم . يضحك المسرور منا ثم يقول : اللهم اجعله خيرا ، كأنه يتوقع الشر ما دام سر حينا ! وكأن الشر فى أعقاب الخير : لماذا ؟!

ركام من الهموم عانى منها الشعب المصرى والانسان المصرى .

وموقع مصر الجغرافى المادى وميزته التى تطمع فيه الطامعين فى كل زمان ، عرض هذا الشعب لصدمات متتالية . فمصر بلد مفتوحة فلا جبال تحول دون العدو بل الصحراء صعبة تتميع المعارك فيها . وكان من اثر هذه البيئة أن عمد الشعب الى المصابرة والمــراوغة الى جانب المهاجمة والدفاع . يقتل الرجل فيبغته فى ظلال أعواد الذرة أو عيدان القصب .

ولما كان نظام الحكم فى مصر فرديا فى كل عصورها قبل أن تضع لها دســتورا ، وحتى بعــد أن وضعت لهــا دســتورا اذا اســتثنينا فترات قليلة تنتفض فيها فتعلن ارادتها وتقول كلمتها وتعبر عن رأيها ، ومثل هذا الوضــــع لا تستقر فيه الحالة الاقتصادية لأنها لا تخضع للتداول وانما تخضع للرغبة التحكمية المحضة . فاذا كان الحاكم حازما جادا ضرب على أيدى العابثين واستقر الأمر له . واذا كان ذا نظر عملى بعيد يدرك شيئا من حال البلاد المحكومة من الناحية الاقتصــادية عاد ذلك بالخير على الحياة . فالحكومة قوامها شخصية الحاكم اذا صــلح استقامت الحياة ، واذا استبد كان وبالا على المحكومين . وهذا يفسر شعور المصريين بان مفاجآت الدهر لا حــد لها ، ولا عجب فهم مهددون ليس عندهم من الضمان ما يجعلهم يمضون فى عملهم ليجنوا الثمرة أو

يجنيها بنوهم . ومثل هذه الحالة تؤدى الى شيء من النهم فى الحياة الاقتصادية والخلقية . وتغرى بالكسب بأى وسيلة مشروعة ، كانت أو غير مشروعة ، مادامت المسألة غلابا فلا توازن بين الفرص وانما الغرض هو الوصول من اقصر الطرق . والنتيجة الحتمية لذلك هى ايجاد فروق غير مهذبة ، ايجاد نظام الطبقات تحت اسماء مختلفة ، ايجاد طبقة غالبة وطبقة مغلوبة . والأثر الطبيعى لهذا كله أن تنقطع الصلة بين طبقات المجتمع وتتلوث الحالة النفسية للشعب فلا ثقة نفسية تقرب بعضه الى بعض او تشيع فيه التعاطف النفسى فيتدافع الى شيء من تواد أو تراحم يخفف من حدة غرائز التملك والاقتناء والسيطرة السائدة فيه .

وهذا الوضع المادى اثر للوضع السياسى وكلاهما اثر فى الوضع الأدبى . ومثل هذه الحياة التى تلقى ظلالا من الشك فى العدل تلقى فى الروع ان الأرض ليست مجالا لحق يسود لأن الثقة فى كل نظام ذاهبة، وتوهم ان الحياة الدنيا شقاء ومحنة والفرار منها امنية ، والنقص فيها محتوم . ولهذا الشك واليأس اثره العقلى والعملى والنفسى والوجدانى .

اما الأثر العقلى ، فيبدو فى ذلك الطابع الغيبى فى التفكير والذى يتمثل فى مثل قولهم عقب كل شيء .. هكذا اراد الله .

أما الأثر العملى ، فيبدو فى الخفاء والاحتيال الذى كان يسود الحياة فى مصر ، فالمهارة فى التخفى كانت الطريق الى النجاح فى الحياة العملية ، والرغبة فى التخفى لها انعكاسات فى الأثاث المصرى والأبنية المصرية الى عهد ليس ببعيد . ففى الارائك والاصونة سراديب متداخلة وفى البيوت القديمة لا ترى شرفات ظاهرة بل (مشربيات) حاجبة . فالحياة المصرية كلها كانت قائمة على هذا التخفى بل ان طاقية الاخفاء التى يتردد ذكرها فى اقاصيصنا هى انعكاس لهذه الرغبة فى التخفى .

والقرية المصرية تتجمع بيوتها وتتساند حتى ليسهل الوثب من سطح بيت الى آخر ، بينما القرية الغربية بيوتها متناثرة ، وتجمع بيوت القرية المصرية حتى لتبدو قطعة واحدة انما هو انعكاس للخوف اذا استنجد احدهم لبى الجميع .

اما الأثر النفسى ، فيبدو فى النفوس التى لوثها الشك والياس والحيرة ، يبدو فى النفوس التى سلبت الطمانينة والراحة ففقدت بذلك كل شيء واصبحت حياتها جحيما لا يطاق ..

اما الأثر الوجدانى ، فيبدو فى الأدب الذى اسـف فكذب حين مدح الظالم وهو ينقم عليه ...



هذه الحالة العقلية والنفسـية والوجدانية حدت الى اضطهاد الفلاسفة والعلماء ، لمحض التفكير . وقد قاسى جمال الدين الأفغانى والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الكثير ، مع ان الفلسفة الاسلامية قوامها التوفيق بين الدين والعلم ولكن الناس ليس فى نفوسهم ما يوحى الثقة بهذا ، هم لا يؤمنون بأن الحياة تجرى وفق نواميس ثابتة بل كل شىء عندهم قابل للتغيير ، والكون على حد تعبيرهم بين أصبعين من اصـابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء . والفن قائم على هذا وفيه منه أصداء .

واصداء هذا فى الفن ما نراه من شكوى الزمان ، ومدح الحـاكم المذنب فى الأدب الكاذب ، وترديد الشعب لمثل هذه الأسئلة (تبقى نار وتصبح رماد) و (ان حلى زادك كله ، كله) فالأدب العامى الذى هو ادب الشـعب وظل نفسـه ينم عن حيرة وقلق نفسى ينتهى الى التفويض والتسـليم بقضـاء الله . وما كان الله ليقضى بهذا ... واغلبنا لا يفهم المعنى الدينى فهما قريبـا . فان قرات عليهم (ليس للانسان الا ما سعى) فهموها الى جانب غيرها من آيات التوكل فتغلب عليها . والمحافظون من أهل الأديان يميلون الى انكار السببية ، فالآية الكريمة (الم تر أن الله انزل من السـماء ماء فاخرجنـا به ثمرات مختلفا الوانها) الباء فى رايهم للالصاق .. لا للسببية .. وهم يفسرون كل شىء يجرى تحت عيونهم بوحى هذه الغيبية التى يعتنقونها .

من عيوبنا الحزن الشديد عند الموت والاتيان بمالا يفعله شعب آخر من الشعوب .. ولكى تحكم على شخصية تعرف على موقفها من الحياة والموت . وهنا يقسو علينا الحكم من ظاهر ما نأتيه .. مع أن مصر فى عصر قـوتها تجاهلت الموت بعدم الذكـر أو تحدته بالارتفـاع فوقه ، **وبسرعة** ....

الحيـاة كلمـة غامضـة مبهمة عنـد الـكثيرين وكذلك الموت . الحياة والموت المعنيان اللذان لانعلمهما فى مدارسنا مع انه ما من مدينة فى العـالم فيها اضرحة بعدد ما فى القاهرة . ومصر منذ القـدم تزور الأضرحة . وما « الرحمة » الا امتـداد للقرابين .. ولـكن الأضرحة

القديمة أى المعابد كان فيها نقش وتصوير وموسيقى أى فرحة الحياة لا كآبة المقابر .. وبحس بعيد من هذا يقول الاستاذ العقاد .

اذا شـــيعونى يوم تقضى منيتى
وقالوا اراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملونى صامتين الى الثرى
فانى أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنـوا فان الموت كأس شـهية
ومازال يحلو ان يغنى ويشربا
وما النعش الا المهد مهدبنى الردى
فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا . تذكرونى بالبكاء وانما
أعيدواعلى سمعى القصيد فاطربا

ان الموت من الناحية السيكلوجية يضاهى الولادة فى الأهمية . انه هدف للحياة الكبرى على مستوى الكون لا المستوى الفردى .

انه نقطة التمام لا النهاية ويعجبنى هنا راى الهند فى الموت : ان الموت لا يقضى على الحياة ولكنه فقط يطفىء الشمعة لأن الفجر يؤذن بالطلوع .

نقطة التمـام لا النهاية .. ولهذا يجب ان يحقق الانسان ذاته وعمله قبله . ومن هنا نفهم الآية الكريمة ، ونفهم فهم الرسول عليه السلام لها : (اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضـيت لكم الاسلام دينا) .

والمتصوفة يدينون بالقول(مت لتحيا) ويســمون الموت **قطع العلائق** . فالذى خرج من الحياة ، ميت فى الظاهر .. ولكنه فى الحقيقة تجرد من الدنيا ... **وتجرد فوقها** ... يعرفها من عالم الروح .

حتى الجسم يتخلص من أوصابه ....

وما دام الموت نقطة التمام لمن عاش حياته فى ولاء وامتلاء ، ففيم الحزن الا على فراق ؟ .

ومثل هذا أو قريب منه نستطيع ان نقوله عن السن : فان من يحيا غرائزه فى الصغر ، يستطيع أن يستغنى عنها فى الكبر .. فلا يأس

على الشـــباب لأنه عاشه وترشفه حتى الثمالة بل يستقبل الشيخوخة باعتبارها مرحلة من مراحل العمر ليست أرذلها ولكنها أنضجها وأذكاها ... أعداها وارقاها ...

ان الشباب عافية البدن

والشيخوخة عافية العقل .

كان (يونج) يستعين بفكرة الخلود فى علاج كبار السن من مرضاه لونا من العزاء ولكن المسألة أكبر من هذا .

ان فكرة الخلود عملة نتعامل بها لا مع كبار الســـن فقط ولكن يجب أن نربى عليها اطفالنا حتى نعدهم للحياة باعتبـارها باقيـة ، وباعتبارها تحضيرا ومرحلة لحياة أخرى .. فلا يتساءل انســان عن جدوى العمل الطيب فى هذه الدنيا أو معنى الجهد المبذول ...

هنا يتضـاعف الكفاح ويحلو

ويعمق المعنى ويبين .

وفى ضوء هذا نشرح لأطفالنا اهتمام وطنهم بالموت والخلود ... وكيف كان اهتمامه هذا ، منطلقا ، لكل ما أبدعته حضارته .

الحياة فن ... اسلوب حياة .

والموت ايضـا فن .... بمعنى ان يهب الحى نفســه لمعنى كبير او عمل كبير .. اى لانجاز رائع ...

نظر تلاميذ سقراط اليه وهو يحاضرهم مازال ، والكأس أمامه مملوءة بالسم الزعاف تنتظره ليشربها ... نظر التلاميذ اليه والى الكاس وقالوا له :

ــ الا تحضر نفســـك ؟

فابتســم وقال : لقد عشــت طـول عمرى أحضر نفسى لهذه اللحظة ... اى أن يموت فيلســوفا ...

خالد بن الوليد كان يشتهى ان يموت بطلا فى ســاحة المعركة . فلما مات على فراشه قال : لم يبق فى جسمى موضع ليس فيه أثر سيف أو طعنة رمح .. وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء ..

اى ان موت القائد على فراشــــه ، غيره فى ساحة الشرف ..
الم اقل ان الموت فن ؟

ان المسيح صـــلب ام لم يصلب فهو مثال للتضحية والاستشهاد بجهاده ، واستعداده ، وفلسفة حياته ، ودعوته ..

وشهيد الحق فى كربلاء ، الحســـين بن على ابو الشـــهداء مثال لشجاعة الرأى والموقف والضمير ... ومن ثم مات قاتلوه وعاش هو بل عاشـــت باسمه الدول والملوك . وتجسد فكرة ، وتجسم معنى ، يطوف به وبطيف الانســـان ، والكلمات ، والتاريخ ... ثم يظل بعد كل الذى كتب عنه ، ونظم فيه ، اعلى واغلى واكبر ..

ومن عيوبنا اننا ليس لنا اســـلوب . ان اهتمامنا بالاســـتيل والمودرن يكشف عن فقرنا فى (الاسلوب) . لو أن لنا أسلوبه ما بحثنا عن طراز غريب .

قد يكون هذا لأن الاسلوب عزيز المنال لا يصـــل اليه الانسان الا فى ذروة وعز ... لا يصل اليه الا فى تكامل نموه النفسى حســـب ظروف زمانه ومكانه ...

ومن هنا نهوى التقليد .

التقليد

ان مصر فى عصـــور قوتها كانت القوة عنـدها ترتبط بالريادة والابتكار والابداع ... حققت هذا فى الدين والعلم والفن مما يشهد به جوســـتاف لوبون فى كتابه عن تطور الامم والتحولات فى فنونها .

فى هذا الكتاب قال المنصفون بسبق الحضارة المصرية وتفوقهـا وتالقها وتقليد الاغـريق والفـرس وغيرهم لها تقليد ظل متواضـعا ومتطلعا ، بضعة قرون .

ولكن مصر فى عصور الضعف لا يرى اهلها غضاضة فى تقليد الغير ... ففى القرن التاســـع عشر كان البيت المصرى يطلق على الشىء الذى يحلو فى عينه (عصمللى) نسبة الى الاتراك العثمانيين ، وفى القرن العشرين ، الحلو ، الأفرنكه ثم مستورد . اما الوحش فهو (بلدى).

ونسينا ان التقليد قتل للذات ومسخ للآخرين ...

لســـت ضد التطور والنمو فان ميزة مصر الأولى انها أول بلد بنى لنفسه شخصية ظلت تتطور وتنمو عبر العصور فى تواصل وبلا انقطاع .. ومع وجود النكســـات والهزمات والكوارث .

انفتحت على ما عند الغير واخذت واعطته .. ونمت به ونمته . فالبلد الواعى كالانسان الواعى يتغذى بما فى الثقافات كلهـا توسـيعا للوعى وتعميقا للأصالة ومددا للخلق ....

فعل هذا الاسلام حين انفتح على ما كان متاحا فى وقته واخذت الشـــخصية الاسلامية واثرت واعطت عطاءها من خـــلال رؤية لها جامعة .

لقد تأثر الخط العربي الكوفي بالصين في اختامها دون ان يقلد وبهذا تحولت العطايا الصينية الى هدايا اسلامية .

ان التقليد مسخرة اذا عرفنا ان هذه الكلمة جاءت من كلمة Maskarade اى التقليد المضحك .

نستطيع في الأدب والفن والصناعة ان نطوف بالعالم كله ونرى ونتعلم ويتسع وعينا ونهضم ونتمثل دون ان نفقد خاصيتنا الأولى اى نطوف بالكيان المصرى فينا ...

فليست المعاصرة عزوف كامل ومتعمد عن المألوف .

وليست الجدة قلب الصورة دون عطاء حقيقى .

وليس التجديد رموزا سطحية .

وليس التقليد علامة تطور أو طلاء ... لأن الطبيعة غنية » لا تستعمل ورق كربون بل تخلق وتجدد دائما الا فى القوائم المتطابقة .

ان التكعيبة مثلا نشأت عن ذكاء الانسان الأوربى ، مع الانتاج الصناعى الآلى ، وفى المدينة التى يعزلها الاسفلت عن التربة ، وفى جو يشبه انبوبة الاختبار ....

فى هذه البيئة أطل سؤال : اين تكمن فنية الفن ؟

وكان الجواب : فى علاقة الأشياء بالاشكال . اى التكعيبية .

وهنا مضى الانسان الأوربى والباريسى خاصة يحرر الأشياء من المعنى . وكانت النتيجة : ثورة تسمى السريالية التى طرحت اسلوب النسب المحسوبة وحاولت الاهتمام بالمعنى الى حد تجريده من الشكل !!

هل مررنا نحن بهذه الملابسات والاعتبارات حتى نقلد التكعيبية أو السريالية ؟

لقد حاول جيته وليوناردو الارتقاء بأوربا من العقلانية الى ما وراء حدود الذهن ، حين حاول غيرهم الخروج من العقلانية بالوقوع فى اللامعقول لانهم عجزوا عن الشمول حين ربوا على التحليل وحده فلم يعرفوا كيف يتكاملون .

ان أزمة بيكاسو افتقاد التكامل .. انه يرود آفاقا كثيرة ولكنه من باب الشىء وضده . حين تحاول لوحات ليوناردو الجمع بين :

الظاهر والباطن
الانسانى والكونى
العملى والفنى
اى حاول دافنشى التكامل .

ويكاد يكون طابع اوربا هو العزوف عن هذا التكامل كما لو كان العكس هو المقصـــود .

ولأمر ما لاترتاح الشخصية الغربية الى الاستقرار كأنها تخشاه . ... فجاءت مذاهبها الفنية ينقض بعضها بعضا .. ولهذا لا تشفى النفس لأنها لا تعالجها من تشققها وهو داء ، دواؤه فى التكامل ... فى التوحد مع الكون والارتباط به فى روع المتدين وحب الصـوفى .

حـذار ان نقع فى خطأ « الطالب » فى « فاوسـت » حين نأخذ بالمذاهب الفنية دون فهم ، ولكن مصر حين ابتكرت قديما ، تبهر العالم الحديث اليوم .

لا نريد أن نمشى وجوهنا الى الخلف ولكن نمشى الى امام واعين بالخليفة التاريخية .. ان التقدم ليس مظهرا كأبله الف ليلة وليلة الذى البسـته زوجته وصاحبها لباسـا تركيا وهو نائم غافل ... فلما استيقظ ظن نفسـه تركيا وسافر من توه الى بلاد الأتراك !!

ان الكســاء الخارجى عارية لا يصنع شخصية ، ولا يكسب جنسية الا اذا كان نابعا منها ، منسـوجا من خيوطها اى ممثلا لها . ان العالم المتقدم ايضـا ، يعانى ثقافيا ثم ندعو الى التبعية الثقافية بدعوى التقدم !

نريد أن نكون قادرين على العطاء بلا تبعية، وبلا سلفية ، وبلا انعزال ... بلا نزعة عدائية لشرق أو غرب ... قديم أو جديد ... قادرين على العطاء قدرةيتجدد بها نبض الحياةفى بلادنا من وعى بكرامة الانسان، ووعى بالتراث ،ووعى ايضابتازم العالم المعاصر ثقافيا ومعنويا .. وعى بان وحدة العالم **لا تعنى مسخ الشـخصيات الاجتماعية او نسـخ التاريخ** .

فى محاولة اعادة الشخصية المصرية من جديد نقف وقفة عند **الدولة العصرية** التى نتنادى بها ... وهذا النداء يتضمن الاتجاه الى الغرب باعتباره الســابق ونحن نريد اللحاق به .. ومن الطبيعى

الاخذ بأحسن ما عند الآخرين . ولكن يجب ان نقف وقفة خاصة عند هذا الموضوع . فان الشباب يعيش فى وهم كبير اسمه اوربا ، حتى اذا اتيح لهم ان يذهبوا اليها ،وان يعيشوا فيها ، شهورا واعواما ، انسلخ البعض عن قومه ، ومزق الصراع البعض الآخر . ذلك الصراع الذى صـــوره الأديب يحيى حقى فى قصـــته (قنديل أم هاشم) .

وغير الشباب لا تزال المجتمعات الشرقية من رواسب الاستعمار عندها (عقدة الخواجة) يقابلها عند رجال الدين المحافظة الشديدة التى تصـــل عند البعض الى حد التزمت .

وفى صراع الدعوات والشـــعارات والآراء يعلو صوت الواقعية المادية والعلمية . ولست ارى من وراء هذا الحديث التهوين من قيمة الصـــناعة أو العلم الذى غزا الفضـــاء وترك بصـــمته على القمر .. أبدا ولكننى اريد وسط هذه التيارات الزاخرة ، ان نتفاعل مع الحياة والحضارة الحديثة فى تماسك يحفظ علينا شخصيتنا المصرية العربية الشرقية حتى لا يجرفها التيار فتضـــيع ... ونكون كذلك الغراب الذى تحكى القصـــة على سـبيل الرمز أو الحقيقة ، انه استهواه مشـية العصفور وقفزاته الرشـيقة ، فأراد ان يقلده بدون تفكير ، فانتهى أمره الى مشية مضحكة ذهبت مثلا ...

كما ان المحافظة التى اعنيها لا تتعارض مع رغبتنا المخلصـــة فى أن ننمى شخصـــيتنا ، وان نطورها ، وأن ننفض عنها غبار القرون والأحداث ...

لقد ظل الادب الانجليزى فترة طويلة من الزمن ، وعلى الاخص فى عصر (بوب) و (دريدن) متأثرا بالادب الفـرنسى ، وكان سـوينبرن Swinbarnes شديد التأثر بالشـــعر الفرنسى كمـــا كان كارليل Carlyle متأثرا بأدب المانيا .

ولكن تأثر هؤلاء بآداب غيرهم لم يفقد ادبهم قوميته وذاتيته ، بل زادته ثراء وعمقا .

وكان جوته شـــاعر المانيا العظيم يجيد اللغة الفرنســـية الى حد الاتقان ـ هذا الى اتقانه اليونانية واللاتينية ـ حتى قيل انه تردد يوما هل يكتب بالالمانية أو الفرنسية ، ثم اخذ يدرس الادبالعربى والفارسى. وفى السبعين من عمره طرح ثمرة عظيمة هى كتابه الفريد الذى سـماه (ديوان الشرق والغرب) . وترجم القرآن الكريم ، بل لبس العمامة

وارتدى القفطان ، وفى اوربا ، تشبها بحافظ الشيرازى الذى كان يحبه ويعجب به . ومع هذا ظل جوته شاعرا المانيا صميما يستلهم الشرق والغرب فى آن .. الصور شرقية والاحساس غربى .. توغل كما يقول احد الذين ترجموا له ، فى هذا العالم الشرقى دون ان يفقد شخصيته. فهو يتبع القافلة وهى تسعى على مهـل فى الصحراء ، ويسمع صـوت البلبل ونغماته الحزينة ، حول الغدران والينابيع، ويصغى لهذا بانتباه ، بل قرأ ترجمة المعلقات فى الانجليزية ثم حاول هو ترجمتها من تأرثه بها وحاول فيما حاول من معطيات الشرق ، الكتابة العـربية ليتغنى بالقلم العربى المسنون من القصب فى مقطوعته (القلم) .

كان جوته خير رد وابلغه على رد يارد كسيلنج الذى قال (الشرق شرق والغرب غرب وهيهات يلتقيان) .

لقد التقى الشرق والغرب بقيمهمـا فى جوته ... فى فكـره وفى سلوكه فى ديوانه الذى يقول فيه :

من حماقة الانسان فى دنياه .

ان يتعصب كل منا لما يراه .

واذا الاسلام كان معناه التسليم لله .

فاننا اجمعين نحيا ونموت مسلمين .

فاذا اضيف هذا كله الى ادبه وثقافته الغربية ، نشـأ من ذلك ازدواج موفق غاية التوفيق ، وكان بمثابة عهد جديد فى الأدب الألمانى ، فان الشعراء المعاصرين من الألمان لم يلبثوا أن أخذوا يقتفون أثره ، وانصرفوا عن اناشيد الحرب والقتال ، لينشدوا اغاريد الشرق ، وكان أشدهم تأثرا بجوته ، أو (بديوان الشرق والغرب) الشاعران : ركر ويلاتين .

ومتى ظهـر (ديوان الشرق والغرب) ؟ لقـد كان هذا مـا بين ١٨١٤ ــ ١٨١٩ فى وقت كانت المانيا تستعر فيه حماسة ووطنية كرد فعل لغزو نابليون لها .

هذه المانيا .. أما ايطاليا فان بعض الباحثين الغربيين يلمح أثر العقيدة الاسلامية فى البعث والاخـرة ، فى قصـيدة دانتى : الكوميديا الالهية .

التقى الشرق والغرب فى الحضارة الحديثة التى يعزوها (وايتهد) الى : اليـونان وفلسطين ومصر . من اليونان فلسـفة ، ومن فلسطين

النفيس حتى ليرى (يونج) فيها ، اشارة ... فتحويل العناصر رمز الى تحويل النفس ، ولأمر ما سمى الغزالى كتابه (كيمياء السعادة) .

ومن هنا ، اتخذ أحد المصريين المحدثين الكيمياء فلسفة وطنيته فاهتم بها درسا وعملا ، تعبيرا عن مصرية وأصالة ...

وهكذا مصر .. العلماء والفنانون يخدمونهـا .. (والهتـافون) يدوشونها ويزعجونها .

ان المادة مرآة الروح اذا عرف الانسان كيف يستشف المعنى من وراء المادة .. فنحن لا نهون من التقدم المادى الذى يزهو به الغرب . فالمادة فى ذاتها ليست رذيلة والشخص السيء ليس المادى ، ولكنه القاصر عن تحرير المادة من كثافتها ، والخروج بها الى شفافية المعنى . وهذا هو ما يفتقده الغرب .

ما هى دلالة المظاهر الصاخبة التى تقوم فى أشد بلاد اوربا تقدما ورقيا ؟ ان هذه المظاهرات تعنى افتقاد هذه البلاد للروح .. لا اعنى ان هذه العبارة تنسحب على كل من فيها .. ان الانصاف يقتضينا أن نقول ان طغيان المادة فى أوربا لم يطمس كل شيء فيها كما ان الايمان فى الشرق باعتباره مهبط الأديان السـماوية كلهـا لا يسرى فى كل قلب ولا يلمس كل نفس حتى وان أدت الفرائض فى ميكانيكية آلية فكم من صائم بيننا ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ، وكم من قائم ليس له من صلاته الا القيام والقعود .

ان الدين حسن الخلق وان الأعمال بالنيـات وان انفع النـاس انفعهم للناس ، وان العمل عبادة وان التفكير فريضة اسـلامية لأنهـا فريضة انسانية فضيلة أكرم المخلوقات ، وان احترام العقل الانسانى واجب دينى فهل ندرك هذه المفاهيم ونقدرها حق قدرها ؟ هل نطبقها فى حياتنا على المستوى الفردى والمستوى العام ؟

اننا نبسمل كثيرا ونحوقل ونشـيع العبـارات الدينية فى حديثنا حتى ليخيل الى من يرانا ان اطرافنا تقطر تقوى ولكننا فى بلاد القبلتين والمسجدين والأنبياء والرسـالات نجد ان الأعم الأكثر من المستشفيات والملاجيء والمدارس من عمل الحكومات لا الأفراد الخيرين .. ان اعظم عمل يقوم به الفرد الغنى منا فى نظر نفسـه اذا هزته اريحية ان يبنى مسـجدا والمسـاجد كثيرة والاسـلام لم يحصر العبادة بين جدران أربعة .

ولو فتشت فى التاريخ لوجدت ان عصر بناء المساجد الكثيره هو أشد عصور التاريخ الاسلامى ظلما وعسفا واستبدادا فأكثر مخلفات المماليك فى مصر كانت المساجد ، والمماليك هم من هم ، كما نعرف ، فى الجور والنهب ، والسلب ، واستباحة الأنفس والأموال . فبناؤهم المساجد ما هو الا تغطية أو تكفير عن الذنب .

فنحن فى سبيل الاحتفاظ بالنظرة الموضوعية وتوازن الشخصية الفكرية يجب ألا نعمم الآراء بغير استثناء وألا نطلقها اطلاقا مسطحا يحجب الأعماق ويحجب معها حقائق كثيرة .

نحن نشكو اليوم من أمية العقل ونغفل عن امية اخرى لا تقل عنها خطرا وهى امية الشعور .. حين تعمر أوقاتنا بالأمس القريب والبعيد بلفتات انسانية مضيئة فهناك وقف على الخدم الذين يكسرون بدون عمد آنية مخدوميهم وهناك وقف على الحيوان لأنه اعجم لا يبين وكثير غير هذا مما ينم على رهافة الشعور وشفافية النفس .

اقول هذا حتى لا نستنيم الى القول بان الشرق روح والغرب مادة ففى ذلك الغرب امثال اللورد نافيلد الذى أنفق الملايين حقيقة لا مجازا على اقامة المستشفيات والملاجىء ووجوه البر الايجابية .

وفى الغرب المادى أمثال العالم الفرنسى جان روستان الذى اثبت فى ابحاثه وجود عالم الروح وأعلن عن وجود قوة خفية تسير الكون .

وفى الغرب المادى متصوفة مثل سويدنبرج يلتقون بالحلاج ورابعة العدوية .. وفى الغرب المادى زهاد كأبى العتاهية يصلح شعرهم الروحى غذاء للنفوس كالشاعر الانجليزى وليم بليك .

وفى الغرب المادى اسر كبيرة وكثيرة تحافظ على اداء الفرائض الدينية محافظة دقيقة بل فى الغرب أسر تنذر احد ابنائها الله فتجد قسسا ورهبانا ينحدرون من آباء ذوى مراكز مدنية مرموقة .

واسر اخرى محافظة لا تسمح بالاختلاط المفتوح على مصراعية ولا تبيح الجلسة او الرؤية الا فى نطاق الأسرة او وجود احد المحارم . وقصة اقتران لوس باستور بزوجته خير شاهد على هذا .

ان ستيفان زفيج فى مذكراته يعزو رقى العلم فى فرنسا الى الزوجة الفرنسية فهى بما تبذله من ذات نفسها لتوفير الراحة لزوجها انما تمنحه السلام النفسى الذى يعينه على الانتاج والعطاء .

ولكننا ننسى هذا كله أو نتناســاه ولا نذكر للمجتمع الغربى الا الخلاعة المحصورة هناك فى مناطق معينة ، والا نظام التسرى الذى مكن له هناك استحالة الطلاق ، حين نغفل اخطاءنا واحيانا عن عمد بدعوى الوطنية مع ان المرء مرآة اخيه .

اليســـت النظافة فى ديننا مقرونة بالايمـان بل هى منه حتى ليخيل الى من يقرأ النصوص والتعاليم ان الدين سداه ولحمته النظافة والحياء فهل نحن حريصون على مظاهر النظافة حتى فى أنفسنا ؟ هل من الحياء فضولنا غير النافع الذى يدس انفه فى ثقب كل باب وينفق من وقته فى جمع الأخبار الصغيرة ما او انفقه فى تحصيل علم أو جنى معرفة لأثرى شخصياتنا فتغير الكثير من اساليبها فى الحياة ، وتعـدل تبعا لهذا التغيير الكثير من مفاهيم مجتمعاتنا واختفى الكثأ من امراضنا الاجتماعية وتقدمنا خطوات نحو حياة أفضل ؟

ان تقديس العمل واجب ، كما ان تقدير العاملين واجب أيضا . فهل نحن وذوو المرتبات منا خاصـــة يلتزمون الأمانة الواجبـة فى تأدية اعمالهم ؟ وهل عندنا نظـام الحوافز الذى يكافىء الجهود المخلصـــة ويستحث الجهود التى على الطريق ؟

ان الذين رأوا منا الغرب على الطبيعة وتعمقوا الأشياء والدلالات عرفوا كيف يميزون الحدود الفاصـلة بين الخير فيه والشر وعرفوا كيف يأخذون أحســـن ما عنده ويضيفونه الى أحسن ما عند الشرق لينصلح أمره ويبصر طريقه فى غير تشبيط أو تضليل من دعاوى استعلاء أو غرور .

ومن هنا قامت نهضـــــة الشرق على أكتاف رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ثم أكتاف تلاميذهم من بعدهم .

بل أن الشيخ محمد عبده كان يقول بعد ان عايش الغرب حين كان يحرر (العروة الوثقى) فى باريس :

(ان أهل أوربا هم مسلمو هذا العصر .. أما نحن فكفرته) .

قد نكون معذورين فى نظرتنا الى الغرب بمنظار اســــود فان الاستخراب ولا أقول الاسـتعمار قد اوث فكرتنا عنه واورثنا البغض الشـــديد لكل ما هو غربى — وان كان بغضنا يقف فى الطرف الآخر متحمســـا لكل ما هو غربى كرد فعل ، أو لون من الجمع بين الشىء ونقيضه ، أو لاعتبارات شتى من نوعية الثقافة أو النشأة . قد نكون معذورين ولكننا فى مقام تقويم أنفســنا وتمييز ذاتيتنا يجب أن نحرر

ارادتنا وعقلنا من أسر النظريات الشائعة والأقوال السائدة ونعيد النظر فى كل شىء فى موضوعية وتجريد علمى نزيه

ان ابن البلد عندنا فلسفته ان يتعامل مع الوجود بغير بحث مكتوب .. اسلوب حياة ... وهو يكره التعقيد والتقليد ويجمع هذا قوله لمحدثه اذا تقعر أو تشدق : بلاش فلسفة وهو يعنى بلاش بغبغة ....

ان داخل كل انسان مبدأ للحياة ، قد يولد انسان ويموت دون أن يكتشفه ، ولكن هذا لا يعنى انه غير موجود ... وواجبنا ان نعين النشء على الانبعاث السلوكى على مستوى الأفراد ، ونعين الأمة على الانبعاث السلوكى على مستوى الجماعة ....

ومن هنا يتحدد موقفنا من حضارة الغرب ... بمعنى أننا نستطيع ان نستعين بعلوم الغرب وفلسفاته وبالوسائل الحضارية دون ان نفقد ذاتيتنا . فرجلهم (يونج) يقول (لا يمكن للانسان ان يصير غنيا بالاستجداء)

ان التعارض بين الشرق والغرب ، فات وقته كما يقول الاستاذ مريت غالي (لأن تعارضا اخطر قد برز فى مقدمة المشاكل العالمية ، هو الناتج عن مسافة الخلف بين البلاد الشمالية المتقدمة والثرية ، والبلاد الجنوبية المتخلفة والفقيرة ، وما التعارض بين شرقنا وغربنا فى حوض المتوسط سوى جزء من ذلك التعارض العالمى بين الشمال والجنوب، الذى يتوقف على حله مستقبل الجنس البشرى . وانى أوافق تماما على ان ثنائية الشرق والغرب قد فات وقتها ، ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين) .

نريد ان ننظر الى الحياة نظرة مستقبلية لا تجذبها الى الخلف والتخلف سلاسل الأوهام .. وذلك من أجل مصلحتنا نحن قبل الآخرين ...

نريد أن نتعامل مع الحياة فى وعى بأن مستقبل البشرية اكبر من ماضيها ... وعى باستعادة الذات الأصيلة مجددة ومعاصرة ... وعى بأمانة الوطن وقيمة المواطن .

افتقاد القيم الحقيقية

حينما عاد النبى عليه السلام من احدى الغزوات قال :

عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر .

ولما سئل عن الجهاد الاكبر وهل بعد الحرب جهاد قال : جهاد النفس .

واليوم عاد الانســـان المصرى من الضفة الشرقية بعد أن عبر مانع الخوف والهزيمة والسلاح فما الذى يجب أن يأخذ نفسه به ليحمى انتصاره ؟

الجواب فى كلمتين : العبور المعنوى العبور النفسى العبور الانسانى أى العبور الثقافى ، فبغاه لا يجدى انفتاح اقتصادى أو سياسى ، ولا يؤمن العبور العسكرى الذى تم . ان امية الشعور وامية الفكر تهدم كل بناء فى أى مجال .

والعبور الثقافى رؤية وخطة .

انتقال من نقد الغير الى نقد الذات للتخلص من عيوبها التى تتجمع لتشكل عيوب المجتمع .

وسؤال النفس ماذا قدمت ؟ انتقال من البكاء والاستعلاء الى البناء الخلاق ..

ابصار بعد عشوائية ، وتركيز بعد ببغاوية .

وعزوف عن الارتجال الى المنهج

تخلص من الفردية والسلبية للخلوص الى القيم الحقيقية للحياة واهمها الحرية .

والحرية ترويض ورياضة وروضة .

وهي تتطلب العميق من الوعي والعمل الدءوب حتى لا تتحول الى شعار أو ستار .

والحرية لا تتسق ولا تتفق مع الأسر من اى لون ودرجة . وهذا يتطلب أن يكون للانسان (كرامة) أى أن تكون له ، قبلا ، شخصية . ... أن يكون داخله منظم لسلوكه واختياره ... أن يكون ناضجا والناضج له شخصية واحدة وانتماء واحد . وغير الناضج بداخله عدة شخصيات فهو مشقق مشتت .

الحرية ليست هبة ولكنها هبة .

ان الحرية انتفاء للآلية ونفى للاضطرار يتحقق هذا المعنى فى الانسان بل الجماد . فالخط المستقيم نقطة متحركة فى اتجاه واحد ففيه معنى الآلية أما الخط المتموج فهو أكثر حرية ، لكن الجمال فيه رتيب فيه بعض آلية داخل حريته .. وتزيد الحرية باختلاف الموجة بين ارتفاع وانخفاض .

وحين نسأل السؤال التقليدى هل الانسان مسير أم مخير فان معنى مسير ضد الحرية .. انما الحر هو المخير . مثل هذا الانسان اذا فعل فقد اختار .... ان التصميم هو الوضع باختيار ..

الحرية نمو على مستوى الفرد والمجموع .. أن عز الانسان الأول اعتمد على ذاكرته ، وقد بدأ مرحلة التحضر عندما بدا يحرر رجليه الأماميتين أى يديه ... ولما تفرغت اليدان وبدأتا تعملان فى حرية بدأ المخ ينمو ... والثقافة نمو النفس المتحررة من الخوف والعقد بحيث يكون لديها من الادراكات والمنجزات والطرح ما يمكن ان يتاح للنفس الانسانية الراقية .

ومن الحرية بل من الوطنية ان نحب الحرية لغيرنا ... ان وطنية المستعمرين « أنانية قومية » ... لهم الغنى والديمقراطية والحرية .. وللشعوب المغلوبة الفقر والاستعباد والذل ... ولا يستحون بعد هذا أن يتشدقوا بحقوق الفرد وحرية الراى واحترام انسانية الانسان — وهم يعنون الانسان الأبيض بالطبع — اما احترام انسانية الشعوب فموضوع آخر .

قتل امرىء فى غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

وطنية ان نحترم أوطان الآخرين كما نحترم وطننا ... لقد دعا حمال الدين الأفغاني الى الحرية فى غير وطنه ، وثار « توم بين » على الاستعباد فى كل مكان حتى لقد ألب الأمريكيين على الاستعمار البريطانى وهو الانجليزى مولدا وهوية لأنه كما يقول هلد جارد هورثون :

(الدنيا وطنه والحرية رايته) .

والحرية التى اريدها لا تتعارض مع الأديان بل تتبثق منها بما كرمت الانسان ودعته الى التفكير . ان بيننا من يفهمون الحرية بمعناها الضال والضئيل . الحرية ليست الحرية السياسية والاقتصادية فحسب ولكنها بالدرجة الأولى **الحرية الفكرية** .

والمطالبون بعدم الحرية كالمبتلى المكروب الذى يرفض الحياة ، فينتحر .

ان المسيحية ليست عقيدة وكفى بل درجة من درجات النمو الروحى .

والاسلام ليست عقيدة فحسب ولكنه درجة رفيعة من درجات النمو الروحى .

والحرية ليست شعارا ولكنها درجة من درجات النمو الروحى تحترم معه ذات الانسان .

ان فرصة العمر هباء ان لم تستخدم فى تحقيق القيمة بأن يكون للانسان فى وطنه عمل ومكان ورأى وارادة ... انسان له وجود حقيقى لا تعدادى . انسان له اسلوب حياة . انسان محسوب على العطاء لا على المواصلات والتموين .

والحياة بدون القيمة لا تطاق .

والحضيض حيث تهدر القيمة وتستباح .

قيل لبطل احدى المعلقات السبع :

ـ كر ياعنتر .

ـ العبد لا يحسن الكر .

ـ كر وأنت حر .

وهنا ملأت بطولاته احدى المعلقات ...

الخوف

لقد عشنا مع الخوف حتى **بتنا نخاف من انفسنا** ...
وفى محاولة التصالح مع الآخرين لابد أن نصطلح مع انفسنا .
فالصلح مع النفس هو التوحد فلا انقسام ولا تشتت ولا عراك داخلى ،
ولا خوف ينعكس على الخارج فيورث صاحبه الخوف من الآخرين
لأنه قبلا ، خائف فى نفسه .. خائف من نفسه .. خائف من
الناس ...

الانسان المصرى مؤمن بطبعه وطبيعته لأن حضارته دينية ولكن
الخوف الذى طحنه فى السنين العجاف حرف فى مفهومه معنى الدين
.... ان الايمان هو ما استقر فى القلب وصدقه العمل ..

ان مصر معناها : دين + عمل .

وفى عصور الكلال والخوف كان الكلل الخائف يتسرب الى الدين
فيغدو ظاهرا ومظهرا .. والى العمل فيغدو مسخا وقميئا ...

ان الفرد فرع فى شجرة المجتمع لا تقوى الشجرة الا بنمو
الأفرع .. والنمو هنا لا يتحقق الا فى الطلاقة والارادة الخلاقة والحرية
المسئولة الراشدة ...

ان الانسان البدائى هو الذى لا شخصية له لأنه يعيش فى
قطيع ويتملكه الرعب أن خرج على عرف الجماعة التى يعيش فيها ...
هنا تأتى الأديان فتنظم نفس الانسان وتمنحها الاستقلال النفسى
(افعل ما يطمئن اليه قلبك وان افتوك وافتوك) ... يمنحها الطمأنينة
النفسية التى تجعل « بلالا » يعذب اقسى واقصى العذاب فيقول : احد
احد . ... لقد اطمأن الى عقيدة يهون معها ويهون معها بعدها كل
شيء ...

ان البطالة ليســـت بطالة اليد وحدها فاقسى منها بطالة العقول بشـــل التفكير ، وبطالة القلوب بقتل المشاعر ، وبطالة العيون بطمس الرؤية .

ان اقسى وصـــف فى القرآن الكريم الآية (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها)

١٧٩ ك الأعراف ٧ .

ان البصـــيرة فقه ونفاذ

وان البصر رؤية لا ابصار فقد يكون المرء أعمى وله عينان .. ولكن الخوف غشى عليهما .

سئلت هيلين كيلر بعد ان ولدت عمياء صماء عما تعتقد انه اسوا نكبة يمكن ان تحل بانســان ما ... فقالت : (ان تكون له عينان ولا يستطيع أن يرى) ، واشد ســوءا ، فى رايى ، ان يرى ولـكن الرؤية محجوبة عنه حجبا .

لقد قطع الخوف ما بيننـا ومزق مجتمعنا وقيمنـا مع اننا بلد الأسرة المتحابة وبلد الدين .

اذا اردنا ان نعيد بناء الشخصية المصرية علينا ان نراجع مفاهيمنا للمبادىء التى تقوم عليها الأوطان وفى مقدمة هذه المبادىء (التحرر من الخوف) أن J.A. Wilson يعزو ازدهار الحضارة المصرية الى تحرر المصرى القـديم من الخـوف وايمانه العميق بوجـود رب يحميه مما اكسبه ثقة فى نفسه فجرت فيه قوى الابداع والخلق . يقول ويلسون (قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافى والأرض السمراء الخصبة المستدفئة بشمس افريقيا . ولكن السبب الأكبر وراء هذه الحضـــارة ، عقيدة المصرى القديم بأن مصر يحكمها اله هو ابن اله الشمس الذى يمنح مصر الخلود فمم يخاف) .

انه اذن الايمان والطمانينة والثقة .

وهنا مفتاح من مفاتيح الشـخصية المصرية يجب ان نبحث عنه فيما ضاع .

لا يمكن ان نعيد بناء الشـخصية المصرية الا اذا خلقنا أولا من انفسـنا مجتمعا ناضجا متحضرا يرعى الحق والجمال والخير .... مجتمعا كل شيء فيه محسوب فلا نفرق فى المدح اذا رضينا أو رهبنا ، ولا نسرف فى الذم أذا عادينا أو غضبنا ... مجتمعا لا يداجى ولا يصانع بل يؤمن فيه كل فرد حاكما أو محكوما بأهمية كل فرد ، وحرية الراى، والعمل، والتسامح، واتخاذ سبيل الاقناع بدلا من القوة ، نريد الاحكام والحكمة فى العمل والكلام معـا ... تلك الصفات التى يعدها وايتهيد Alfred North White Head من مستلزمات الحضارة .

لماذا النفاق

نحن نتحدث كثيرا عن المرافق المتهرئة ، وعن الشوارع المتحفرة . ولا شـــك ان تخريب الأرض مما يحزن ولكن الذى يحزننى أكثر هو تخريب (**الانسان**) ، **المصرى** .

لا تزال حياتنا تكيفها (المانشتات) العريضـة ، والنفـاق الذى استشرى . فنحن ننافق اذا كتبنا أو خطبنا ، أو تحدثنا ، أو احتفلنا حتى بالأعياد . وبين المداهنة والمصانعة والمبالغة يضيع الصـــدق ، وتغيم الرؤية ويحار الكريم ، وتهتز القيم . لأن النفاق يتبعه الوصولية والتبعية فيهون النجاح لأن طرقه ملتوية ، والثقة فيه معدومة .

لشد ما يروعنى النفاق الشديد الذى يســود الخطاب فى كل وزارة ، وكل ادارة ، وكل مكتب من مكاتب الحكومة .

هل نحن تحررنا من الخوف حقيقة ؟

لا اصـــدق طالما نخلع الألقاب جزافا ، ونرفع السلطة من اى نوع ومستوى ، فوق حجمها الحقيقى .

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . لن يغيرنا انفتاح أو غير انفتــاح ، ما دمنـا لا نحترم العلم ، ولا نؤمن بالتخصص ، ولا نقتصد فى الكلام ولا نعرف قيمـة الوقت ، ولا نتــورع عن الطنطنة ، ولا نمل الهتاف ، ولا نكل من دق الطبول .

زرت مرة اكبر مصانع العطور فى « جراس » بفرنســا . ولم تر عيناى بالمصنع الكبير الذى له فروع وراء البحار حجابا أو سـعاة . وهو على ضخامته واهميته به عدد محدود جدا من العاملين . كل معمل به من الباحثين اثنان أو واحد . . كل عنبر آلات به اربعة على الأكثر . .

ولو كان هذا المصنع عنـدنا لغص بالآلاف المتزايدة كل عام مع موسم القوى العاملة ... هناك كل انسان له عمل يكفى طاقته ويزيد ولهـذا يعمل بدون رقابة ولا تزويغ وبلا افتعال أعذار لأن وراءه شيئا يشده وعليه أن ينجزه .. ليست هنـاك بطالة أو بطانة ولهـذا لا يضـيع على الدولة أو الأمة ، وقت أو مال ...

وطاف بنا المدير وهو من المرموقين هناك ، على المعامل وأماكن الآلات المختلفة شارحا المراحل الكثيرة للتقطير ... وعندما نمر على باحثين أو موظفين أو عمال كان اشد ما لفت نظرى بل ادار راسى ان أحدا من هؤلاء لم يهب واقفا عندما يدخل المدير ... لم يقفز احد أو تنخلع يده فى ضرب السلام . كل انسـان منصرف الى عمله ، محترم ذاته . هناك المدير لا يفتعل أحد تحيته أو تشجيع ناديه أو تدبيج نشرة طويلة فى الصحف تعزيه فى بنت خالة زوجة ابيه ، أو تهنئة بشفاء كلبه من وعكة البرد التى المت به .

الذى حدث ان المدير كان هو الذى يحيى الشخص القادر على شرح العمل فى مكانه فيرد التحية فى اقتصـــاد .. ولمست يدى سرا كبيرا من اسرار تقدمهم ... هناك يعمل الانسان بلا عقد أو خوف قاتل او زيف واحترام مصطنع ونفاق رخيص وتاليه كافر بما يقول والقاب بلهاء مخبولة يخلعها كل واحد على كل واحد كأن الكلام يســتطيع ان يرفع خاملا ، أو يشفع للحقيقة المرة ، لهذا فقدت الكلمة الشريفة عندنا مدلولها عندما تداخلت معها الكلمة المحترفة ثم ضـاعت الكلمات ... جميعها ضاعت .. وضاعت الايام ... سرقت واحترقت ولم تخلف وراءها غير رماد ولو عشناها للأناها عملا وأملا وصناعة وفنا وحياة .

واخشى ان تتكرر الكارثة اذا كررنا الأســــلوب والسلوك على الوتيرة نفسها .

ان **النفاق** وهو من أوضــح عيوبنا وقد جاء من امعاننا فى المادية وخلونا من القيمة مما يجعل أى انسـان ينافق من يملك له النفع المادى . ... . لماذا لم ينافق الافغانى ، الملوك وهو فقا ؟ لأنه زاهد فيما بأيديهم ... **ومترفع** عليه بل هو يملك شعوبهم بشخصيته ورسالته حتى اضطر الشاه وهو الذى نفاه خارج البلاد فارقه وهو بعيد ... اضطر الشاه الى مهادنته مستشفعا عنده الباب العالى ... فقال الافغانى فى عزة العالم الزاهد الكبير بنفسه : قد عفوت عن شاه العجم !!

ولا يخفى أن من يملك العفو ، يملك العقوبة ·· مثل هذا الزهد ..ومثل هذا الاعتزاز بالنفس هو الغنى الحقيقى وان جاع صاحبه .

فصار يحسدنى من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرتمولاى

زار الخديوى اسماعيل مع السلطان عبد العزيز ، الازهر فاذا برجل يمد رجله ... وظل يمدها ولم يغير جلسته .. ففزع الخديوى وارسل اليه أحد رجاله بصرة لكى يفعل ما يفعله المستقبلون فقال لرسول الحاكم :

ان من يمد رجله لا يمد يده .

نفوس سكنتها السكينة فاستعزت لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ·· لقد آمنت بالحق ··

عندما يضطرب الماء تتعدد فيه الصورة الواحدة .. وكذلك النفس عندما تضطرب تتعدد فيها الآلهة ... فالدرجة اله ، والمال اله ، والشهرة اله ، ونحن بمواضعات عصرنا ، وواقع سلوكنا بعيدون عن التوحيد .. كل منا له هوى ، وكل منا يتخذ الهه هواه .. وهى وثنية ·· الوظيفة وثن ورئيسها وثن ، والتعصب وثن ، ونحن نعيش فى هذه الأوثان على الرغم من الأديان حين يقول أندريه مالروا : (أن المستقبل للدين) .

ان الطغيان وحكم الفرد يستلزم العبودية . ولكن الكرامة البشرية تتحقق عندما يكون الانسان قادرا على الاختيار بحرية .

وفى مصر استوجب النيل حكومة لتوزيع الماء ... وراس الحكومة القديمة ، الملك ، كان يعتبر سيد النيل أو اله النيل · فوجبت له الطاعة والامتثال ...

ومن الأقوال المسطورة فى الأدب العربى : (قال السلطان أنا لاحق بالعراق قال الشقاق وأنا معك ... وقال الغنى أنا لاحق بمصر ، قال الذل : وأنا معك .)

يفسر هذا القول نفاق من تحكمهم الروابط المادية . وقد يسأل سائل :

فى الغرب روابط مادية ..لماذا اختفى النفاق ؟ وأقول : أن سيطرة القانون وسيادة الديمقراطية حمت الفرد ، فهو يضمن حقوقه بدون تزلف أورياء الحاكم أو رثاء الناس .

بى لهفة على بدايةجديدة كريمة ونحن نستطيعان نبدا من جديد.
... نبدا على مستوى امة بدلا من ان يحاول افراد منا ان يبداوا فى بلاد اخرى وحدهم . وقد اثبتت التجربة ان معظمهم ينجحون ويتالقون وهم انفسهم كانوا بيننا مطحونين يقهرهم الغبن والتجمد والاهدار وضيق الحركة وفداحة الانصاف فى ضجيج الهتاف وتدبيج القصائد ...

اكبر كثيرا من الانفتاح ، احتـرام الكفاية واتاحة الفـرص وتقدير العمل الجاد والثقة بالانسان .. الانسان المصرى عنده الكثير ليعطيه .. عنده كنوز من الطيبة والذكاء والاخلاص والصبر والجلد والاجادة لو وجد بيئة مسـعده . فلا تلجئوه الى ان يبحث عنهـا خارج مصر .. حرام .

لقد كرم الله الانسان حين اصطفاه على الملائكة وفى هذا دعوة الى تكريم الكيان واحترام الذات ومن هنا يكون النفاق كفرا بالمعنى الدينى والاجتماعى ما معنى اياك نعبـد واياك نستعين ان لم تكن العبـادة لله وحده ، واللياذ به وحده كيف نصلى بهذه الاية ثم نتخذ من دونه اربابا. ان الايمان فى الاسلام هو استقرار هذه المعانى فى القلب بحيث يصـدر عنها العمل ومن هنا يكون الاسلام كرامة واعتدادا فلله العزة ولرسـوله وللمؤمنين .

لا خير فى قراءتنا لهذه الآيات ان لم نلتفت الى سيال المعانى التى توجيها وتهـديها فان الانسـان حين يتجـوف من المعنى ويتخو[illegible] من مخلوق مثله ، ويتخوى من القيمة يغدو خاويا خابيا . « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

الفراغ والهدر

نحن نعيش .. ولكى نحيا لابد لنا من قيم نرعاها . فان الصورة الحاضرة حتى عند غيرنا شهادة يأس العالم المعاصر المجدب من القيم .

نريد عالمية المعـرفة المتـاحة فى عصرنا فان قمة الوعى ان يكـون الاستاذ الكبير هو التلميذ الكبير .

نريد ان نعشق الاعجاز فى الأداء حتى تصل الرفاهة والرهافة فى العمل الى عتبة الصمت .

نريد ان نكف عن الثرثرة اذا تكلمنا ، او كتبنا ، او وضعنا لحنا ، او رسمنا .. ان الفراغ هو شـحن الرؤية بشىء غير مرئى فتصـل الى تركيز .

الفراغ فى الموسيقى هو الصمت او هدوء ذخر النغم .

والفراغ خلوة لا خلاء .. خلوة مع الذات او مع الاخرين فى اعمالهم هى انس وصفاء ونماء .

وفى الأدب الكلام الـكثير يقلل المعنى .. يسـخطه .. يحوله الى كلام فارغ .

اما فراغ قزقزة اللب فهو مهانة .. كل هذا الجهازالانسانى بخلاياه واعصابه ولحمه ودمه يستخدم فى القزقزة !!

ثم ان القزقزة قتل اللبة .. قتل جنين نبات .

القزقزة مقصلة .

نريد فراغ التركيز . ليست المسألة كبر الجرن ولا شماتة الأعداء كما يقول المثل الشعبى حين كان الشعب مطحونا يعوض نفسه عن القيمة

الحقيقية وان دقت ، بالمظهرية .. كما كانت القرون الوسطى تفيض في الشرح والزيادة حتى غدا هذا طابعها .. هي الاخرى تحب (تكبير الكوم) ومن هنا كثر الوضع من ناحية والشروح من ناحية اخرى .

هذا بينما الحضارة القديمة كان طابعها :

التجربة ممثلة في مصر .

التنظيم ممثلا في اليونان .

حين أعطت مصر للدنيا الورق والقلم ٠٠ حين ابتدعت الكلمة ورسمت الصورة ٠٠٠ كانت الصورة في مصر كلمة ، والكلمة صورة ٠٠ في تركيز حكيم وعليم .

اليوم الصورة في مصر امية ، والكلمة فارغة أي الاثنان خلو من المعنى .

وخلاء المعنى امتد الى الاقلام والمباني .

ان مصر حين عمرت في العصر القديم ، كل مكان وكل شيء بالمعنى تعددت منابع ثقافة الانسان المصري القديم لانه كان بهذا يثقف حين يذهب الى المدرسة ، والى المكتبة .. وحين يذهب الى الملعب والى المنتزه بل ياكل ويشرب وينام ....

كانت ادوات الأكل مشحونة بالقيمة لأن الصانع شكلها على صورة فنية رقيقة وجميلة ....

كان السرير قطعة فنية .

والعين بين هذا وذاك تنتقل وتلتقط وترتوى ...

ويهنأ الانسان .

ويشبع وجوده .

ومن هنا كان البيت اما .

والمدينة اما أكبر .

حين يحتضن كل منهما الانسان ويربيه ويشحنه بالقيمة ومن هنا اقول :

حين يحيى العرب قيمة الكتاب العربي .. ويحيونها

حين يستعيدون فقه الصورة .
يومئذ يتأصل الكتاب بينهم وترشد القراءة .
يومئذ يستردون مكانهم ومكانتهم .
لأن ذاتهم عندئذ تحققت فحققت .
ان خسوف الرؤية ، وكسوف الهدف ، ضياع .

وان وضوح الرؤية + ذكاء الهدف ، قيمة فى ذاتها تضفى على صاحبها جمالا خاصا بينما التائه فى طريق الحيــاة لا يعرف كيف ينتمى ، هلفوت ، مهما كان جميلا أو غنيا ....

والانســان قيمته من نوع وحجم غايته التى يسعى اليها فمن غايته الغنى ، قيمته بما عنده .. ومن كان غايته الفن فقيمته لا تقدر بمال ، لقد بعث النبى رحمة . وكل انســان يجب أن يكون رحمة لا بالوعة .. منحسة لا محنة .

الأمية

عندنا اميتان لا واحدة .

لاننا اعتدنا (ثقافة) الصحف والاذاعة والتليفزيون ، نسينا ان هناك ثقافة تحت السطح ... أعمق .

نسينا ان أجهزة الاعلام « دعاة » لشيء معين . والدعاة مهمتهم التبسيط والتيسير فهم لا يريدون من جمهورهم اجهاد تفكير بل تقبلا سهلا أو سهلا متقبلا ...

فرق بين **الدعاية والدعوة** أى القضية .

نريد الفكر الحر الذى يستعرض المسلمات ولا يسلم بها بل يناقشها ويمحصها ، الحضارة والانسان كليلى والمجنون .. والانسان فى سعى دائب الى الدنو منها . ومن كرامة الانسان ان يظل باب الاجتهاد مفتوحا لتتواصل الحضارة .

الفكر الحر الذى يرتفع على التبعيه يصل بنفسه ولنفسه ، الى النتائج ....

ان التربية الحقيقية هى اكساب الاولاد عادات فكرية .. ان النفس البشرية مجموعة قدرات تنتظر صياغة ... وهذه الصياغة تقوم بها الثقافة ... ان القراءة نماء ولألاء وتألق .. والتبعية اطلاع بلا هضم ...

ان المثقف هو الانسان الحر التفكير .

ان حامل المؤهلات متعلم ولكن الثقافة شيء آخر بعيد .. الثقافة خبرة مقطره . قد توصل المؤهلات الى وظيفة كبيرة ولكن الثقافة الحقيقية تعطى (انسانا كبيرا) . وكم بين الموظف الكبير والانسان الكبير .

ومن الثقافة التحديد ... الادراك الدقيق للمهام والاعمال ..
الثقافة هى الكيفية .. الكراتيه عراك مثقف نابع من ثقافة اليابان .

عندنا تجار شنطة فى الثقافة وهم مستوردو الأفكار والصور مع ان الثقافة كالصحة لا تستورد ولا يغنى فيها صحة الغير مهما كان قريبا او عزيزا .

اننا نطالب بمنع اللب فى السينما ولكننا ثقافتنا قشور وحديثنا قزقزة .. فلم نعد نكلف أنفسنا النفاذ الى الأعماق التى انشغلنا عنهسا بالشرثرة والاستطراد يشيع فى كلامنا بل وفى تخطيط مدننا خاصة فى العصر الوسيط . فانت لا تكاد تاخذ فى السير حتى ينعطف بك الشارع فى ممرات جانبية وازقة تفضى بعد حين الى الطريق الرئيسى ثم يتفرع مرة اخرى وهكذا .. ويتمثل هذا فى طراز العمارة الخاصة بالمساكن التى يضمنها اصحابها دهاليز (مسروقة) الخ .

ان الانجليز يسمون ظاهرة الاستطراد عندنا :

The Story of the Merchant

فاننا لا نكاد نشرع ، فى رايهم ، فى حكاية التاجر حتى نستطرد الى موضوعات وموضوعات ثم نعود الى حكاية التاجر من جديد . وهكذا فلا الحكاية تنتهى ولا استطرادنا يكف ..

ونحن نتكلم كثيرا لاننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا نريد ان نقول كما يقول امرسون :

He did not know what to say, so, he cursed

ما احوجنا الى القصد فى القول والعمق فى التفكير والانفتاح فى الايمان لنحب فى صدق : الدين والفن والحب .. فنتعاطف ونتواد فلا يعد باسنا بيننا شديدا يحسبنا الناس جميعا وقلوبنا شتى .

والناس امية وعندنا اميتان :

امية روحية انتهت الى مشيخة وما يتبعها .

وامية تشكيلية مع ان مصر كتبت تاريخها بالتشكيل .

مصر ليس عندها فلسفة بالمعنى الحرفى لكلمة فلسفة .. ان فلسفة المصرى يغلب عليها الطابع الدينى .. الرؤية الدينية الشاملة ..

ليست فلسفة الحادية كماركس

وليست فلسفة مادية .

ولكنها اسلوب تفكير .. اسلوب حياة .

المبالغة بين التهوين والتهويل

اننا كثيرو الترديد فى كلامنا لكلمة الصحة ..

رسائلنا تستهل بالسؤال عنها ، ولقاءاتنا العابرة تفتتح بها ، وسمرنا التليفونى أو الهاتفى يبدأ بها ، ومع هذا نحن لا نقصد الا الاهتمام بصحة الجسم .

من الناس من ينزعج اذا أصيب بزكام ، وما درى أن داخله داء مضالا بافتقاده الحرية والارادة ..

ليس صحيحا ان انتفاء الحاجة الى الطبيب معناها السلامة من المرض ... هذه صحة سلبية .

أما الصحة الايجابية فهى الشوق والحماسة والاستشراف .

لو أحيينا فى النفس لهيب الشوق الذى يستحيل مع القلب الى جذوة ، ويستحيل عليه أن يصير رمادا ، لحيينا .

ما هو التصوف الحقيقى ؟

انه سفر من الدنيا الى العليا فى محاولة تفوق على الذات المحدودة -

وقد تكون هذه المحاولة فى العلم ... فى الادب ... فى الفن .

تصوف كل عكوف على هدف عظيم .

ان الصحة النفسية ليست الا اعادة السلام الى نفس تفرقت اشتاتا .

ومن الصحة الايجابية ، الدين . ورجاله الكبار كالمسيح ومحمد أطباء نفسيون يطبون حتى للاصحاء ... ومن هنا نفهم قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

الصحة عزة ومعزة .

ان قصة ابن طفيل الفيلسوف الاندلسى (حى بن يقظان) أهم من روبنصن كروزو . انه كتاب فى التربية بما يتكلم عن رؤية الله وما يعلم من مصادقة الطبيعة والاهتداء بالفطرة التى يقضى فى النهاية الى الدين .

ولأمر ما سمى ابن طفيل قصته (حى بن يقظان) فى دعوة الى الحيوية اليقظة .

وعندما رست السفينة فى القصة على جزيرة ، التقى حى بن يقظان بانسان القوانين والشرائع فأمكن الالتقاء .

.. ما جاءت به الأديان قار فى القلب البشرى لو عرف الانسان كيف يبعثه .

على ان الدين يزيد الحيوية ومن هنا الاية :

(فان يكن منكم مائة صابره يغلبوا مائتين) ٦٦ م الانفال ٨ .

ومن هنا يأتى ضعفنا حين ننسى الله وننسى الدين (نسوا الله فانساهم انفسهم) .

نريد توازنا فى شخصيتنا لا يندب المشكلة ولكن يحاول حلها فى هدوء وموضوعية ... ان الحياة هى الانتصار على مجموعة مشاكل . فوجود المشكلة ظاهرة طبيعية . وانسان بلا مشاكل ، ميت . وحتى الميت له مشكلة هى حساب الله له .

كالرياضة مطلوب السباحة فى الأحداث اى مهارة التوازن فيها لا الطفو على السطح بلا مهارة ، أو الغوص فى القاع ، اى الغرق من الجهل بالسياسة ... وهنا يصير الحدث حادثة .

ان مثلنا الشعبى يقول : الشجاعة صبر ساعة . ويمضى الادب الشعبى يقص قصة الاصبع .. أى المتصارعين اللذين جعل كل منهما اصبعه تحت ضرس زميله . وكان التحدى من يصرخ أولا .. وصرخ أحدهما فقال له الآخر :

ـ لو لم تصرخ انت لصرخت انا ... فهو يحس ولكنه تجلد .

لقد أعطى كارليل كتابه الكبير عن الثورة الفرنسية الى صديقة لتقرأة قبل أن يدفع به الى المطبعة .. واخذته السيدة . وجلست أمام

المدفاة فى بيتها لتقرأه ... وغلبها النعاس فسقط الكتاب فى النار .. واحترق !!

وعرف كارليل بالطبع ... فكتب الكتاب مرة ثانية .

هذه هى السباحة فى الاحداث . ولو ندب حظه لامتصته اللحظة بدلا من أن يمتصها .

ان المعلم حين يخترع الوسائل انما يرتفع فوق الاحداث .

السكينة ارتفاع فوق الاحداث من ثقة الانسان بربه ، وبنفسه ، والسكينة لا تعنى السكون .

العقل يرى السكينة ضد الاضطراب .

والفن الصينى والهندى يعبر عن السكينة تعبيرا بوديستيا أقرب الى العزلة . أما المصرى الحقيقى فيرى السكينة قيمة ايجابية وعطاء ضمير ... نفحة فيض من سلام .

السكينة طرح القلب الانسانى عندما يصل فى نضجه الى قمة الشرف والترف .

ان الانسان المصرى يذكر المتأمل ، بالفيلسوف الراقى باحتماله وتجلده .... والرواقية من مقومات الفكر المصرى المسيحى والاسلامى.

ومع هذا فان السكينة المصرية اى المفهوم المصرى لها ، شىء غير الجلد الرواقى ... انها شىء اكبر بفضل مدد علوى هو اطمئنان وتواصل وتقبل لفيض هناءات تهون امامها الخطوب ، وتتجدد الرؤى ، وتشرف النفس من علياء عزها الجديد امام احتدام الامور .

انها ميلاد للنفس يعود به الانسان من غربته ... يخرج من عذابه أو يعلو عليه ....

ولعل هذا يفسر الاية (يا نار كونى بردا وسلاما) .

ان الآية الكريمة دعاء لابراهيم بالسكينة تصير معها النار نفحة نور لا لفحة سعير .

نحن سريعو الغضب ، سريعو الفيء الى الرضـا كالمازنى ....
ليتنا نستمع الى قول حكيم الصين « لاوزا » : ، عندما يولد الانسان يكون رقيقا ناعما ... وعندما يموت يتصلب .

الاشجار الحية مملوءة ماء ... اذا ماتت جفت ..)

اذن كل رقيق ناعم الى اعلى ... للحياة .

وكل صلب جاف الى اسفل .... للكسر .

نريد أن نصطلح مع الحياة ومع أنفسنا .

وليس من الصلح مع الحياة ، وليس من طبيعة مصر ، صراع المذاهب .

ضياع الفرد

تتردد كثيرا على السنتنا واقلامنا الفاظ الديكتاتورية والشيوعية والراسمالية ولست اومن بها او باحداها .. فالديكتاتورية والشيوعية كلاهما غبى احمق .

غباء ان تقبرك العقول والافكار .. وغباء أن تسوى بين العقول وقد خلقها الله متفاوتة متباينة الحظوظ من الذكاء ...

ان الديكتاتورية كفر .. كفر بالانسان وعقله وارادته .. كفر بالدين الذى كرم الانسان ودعاه الى التفكير واعترف بارادته يوم هداه (النجدين) وهما طريق الخير وطريق الشر .

الديكتاتورية كفر بكل القيم . والماركسية لم تستطع ان تحرر الفرد من الاستبداد . ان هربرت ريد فى كتابه (فلسفة الفوضوية) لم يكن ماركسيا بالمعنى المتعارف عليه عندهم . لم يفكر ماركس يوما أن تكون نظرياته شاملة بل قصد بها أشياء معينة .

ان الاشتراكية ليست تبطيط المستويات ودكها الى اسفل ، ولكنها ، المفروض ، تحرير من هموم الضرورة ، ولقمة العيش فى عملية صعود انسانى الى أرقى .

وازاء فشل الماركسية والراسمالية قام مذهب جديد يمتص سخط الجماهير هو « الفاشية » فاذا بها كما يقول هربرت ريد ، تنظيم انانى للقوة .

ان الوجودية تبالغ فى تأكيد الفردية .

حين تبالغ النازية والفاشية فى مسح الفردية لتأكيد القطيع .

ان المناهج الموحدة ، والاذاعة ، والوسائل الاعلامية من شأنها أن تخلق انسانا جماهيريا .. انسانا نمطيا كاليونفورم .. انسانا مقيدا بالحشدية .. مسلوب الحرية .. انسانا صفرا .. ومليون صفر لا تصنع واحدا صحيحا .

مثل هذا الانسان من السهل ان ينقلب الى النقيض لانه أصلا لم يحقق ذاته ولم يحقق لها استقلالا خاصا فسرعان ما يتعرض لتشقق شخصي وثقافي .. وهذه ازمة الانسان المعاصر حتى في أوربا المتقدمة . انها في قحطها الروحي تجرى وراء اشباع الروح في اليوجا .

وليس هناك اخطر على الانسان الاوربي من اخذه باليوجا الصينية لان المسألة عنده مسالة ارادة ووعي . والأمر أكبر من هذا فتحدث النتيجة نفسها التي اريد تجنبها . اي تنمية الوعي ضد اللاوعي فيصاب الانسان الاوربي بالعصاب اي بالاضطراب .

حين كانت اوربا تتسابق في الفتك من سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت الهند تشغل الدنيا ببساطة وسماحة غاندي وشاعرية تاجور .

ان الهند تعرف الثقافة بلفظة « سنسكريت » اي **التطهير والتغيير وايقاد الحماسة والتهذيب وتحقيق الكمال** .

ان كلمة « اليوجا » معناها : النظام .

سئل يونج عن سر ازمة اوربا فقال في كتاب (The Undiscovered Self) « هي ضياع قيمة الفرد » .. الانسان في العصر الحديث والانسان الغربي خاصة انسان احصائي .. انسان متوسطات . فذكاؤه من خلال متوسط الذكاء لمجموعته .. ومثل هذا يمكن ان يقال عن سائر قدراته .

ان ازمة الانسان المعاصر انه انسان مذاهب .. والمذهب دهماء منظمة تسوق الى الخراب اذا قادها مجنون .

ان الفرد في حشد كبير ينحط خلقيا واجتماعيا كما يفعل الامريكان عندما يجتمعون لتعذيب الزنوج فياتون من ضروب الوحشية مالا يتردى اليه ، وفيه ، انسان وحده .

ان مأساة الانسان المعاصر مأساة بروميثيوس الذي حاول تحدي الآلهة فارتطم بالجبل (جبال القوقاز في الأسطورة) .

لقد اعتمدت الحضارة الحديثة على الذهن وحده ·· والنمو فى جانب واحد حتى الأخلاق يؤدى الى الانهيار المحتوم ·

ان العمل على تناغم الارادة والقدرة شىء أكثر من الفضيلة .

انها الحكمة ·· ومن هنا نفهم قوله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

ان الانسان المتكامل نفسيا هو الذى اصطلح فى داخله الوعى واللاوعى . والتكامل شوق الانسان ولو لم يدز ، الى هذا اللقاء الداخلى . لهذا وجدت الديانات لتغذى حنين الروح الى ذلك التكامل.

لهذا وجدت الديانات .

ولهذا عاشت .

ان التقوى هى اتقاء نزعات الشر ونزغات الطغيان ·

والشيطان هو الجزء الثائر المحروم المنبوذ فى النفس .

الانسان البدائى يعيش بروح القطيع ويتملكه الرعب ان خرج على عرف الجماعة التى يعيش فيها ·· هنا تأتى الأديان فتنظم نفس الانسان وتمنحها الاستقلال النفسى ..

الدين ذلك الفيتامين الذى لا يباع فى الصيدليات .

ان كل المذاهب والطبقات وكل صور التجمعات تستمد من عالم الماضى ، ولكن وحدة المستقبل هى **الفرد** .

الفرد الذى يخلق نفسه اى **يعطى بحرية ويتلقى بحرية** ·

الانسان الطفل هو الذى يعتمد على الحزب او الزعيم أو الحكومة .. ومن هنا يكره المتازون التبعية من أى لون ··

اما رجل الحشد فيتوهم او يوهم او يشبه له ان القمة ممثلة فى الحزب أو الحكومة تحقق له كل شىء .. حالة وهمية او الحلم الطفلى. انه الارتداد الى جنة الرعاية الوالدية .. وعندما يسود الوهم بأن الحكومة على كل شىء قديرة ، يكون الطريق الى الاستبداد ممهدا ، وهنا يكون الاستعباد الفردى لاحقا بالضرورة والمنطق ··

لقد كان الناس فى العصور الوسطى يرون الانسان عالما صغيرا (ميكروكوزم microcosm وهى نظرية سليمة تربط الانسان ببيئته ، ودينه .. ولا يمكن لأحد أن يسلب انسانا ، الهه ، ومن حاولوا هذا فى العصر الحديث اعطوه الها آخر .

وحين يبتعد الانسان عن الدين يحدث له اضطراب عصابى .

وحين تتوقف المحبة ويحل الشك توجد القوة والعنف والرعب وزوار الفجر .

ان السعادة والرضا وتوازن النفس وثراء الحياة ، معان لا يمكن ان تخبرها الدولة بل يخبرها الفرد ..

دولة مراكز القوى جهاز يقمع الفرد فان احسنت اليه فغالبا ، تعمل على تعضيد اوهام الفرد لأنها لا تبنى نظرياتها على فهم وتفهم نفس الفرد فهى اصلا لم تقترب منه ولم تدرس احتياجاته الحقيقية .

انها تعرف احتياجاتها هى لاستبقاء السلطة .

والمجتمع الذى يضيع فيه الفرد مجتمع متخلف ولو ملك المال والنفوذ وأحدث الوسائل · ومن هنا أدان « برنارد شو » الحضارة الغربية فى كتابه (دليل المرأة الذكية) ، وأدان « ديوى » ، أمريكا ، فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة .
Individualism Old and New

لقد حاولت أوربا وأمريكا اللتان نقلدهما سحب السجادة من تحت قدمى الفرد بالآلة ، والنمطية ، والحركات الحشدية اجتماعية وسياسية . الانسان الغربى انسان احصائى .. انسان متوسطات فذكاؤه من خلال متوسط الذكاء لمجموعته . ومثل هذا يمكن أن يقال عن سائر قدراته . وهل يميز انسانا عن انسان الا صفة فريدة فيه ؟

حتى الاخلاق حين ضعف سلطان الدين غدت أمورا تواضعية مادام الفرد لا يحس بمسئوليته أمام الله . ذلك الشعور الذى يرتفع على القانون · فقد يستطيع الخاطىء أن يهرب أو يتهرب من القانون أو يفلت من العقاب ، ولكن صاحب الحس الدينى ، السلطة الرادعة فى داخله .

والدين ليس المبادىء الأخلاقية مهما كانت رفيعة ، وليس العقائد مهما كانت مستقيمة .

ليس هذه أو تلك فكلاهما لا يشكل الأساس لحرية الفرد من اسر (الحشدية) التى هى المجتمع أو الكتلة ..

والدين الذى اعنيه غير العقيدة . فالعقيدة كما يقول يونج اعتراف بالايمان ، ولكن الدين علاقة الفرد بالله أو علاقة الفرد بالتحرر .

ان الولاء لعقيدة معينة ليس مسألة دينية ولكنها فى الغالب مسألة اجتماعية فلا مفعول له ولا قدرة على منح الفرد أساسا يستند اليه ..

هذا حين يتفيا الدين المحافظة على التوازن النفسى .. ان النفس الشعورية فى الانسان يمكن فى اى وقت أن تعوق وظائفها بوساطة احداث من الداخل والخارج لا يمكن التحكم فيها .. لهذا يلجأ الانسان فى القرارات الخطيرة الى القوة العليا تبركا بها .. المؤمن عنده (ارتكاز) .

ان النقد الذى يسمى نفسه مستنيرا حين يخضع الدين لنظريات عقلانية ، وتصوير ، محتواه ، بأنه مستحيل، يخطىء مثل هذا النقد الهدف والمرمى فلا يصيب الدين ولكن قصاراه ان ينتهى الى دين آخر هو تأليه الدولة او الديكتاتور .

ان الدين وظيفة طبيعية وجدت منذ البداية لا يمكن القضاء عليها بالنقد العقلى الذى يعرض المعتقدات الدينية على المنطق الذى يفضى الى السخرية منها .

سحق الفرد أو تضييعه لا يغتفر تحت اى اسم من الأسماء . فالكنيسة نفسها حين ربطت الفرد بها فى الغرب لم تفلح. ولهذا خرجت الحروب الدموية من القارة التى تدين بالمسيحية التى تقول ان الله محبة .

الكنيسة فى الغرب حين ربطت الفرد بها افقدته الشعور بالمسئولية .. وكان الأخلق بها أن تشعره بقيمته .. بقيمة الانسان الذى كرمه الله واكرمه بالعقل وقدرة التفكير التى يمتاز بها الانسان ، ولو أخطأ ، على (الملاك) اى الملك . فالقدرة على الخطأ ميزة لا عيب حين تعنى هذه القدرة ، التجريب .. المحاولة والاجتهاد .. السعى . ولهذا يقول رسول الاسلام :

(من اخطأ فله اجر ومن أصاب فله أجران) .

امـا الذى يعيش فى القبة السماوية بعيدا مع النجوم بعيدا عن الاغراء والاغواء فان من العفة الا تجد .

ان الرعب الذى اوقعت فيه الديكتاتورية ، الانسان ، هو قمة الفظائع التى اقترفها الغرب . فحمـامات الدم التى اغـرقت الـدول المسيحية فيها بعضها ، بعضا ، والجرائم التى ارتكبها المواطن الأوربى ضد الشعوب السمراء اثناء استعماره لها ، حلقة متصلة ...

ومثل هذا الرعب شكل فى بلدنا احيانا سحابة قاتمة فوق رءوسنا. وقد حق للرعب والخوف والقهر الذى كان ، ان يحل محله رابطة من النوع الوجدانى تعود معها بيننا الصـلات الانسـانية التى وهت وكاد يدمرها الشك والتوجس فبتنا فى حالة تقاعس اخلاقى شـاهت معـه الوجوه والنفوس وتاهت المعالم والصفات .. مع أن الانسان لا يكون انسانا الا اذا كان له موقف تجاه النفس وتجاه الآخر .

انسان ثراؤه ليس خارجيا واردا من ثقافة مكتسـبة أو مذهب ولكن ثراءه داخلى من صفاء الذات ورهافتها وكرامتهـا بالحرية .. انسان هو نفسه موضوع وشخصية .

اننا اذا اعتبرنا الثقافة نمو النفس فان هذا النمو لا يتحقق الا فى جو من الحرية يتيح للنفس الانسـانية الـراقية ان تعطى ما لديها من الادراكات والمنجزات والطرح فلا يهيج ولا (يهج) مثقفونا الى الخارج فارين أو يائسين لأن المحيطين بهم عندهم نزوع (نطوحى) ضد المثقفين .

لقد اعتبر كارليل بثقافته (نابليون) انسانا متوسطا ولكن الفترة التى نتحدث عنها فترة نابليونية . كم من واحد فيها عامل «نابليون» . ومن الأسف ان كثيرين منا ، صدقوا كثيرين منهم . فعبادة الاسم فى الشرق رسم من رسومه كذلك التركى الذى امضى الليـل كله وهـو يستمع الى صاحب الربابة وفى نهاية الليل قال له :

ـ اسمع قول حظرتكم شوية ابو زيد الهلالى علشان حظرتنا يكون مبسوط .

فرد عازف الربابة :

ـ كل ما سمعته كان عن (ابو زيد الهلالى) .

فتهلل وجه التركى وقال :

ـ لازم انا كنت مبسوط .

وبعد هذا كله طار صـوابنا عندما وقع العدوان . ان العـدوان الحقيقى وقع قبله على العقول .. على القيم . فالتحـرير الثقافى .. **تحرير الكيان المصرى البشرى هو اساس كل تحرير ...**

اننا ، باللاوعى الذى نعيش فيه فى حالة اغماء قومى ، ولا صحوة لنا الا أن نبحث عن المفتاح الذى أضعناه .. أعيدوا تقييم وتقويم حياتنا وسلوكنا وتعليمنا ... لنعرف :

اى قيمة تعنى كلمة (مصرى)

اى قيمة يعنى الاسم : (مصر)

من مؤلفات الكاتبة

* من عبقرية الإسلام .
* أعيدوا كتابة التاريخ .
* شخصية مصر .
* النيل فى الأدب المصرى .
* خصائص الشعر الحديث .
* الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد .
* أدب المازنى .
* فى أدب الرافعى
* أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية) .
* أم كلثوم وعصر من الفن .
* الأدب والحضارة .
* التراث والحضاره
* قمم أدبية .
* ناجى الشاعر
* شعراء ثلاثة : ناجى . الشابى . والأخطل الصغير
* مشروع هضبة الأهرام أخطر إعتداء على مصر .
* أزمة الشباب . وهموم مصرية
* مصر تدخل عصر النفايات
* الإسلام وإنسان العصر «العودة إلى المنبع» .
* رسائل إلى ابنتى
* رسائل إلى ولدى
* القاهرة فى حياتى
* رحلة الشرق والغرب

« سافرت فى الإنسان والمكان والزمان» .

* فى بلادى الجميلة
* صناعة الجهل .
* قبة الأمام الحسين قضية حكم .
* اللص والكلاب (محنه من عالم البنوك المصرية)
* كتبت يوما : فى الأدب / النقد ، الفكر ، الفن

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٦٤٦/١٩٨٩

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢١٣٤ - ٧

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٣٦٤٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢١٣٤ - ٧

تتمنى الهيئة أن يقرأ هذا الكتاب كل مصرى وأن يناقشه كل مثقف وأن تجعله دور التعليم نهجاً ومنهجاً . فالكتاب عن مصر على مسار عصورها كلها . . . كتبته المؤلفه فى إحاطة شاملة واستقراء محيط ووعى متفتح وصدرت فيه عن عاطفة عميقة حميمه وعبرت عن هذا كله بأسلوب قوى آسر ، وأثارت فيه قضايا بالغة الأهمية ، فصححت مفاهيم شائعة ، وحددت اتجاهاً جديداً فى معنى « المصرية » بعد أن بلورت من الحقائق الثابتة شخصية مصر وركزت الأضواء على قسماتها .

تناول الكتاب فيما تناوله ، عطاء مصر الحضارى : عطاءها للأديان . . للإنسان . . للفنون . . للعلوم .

وصور الكتاب ، الشعب المصرى وفلسفته فى الحياة ورأيه فى الحكم ، وأسلوبه فى المقاومة .

ناقش الكتاب عيوبنا الحاضرة مناقشة جذرية . . وفى الكتاب قضايا كثيرة ومثيرة ناقشتها المؤلفة فى جرأة مناقشة علمية أمينة منصفة .

سوف يعتز كل مصرى بهذا الكتاب .

٣٦٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

To: www.al-mostafa.com